

السودان

1847 - 1852

والرحالة الألماني بريم

ترجمه من الألمانية:
النور عثمان أبكر



2010



الشاعر والمترجم الراحل

1938 - 2009

النور عثمان أبكر

- بكالوريوس الأداب جامعة الخرطوم 1962، وعلى دبلوم تعليم اللغة الإنجليزية جامعة ليدز بانجلترا 1970.
- عمل مدرسا للغة والأدب الإنجليزي ومترجماً صحفياً ومستشاراً لشؤون السودان بسفارة ألمانيا الغربية بالسودان 76 - 1979، ومترجماً ومحرراً ومديراً لتحرير مجلة الدوحة القطرية 80 - 1986، ويعمل منذ 1986 مترجماً وصحفياً بالديوان الأميري في دولة قطر حتى رحيله.
- نشر العديد من مقالاته وأعماله النقدية في الصحف والمجلات.
- دواوينه الشعرية: صحو الكلمات المنسية 1971 - غناء للعشب والزهرة 1974.
  - النهر ليس كالسحب.
- مؤلفاته: دراسة في شعر الشباب، إلى جانب عدد من الترجمات في مجالات التاريخ والاجتماع والأدب من الألمانية والإنجليزية.



غنى أدب الرحلات الالمانى بالكتابات عن السودان ومنها تلك التى سجلها بريم. وكانت تتمتع بالدقة والملاحظة والتى كان يستجيب لها مزاج القرن التاسع عشر. ولئن كانت الخرطوم والسودان فى بداية القرن الماضى قد شهدت عددا كبيرا من الزوار الاوروبيين فإن فترة ما قبل الفتح التركى لم تعرف سوى عدد ضئيل من الرحالة.

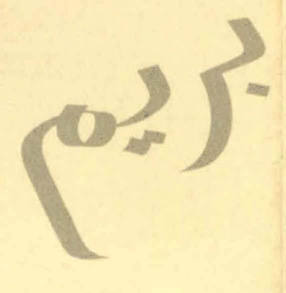
وهناك بعض الألمان الذين أتاحت لهم فترات عملهم فى الإدارة التركية فى السودان فرصة المعايشة والتمرس بحياة السودان وبلاده. نذكر منهم سلاطين باشا وهاينريش بارت وجورج شفاينفورت وغوستاف ناختيقال ووليم يونكر.
هذا الكتاب كتب أصلا فى شكل يوميات قصد بها بريم تسجيل أيامه وملاحظاته ومشاهداته وتجاربه فى السودان. وهو فى موقفه من المسلمين والثقافة الاسلامية العربية يختلف كثيرا من رحالة ذاك الزمان. كان به توقير لديانات أهل السودان. واحترام وحب لمن عاشر منهم.



الخرطوم ـــ العمارات ش 41 من محمد نجيب
م: 0122102076
eliasfann@hotmail.com
2010

رسم الغلاف:
مقر حكم المهدى (الأبيض)
From Century Magazine
March 1885

السودان
والرحالة الألمانى
بريم



تصميم الغلاف والإشراف العام:
إلياس فتح الرحمن
الطبعة الأولى
2010



الرحالة الألماني بريم

رحلة دارفور

1847 - 1852

تأليف ألفريد ادموند بريم



1847 - 1852

تأليف ألفريد ادموند بريم

ترجمه من الألمانية
النور عثمان أبكر

راجع النص العربي
د. اسماعيل الفحيل



الرحالة الألمانى بريم - رحلة دارفور

المؤلف: ألفريد ادموند بريم

ترجمه من الألمانية: النور عثمان أبكر

مراجعة النص العربى: د. اسماعيل الفحيل

الناشر



الخرطوم - العمارات
شارع 41 من محمد نجيب ت: 0122102076

التنفيذ الداخلى

عفت إبراهيم

خطوط الغلاف

الفنان التشكيلى: تاج السر حسن

رقم الإيداع: 2010/14296



غنى أدب الرحلات الالمانى بالكتابات عن السودان ومنها تلك التى سجلها بريم، وكانت تتمتع بالدقة والملاحظة والتى كان يستجيب لها مزاج القرن التاسع عشر. ولئن كانت الخرطوم والسودان فى بداية القرن الماضى قد شهدا عددا كبيرا من الزوار الاوروبيين فإن فترة ما قبل الفتح التركى لم تعرف سوى عدد ضئيل من الرحالة. وبعد رحلة الحج التى قام بها الفارس آرنولد فون هارف عام 1496م وزار فيها مصر حتى أرض النوبة واثيوبيا، مضى قرنان من الزمان قبل أن يطلع الأب الفرنسسكانى ثيودور كرومب عام 1701م ومعه عدد من المبشرين ليسافر من القاهرة عبر طريق القوافل، الطريق التى تمر بواحة سليما وموشو ودنقلا الى سنار عاصمة مملكة الفونج. وبعد عام تمكن من العودة من الحبشة، وعام 1710م ظهر كتابه المشهور فى مدينة اوغسبورج.

وبعد سبعين عاما من رحلة جيمس بروس الاسكتلندى من غندور عبر سنار واسوان نشكر للرحالة السويسرى يوهان لودفيج بيركهاردت تصويره الكلاسيكى لأرض النوبة وشمال السودان قبيل الفتح التركى.وقد عبر بروس عام 1813م مع قافلة محملة بالعبيد

الصحراء النوبية ونزل سواكن على البحر الاحمر عن طريق شندى وبربر.

وبعد تطوير الملاحة بالسفن البخارية فى البحر الابيض المتوسط اضحى الاتصال بمصر اكثر يسرا، وتدفق عدد كبير من الرحالة الاوروبيين الى مصر أرض الفراعنة، لكن قلة منهم جرأوا على السفر عبر الجنادل النيلية الى داخل السودان. لكن بعد سقوط دولة المماليك ازدادت الزيارات وصار ممكنا للتجار والمبشرين أن يزوروا أرض النوبة وكردفان وسنار، كما للمغامرين والباحثين. وشقت طرق جديدة آمنة.وقد ترك كثير منهم انطباعاته وملاحظاته ومشاهدته فى كتب أو مقالات..وكانت دوافعهم متباينة،منها ما يتصل بالمغامرة أو حب الاستطلاع أو حب اقتناء العاج أو البحث عن اكتشافات جغرافية.

وقد تركوا مذكرات ويوميات وخطابات.

وكان بريم قد عرف الرحالة الألمان الذين سبقوه الى الترحال فى بلاد السودان،وقد ذكر معظمهم،وبينهم الرحالة روبل وكتابه " رحلات فى النوبة وكردفان " الذى ظهر عام 1829م. وج.فون روسيقر الذى كان لكتاباته عن المعادن أثر مشجع ودافع لمحمد على للبحث عن الذهب فى السودان؛ وفون هيقلن بلهارز الذى اكتشف داء البلهارسيا، وآخرين. وقد كانوا جميعا مسحورين مأخوذين باتساع وعذرية أعالى وادى النيل.

كان السودان على أيام بريم هدفا مقصودا للصيد ورحلاته وللسياحة الساعية للإكتشافات الأثرية. ولذا فقد قام عدد من الأمراء الالمان برحلات يصحبهم من توخوا فيهم الدراية العلمية والصداقة، ومن هؤلاء الأمير فريدريش فون فورتنبورج الذى وصل حتى حدود الحبشة

من جهة فازوغلى فى الاعوام 1839 ـ 1840م. كما قام البارون النمساوى كالوت بزيارة الخرطوم عام 1831م بحثا عن الآثار القديمة، وبلغ سنار والقلابات على الحدود الحبشية.كما ان بريم نفسه قد رافق حاكم ساكسون كوبيرج غوتا فى رحلته الطويلة للصيد فى شرق السودان وارتيريا، بعد عشر سنوات من رحلات بريم فى السودان.

ومع تزايد الاهتمام بمعرفة منابع النيل فى منتصف القرن التاسع عشر شهد السودان دفعة جديدة من الباحثين وطلاب المتعة والرحلات والمغامرين. وقد اسهمت سهولة الملاحة عبر قناة السويس فى فتح طرق للمواصلات جديدة فى السودان.

وهناك بعض الالمان الذين أتاحت لهم فترات عملهم فى الإدارة التركية فى السودان فرصة المعايشة والتمرس بحياة السودان وبلاده، نذكر منهم سلاطين باشا وهاينريش بارت وجورج شفاينفورت وغوستاف ناختيقال ووليم يونكر.

لم يكن السودان اذا مجهولا للألمان حين زاره بريم للمرة الأولى عام1848م برفقة البارون فون موللر، وسجل مشاهداته فى كتابه " رحلات فى شمال وشرق افريقيا " والذى نشر عام 1855م. كان بريم آنذاك فى السادسة والعشرين من عمره..وقد استغرقت الرحلة من القاهرة الى الخرطوم مائة يوم. ومن ثم قام برحلة للصيد فى غابات النيلين الابيض والازرق، ثم توجه الى كردفان. وفى نهاية اغسطس 1848 ـ وكان قد وصل فى يناير من نفس العام ـ عاد بصيد طيب من الحيوان،الحى والميت، ونزل القاهرة فى الثلاثين من اكتوبر1848م.

وفى رحلته الثانية فى العام التالى، فقد أخاه أوسكار فى دنقلا فى اوائل يناير 1849م، وكان قد غرق فى النيل اثناء السباحة. وقد ترك هذا

الفقد أثره العميق فى نفس بريم الذى وصل الخرطوم منهدا نفسيا وجسديا،حيث كان يعانى من الحمى. وقد ساعده الحاكم التركى لطيف باشا فجهز له حملة للصيد لشهور عدة فى النيل الازرق بجهات سنار والروصيرص وحتى الحدود الحبشية. وقد بقيت هذه الرحلة عميقة وطيبة فى نفسه حتى آخر أيام حياته؛ وجمع فيها أكثر من ألف واربعمائة طائر من مختلف الأنواع والأحجام. ووجد فرصة طيبة لملاحظة الثراء المتنوع لحيوان الغابة.

وعند عودته الى الخرطوم، أمضى الصيف الحار فى ترتيب وتصنيف صيده الثمين.

مرة أخرى هب لطيف باشا لنجدة بريم حين أقرضه مبلغا من المال ساعده فى ترحيل صيده الى حديقة الحيوان ببرلين.وكانت هذه الرحلة الثانية قد استغرقت خمسة أعوام.

وقد استقر بريم لدراسة العلوم الطبيعية وعلم الحيوان فى يينا وفيينا، وكتب كثيرا وخرج فى رحلات الى ارتيريا 1862م، والحبشة 1863م وسيبيريا 1876م.

وبعد رحلة الى شمال امريكا توفى فى الخامسة والخمسين من عمره فى الحادى عشر من نوفمبر 1884م.

والكتاب الذى نحن بصدد تقديمه للقارئ بالعربية قد كتب أصلا فى شكل يوميات قصد بها بريم تسجيل أيامه وملاحظاته ومشاهداته وتجاربه فى السودان. وهو فى موقفه من المسلمين والثقافة الاسلامية العربية يختلف كثيرا من رحالة ذاك الزمان. كان به توقير لديانة أهل السودان، واحترام وحب لمن عاشر منهم.

***



كلمة المؤلف

خطوط عريضة هى هذه التى أقدمها إلى العالم دون ما ادعاء لفضل، أبث فيها قصة تجاربى خلال رحلة دامت خمس سنوات فى شمال شرق أفريقيا، وملاحظات جهدت ألا تكون مطولة، سجلتها كلما استدعت المناسبة ذلك، عن الدول التى زرت أهلها. ولم أرُم من وراء ذلك إخراج عمل مكتمل أو علمى.

وما كان فى نيتى أن انشر شيئا عن رحلاتى، وما دونت يومياتى إلا لتكون لى فى أزمان قادمة بواعث لذكريات ستظل دوما حية فى نفسى، ولم اقصد ترتيبها فى كتاب أسفار ورحلات، لكن ذوى فضل على ونصراء لى شملونى برعايتهم، طالبونى، وأصدقائى توسلوا إلىّ، أن أشرك معهم جمهورا اكبر فى ما أطلعتهم عليه من يومياتى، وان كان قليلا، وما استطعت أن ارويه لهم. فكانت هذه الصفحات.

وأنا أول من يدرك تمام الادراك أنها منطوية على نواقص جمة، ولكن عذرى أن هذه الخطوط العريضة ليست غير محاولة مبتدئ كتبت بعد أن ضاعت منى أفضل الفرص لأعد نفسى لكتابة وصف لرحلاتى. ولا استعطف الحكم خفيفا على عملى هذا.

ان إفاداتى هذه صادرة عن شخص كاد أن يصبح مواطنا لشمال شرق افريقيا، ويمنح جنسيتها. ففى فترة اقامتى الطويلة فى تلك البلاد

تعلمت كيف احتمل الصعاب التى تبدو للوهلة الاولى غير محتملة على الاطلاق، وتعلمت كيف احترم شعبا لا يرى الغريب العجل امكانية عقد صداقة معهم، ووقفت على سحر وجاذبية اماكن هى للغريب مواطن رعب، وكل مشقة احتملتها،وكل غم خبرته، سجلته دونما تخفيف أو تغيير. لكننى حاولت جهدى أن أُصور بدقة متناهية وأمانة كل ما هو رفيع حقا. فإن تحدثت عن عيوب ومثالب أهل شمال شرق افريقيا، فاننى لم أحجب شمائلهم.

هذا، وقد سجلت حكاية رحلتى حسب تسلسلها التاريخى، ووضعت بين طيات وصفى فصولا خاصة عن البلاد واهلها، وقصدت بذلك استكمال الصورة الكلية. كما ان الصور الخاصة بعالم الحيوان التى وضعتها انما قصدت بها تقديم شئ جديد لبعض قرائى، ولذا احسبها لن تُقابَل إلاَّ بالاستحسان. أما الغرض الوحيد الذى جهدت لبلوغه من وراء عملى هذا فهو توخى الحقيقة كاملة فى ما أرويه؛ وربما اكون قد أخطات هنا أو هناك، لأن اعتمادى على تصوراتى ورؤيتى الشخصية قد خدعنى، لكنى لم أورد أبدا ما يجافى الحقيقة. ولذا فاننى أزكى هذا العمل لمشاركة الناس فيه. وهو خال من البريق والتزويق، اذ انه لا يعدو ان يكون موجزا لتجاربى وخبراتى. وأتمنى أن يلقى هذا الكتاب ترحابا.

رنتندورف

ناحية تربتيس ـ يوليو 1855

***

تصدير



فـى السـادس من يولـيـو 1847 م كانت الـباخـرة [مـامودى] الـناقـلة لـلبريـد مسـتـعـدة للإقلاع من ميـنـاء تـريسـتـا فى رحـلة إلى المـشرق. كان الـوقت عصـرا، وسحـائب الـدخان تـتـصـاعـد من الـسـفـيـنـة الـتى ما زالت مـتـصلـة بـالشـاطئ عبر جـسر خـفـيف يربط سـطـحـهـا الـعـامـر بالـحـياة بـاليابسة. وكـان تدفق الناس جـيئة وذهـابا يمـوج على ظهر الـسفـينة، فلا تخطئ العـين بينهم الإنجـليزى ومعه خدمه المثـقلون بالحقـائب الضـخمة، وبجـانبـه الإيطـاليـة بعـينـيهـا الـسـوداوين وشعـرهـا الـفـاحم، والإغـريقى والألمـانى والفرنسى الثـرثار. وكانوا منشـرحين وفى اسعد حال مع انهم يتشوقون كثيرا لبداية الرحلة.

وكان بين المسافرين البارون فـون موللر من فورتنبورج، وشـخصى. وكـنا قد اتـفقـنا عـلى القـيام برحـلة صـيد خـاصة بالـعلـوم الـطـبيـعية فى الـيونان ومصـر وآسيا الصـغرى..على أن نـزور فى طريق عودتنـا تركيا وفـلاشاى ونعـود عبـر المجر. ولأنـنا كـنا نـحسب أنـنا قـد تزودنـا بكل ما يـلزمـنا لـلرحـلة فـقد شـاركنـا بقـلوب لا تـعرف الـكدر فى المـرح الذى عم الـجميع. وكان كل شـئ يبشر برحلة بـحرية طيبة.

كان الطقس لطيف البرودة، مما أنعشنا نحن أهل الشمال الذين لم نتعود سوى البرد. وكان علم النمسا التجارى يرفرف فى مؤخرة السفينة بألوانه التى تجد الترحاب فى كل مكان.

ثم رنت فى كل أرجاء الميناء دقات أجراس القلاع المختلفة تعلن الرابعة مساء، وحان ميقات الرحلة المشوقة المنتظرة. وصعد القبطان القنطرة إلى عجلة القيادة، وأعلن من مكبر للصوت التعليمات اللازمة. وسرعان ما ابتعد كل من لن يسافر معنا واختفت قنطرة النزول وأخذت ساحبة المرساة تصدر صوتها الرتيب المنتظر، ثم خرجت المرساة الثقيلة مغطاة بالطين من الأعماق. فدب فى الباخرة الضخمة نشاط حثيث من البحارة والآلات، واصدر القبطان أمرا آخر، فدبت الباخرة الضخمة، وتحركت فى بطء، ثم أسرعت مبحرة مبتعدة عن الميناء، وتصاعد دخانها، وأطلقت كل طاقتها البخارية متجهة إلى البحر العريض.

كانت كل العيون مشدودة إلى تريستا الشامخة التى ترقد أمامنا فى ضوء الشمس الوهاج، تحيط بها الجبال الخضراء. وقد ودعنا نحن الألمان ارض آبائنا من آخر مدينة فى ألمانيا، وان كان الإيطاليون أيضا يريدون اتباعها بأراضيهم لأنهم استقروا بها واخذوا يزيحون كل ما هو ألمانى، وادخلوا عاداتهم وألفاظهم الرتيبة، ومع ذلك برقت لنا العيون الألمانية الحقة حتى هنا، وطرقت آذاننا النغمات الألمانية، لذا حق لنا أن نقول أننا نودع الوطن لآخر مرة.

ازدادت ملكة بحر الادرياتيك بعدا واختفاء، وشدت العيون صورة أخرى هى بيران الودود التى مخرنا عبرها. وكانت أشعة الشمس التى هبطت كثيرا تضفى لونا ورديا، فبدت المدينة الصغيرة ذات منظر بهيج، وهى ملتقى طراوة شمالية وقوة جنوبية. وكانت غابات الزيتون تجتمع

حول الأسقف الشمالية المصنوعة من الفخار، وأشجار الزيزفون الفاقعة الخضرة تنتثر هنا وهناك بالقرب من أشجار الكستناء الإيطالية ذات الأوراق الداكنة.

كان كل شيء جديدا بالنسبة لنا، وكأطفال مشدوهين، أخذنا نتجول على سطح الباخرة، ننظر هدوء البحر، وعمق زرقته، بمشاعر متأججة وكأنما قد صحونا في ارض ساحرة.. تلك هي قوة البحر المهيبة. ومثلما كانت صفحة البحر هادئة ومثالا لأصفى سلام لا يعكره كدر، استقر في أنفسنا سلام وسكون يحيي الفكر فيجول ويقودنا إلى كل جمال، ويبصر أرواحنا بما شاهدناه في تلك الرحلة القصيرة والممتعة في ربوع ألمانيا، فتعلق الروح حينا بدرسدن الجميلة وتتجول عبر وادي الألب الرومانطيقي، وتتنقل حتى تصل إلى براغ الجليلة الفخورة، ونعود إلى مدينة القيصر التي فارقناها منذ حين، إلى فيينا، وعبر الألب وشتيرمارك واليرين إلى مليكة البحر الغريبة تريستا.

وتحركنا قوة الانطباع الأول للبحر الذي لم نره من قبل، وهو انطباع هائل وبلا حدود، وكأنه صفحة الماء التي تتمدد وتمتد أمام الرائي بلا نهاية. وهناك تمتزج السماء والماء في الأفق كما تمتزج وتختلط المشاعر في صدر الإنسان. ولا يكاد المرء يحس بها، إذ يصبح هو تلك المشاعر، ولكن فكرتين أضحتا واضحتين لي: الشعور باللانهائية المرئية، واللاشيئية الإنسانية. والأخيرة باهظة الضغط على النفس وتجعل المرء يتعلق بكل شيء كي ما يستعيد فكره النشاط مرة أخرى. وكنت كمن يحلم في يقظته، ولم يكن ليعيدني إلى الواقع والحقيقة غير جلبة المسافرين. وكان الغربيون منهم يروحون ويجيئون ضاحكين لاغطين، على النقيض تماما من الأتراك الذين فرشوا سجاجيد على ظهر السفينة

الأمامى وجلسوا فى نوع من اللامبالاة البريطانية وساحل سترينز يمر دون أن يحظى منهم بنظرة. وكانوا يرقبوننا نحن الغربيين من هدوئهم الخاص ذاك، ومن حين لآخر يعلقون علينا، نرى ذلك مما تفصح عنه تقاطيعهم وتعابير وجوههم على الرغم من أننا لا نفهم معنى لكلماتهم ذات الإيقاعات الممتلئة والمقاطع المنغمة. وقد شدنى هؤلاء الرجال بجديتهم ومهابتهم وهدوئهم، واذهلنى سمتهم الوقور.

وقد عرفت فيما بعد أن أول لقاء للأوروبى بالأتراك يخلف فيه انطباعا قويا سواء كان ذلك بسبب وجوههم الهادئة التى تظللها اللحى السوداء، أو بسبب ملبسهم الغريب الزاهى الألوان.

كانت الشمس قد أنهت رحلة يومها مثل كرة من النار المتوهجة فوق صفحة البحر الهادئة. ثم غاص قرصها فى اليم بعد أن جلل الجزء الأعلى الظاهر منها الأمواج وسفينتنا وجبال استر ينز والسماء، واختفت تماما، وهبط المساء الإيطالى الذهبى.

ونهض المسلمون، واخذوا يتوضأون، ثم شرعوا فى الصلاة. وفى السطح الآخر فى مؤخرة السفينة كانت تنطلق الضحكات الصخابة. ولم يحرك جلال المغيب فى الفرنسيين أى إحساس بالروعة. وكان البحارة يقومون بأعمالهم المألوفة فى عجلة معهودة، ولم يؤذن بان اليوم قد انقضى غير إنزال علم السفينة. وكان الأتراك فى أسوأ موضع من السطح الأمامى للسفينة قد انهمكوا فى صلاة جادة وجباههم تعفر التراب، تنطلق منهم فى بطء: " لا اله إلا الله ".. فيا له من تضاد!

وهبط الليل. وكانت سفينتنا تشق العباب فى قوة، وتجعل الأمواج يتطاير منها تلالا ضوء ينير البحر الداكن بصورة خرافية. وقد أسرنا وسحرنا الليل. وكانت ليلة من ليالى الجنوب التى لا نملك نحن فى ألمانيا

إلا أن نتخيلها فقط. وكانت الريح الهادئة التى تهب من سواحل إيطاليا تمنح الليل دفئا محببا.. ومع ذلك كان بردها أيضا بعد يوم حار هو الذى أنعشنا بشكل طيب.

وبالنسبة لى كانت النجوم الحبيبة تبدو اكثر دفئا واكثر جمالا هنا مما فى وطنى. وفى وقت متأخر من الليل بحثت عن النوم فى أحد الأماكن فى الدرجة الأولى، ولكننى لم استطع أن اغمض جفنا مع صرير جنبات السفينة وأزيز الماكينات وارتجاف السفينة كلها.. إلا بعد وقت طويل.

وفى اليوم الثالث من رحلتنا لم نر أى ارض. انه لأمر مهيب ومروع أن يفكر المرء بأنه وحيد هكذا وبعيد عن أى عون إنسانى، مبحر فى أعماق لا قرار لها. وكان مرافقونا منذ الأمس، النوارس المتصايحة، قد اختفوا، وظهرت عوضا عنها الدلافين، فرادى أو فى جماعات. وظلت تدور حول السفينة، تتقافز وتعبث، ولقيت منا جميعا كل ترحيب.

كان فنار جزيرة كورفو قد أطفأ نوره فى 9 يوليو عندما كانت المامودى تعبر القنال الضيق الذى يفصل اكبر الجزر الايوانية عن اليابسة. وكانت البيوت وحدائق البرتقال والعنب فى الجزيرة الرائعة لا تزال فى الظل العميق لشفق الصباح. وكانت المدينة راقدة فى صمت الليل العميق عندما القينا المرساة. ودوت طلقات مدفعين من إحدى القلاع فى الجزيرة الصغيرة معلنة بزوغ يوم جديد. ورنت أصوات أبواق القرن والطبول الصخابة مستجيبة لطلقات المدفعين، منطلقة من كل جنبات القلاع. ومست أولى شعاعات الشمس قمم جبال ألبانيا والسحب الأرجوانية التى تطفو فوقها، وتوهجت قمة الفنار بضوء الشمس، وبدت المدينة والبحر وكأنما نثر الذهب فوقهما. وكان المنظر كله ساحرا أمامنا يتوهج فى الشمس الذهبية. لكم كان منظرا ساحرا أخاذا!

وكانت بعض قوارب الصيد تحرك الحياة فى البحر، وهى تشق طريقها بالمجاديف خلال السفن الحربية والتجارية الكثيرة. وقد اقترب بعض منها من سفينتنا وعرضوا علينا النزول إلى اليابسة. وكان الرجال ذوو الملابس الغريبة بالنسبة لنا يتأرجحون على الأمواج مثل مئات النوارس الفضية البيضاء والرمادية التى كانت تتلألأ هادئة على صفحة الزرقة اللازوردية للبحر. وصعدنا فى أحد القوارب وجدفنا إلى الشاطئ. وفتح لنا جندى إنجليزى احمر اللون كوة ضيقة فى البوابة وسمح لنا بالدخول.

إن الغربى حين يدخل هذه المدينة يحسب نفسه وقد أحاط به السحر من كل جانب. فكل شيء جديد بالنسبة له، وكل شىء مختلف عما ألفه فى وطنه. اللغات التى يسمعها جديدة، وكل ما تقع عليه عينه جديد؛ الملابس والأقمشة التى صنعت منها والحوانيت وصالات البيع والكنائس والمبانى والناس والحيوانات والزهور والفواكه. إن الجنوب يفصح له لأول مرة عن منتجاته. ويستطيع المرء هنا أن يشترى بقطعة كرويتزر قطعتى تين من حجم لم نره نحن من قبل. أما الليمون والبرتقال والخوخ الجذاب والكمثرى فهى ارخص من ذلك كثيرا.

أخذنا نتجول فى المدينة، وارتقينا قلاعها العالية القوية الشاسعة، وقد بناها الإنجليز، ومواقعها حسنة، ومعمارها حسن. أما المدينة فهى بالمقارنة ضيقة فى بعض أجزائها وذات زوايا. ولكن بها أماكن قد تركت فضاء. واكبر ميادينها يشبه الحديقة العامة، وهو أمام بيت الحاكم.

ومن أعلى برج فى الحصن والذى به الفنار يستطيع المرء أن يرى الجزيرة بشكل رائع، فهى ترقد مثل حديقة باسمة ممتدة تحت البصر. الذى لا تحده إلا بعد مسافة من المدينة جبال الجزيرة الشامخة. وكانت

الطبيعة فى كل مكان تضج بالحياة. والنباتات هنا جنوبية محض، وبفضل الأمطار التى ما زالت تسقط هنا، كانت زاهية النمو. والحياة الطبيعية هنا تشبه تلك التى فى جبال ألبانيا الواقعة فى الاتجاه المقابل للجزيرة أو تلك التى باليونان التى لا تبعد كثيرا من هناك، وهى نباتات متنوعة الألوان. ووقفنا نعاين مجموعة صغيرة من الطيور المحشوة أكدت ما رأيناه.

واللغات المستخدمة فى كورفو هى الإنجليزية واليونانية والإيطالية والفرنسية والألمانية. وبمثل تنوع هذه اللغات نجد السكان أيضا. فبين الأتراك والإغريق المؤتزرين ثيابا زاهية وكثيرة الطيات، يرى المرء الأوروبيين بملابسهم الضيقة، وهم بستراتهم وقفازاتهم يمثلون تضادا غير مستحب مع الملابس الرسمية للقساوسة اليونانيين أو الملابس شبه النسائية والزاهية والفاخرة للمحاربين الألبان، كما أنها تشوه بمظهرها العادى والمجرد وهج الألوان واللوحة الجنوبية.

بعد الظهر فارقت المامودى هذه الجزيرة التى تضج بالحياة واستأنفت رحلتها، وظلت كورفو وقتا طويلا ظاهرة فى الأفق لعيوننا. وقبيل المساء مررنا بجزيرة سنت ماورا، ثم بعد ذلك اثيكا، وكانت جزيرة زانتى على اليسار منا.

وفى العادة تستغرق الرحلة بالسفينة من كورفو إلى سيرا ما بين 30 إلى 36 ساعة، ولكن ريحا قوية واجهتنا ولم نصل إلى سيرا إلا فى عصر يوم 11 يوليو. وكان معظم المسافرين قد أصيبوا بدوار البحر، ولذا غمرهم السرور لدى وصولهم الميناء كثير الحركة.

فى 21 يوليو فارقنا سيرا بالباخرة الصغيرة "البارون كويبيك" المخصصة للعمل بين سيرا وأثينا. وكانت المدينة القائمة من جزأين

مبنيين على جبل شديد الانحدار مضاءة وذات منظر حسن. وظلت أنوارها فى البعيد مثل انجم بعيدة لزمن طويل. وشيئا فشيئا آخذت فى الأفول حتى لم يبق سوى نور الفنار. وكان بين المسافرين معنا كثير من اليونانيين، ومعظمهم مسافر على سطح السفينة. وكانوا فيما يبدو قد ألفوا مثل هذا السفر، فاحضروا معهم سجاجيد وأبسطة ومراتب فرشوها.

ولم تدم الرحلة من سيرا إلى اثينا غير ساعات قليلة. وفى صباح اليوم التالى رأينا قمم جبال ارض اليونان أمامنا، ورسونا بعد ساعة ونصف فى ميناء بيرويس، وهى على مبعدة ساعة من أثينا.

أخذنا عربة فى المدينة الصغيرة المتنامية، وسارت بنا على طريق كبير جدا وجديد إلى العاصمة. وكنا تواقين إلى دخولها. وكان طريقنا يخترق غابة زيتون تغطى المدى. وكانت الجبال على جانبى الطريق كالحة وجرداء، فضقنا جدا بالحر والغبار. وقد حجب أحد التلال أبصارنا لفترة طويلة، واستدرنا حوله، فوصلنا إلى أنقاض معبد ثيسيوس وكان الاكروبول يرقد أمامنا، فأدرنا أعيننا إلى مشهده الذى طالما ارتقبناه.. ثم دخلنا المدينة. وكانت بالنسبة لى مثل قرية فلاحين بائسة، لاذت بأنقاض اثر تاريخى شامخ ما زال يحتفظ بسلامته.

وبيوت أثينا اليوم، باستثناء الملكى منها، سيئة البناء بالمقارنة إلى بناء الألمان، وشوارع المدينة ملتوية وضيقة وغير منتظمة، واسفلتها إما غير موجود أو قليل، مما يجعل السير عسيرا. وهذا هو فن البناء عند إغريق اليوم! ما اشد الفرق بينه ومعبد الاكروبول المنيف الشامخ المهيب! وقد خرجنا لمشاهدته فى اليوم التالى، صاعدين من الناحية الشمالية للصخرة الشديدة الانحدار، ثم عطفنا غربا، ووصلنا المدخل المؤدى إلى

ساحة المعبد، وكان يحرسه أحد العجزة. لقد تضافرت الأنانية وروح التخريب فى تدمير هذا البناء التاريخى الرفيع. فقد اخذ أحد الإنجليز الجزء الأكبر من الإفريز من البارثنون، اجمل بناء فى اجمل موقع فى العالم، أخذه إلى لندن وبنى به برجا رديئا فى تلك المدينة! وحرق الأتراك الجير من قواعد أعمدته وصنعوا منها أيضا قذائف للمدافع، والآن تجمع الحكومة اليونانية ما تبقى من الآثار القديمة وتحاول إعادة بناء هذا الأثر التاريخى. ولا أرى داعيا لوصف الاكروبول، وليس فى نيتى وصفه، إذ أن كل حجر فى هذا المعبد قد اخذ مقاييسه ووصفه المهندسون المعماريون والرسامون. واكتفى بان أقول أن توقعاتنا عن برج أثينا كانت عالية للغاية.. ومع ذلك فقد حققها لنا جميعا.

بعد إقامة عدة أيام، امتطينا ذات صباح خيولا لنقوم برحلة قصيرة فى داخل البلاد. وكانت الأنجم تضئ طريقنا الصخرى عندما فارقنا أثينا. وكنا لفترة طويلة نخترق غابات زيتون، ثم صعدنا الجبال، وكان البحر على يسارنا بلون الضباب الرمادى، وقابلنا كثيرا من اليونانيين وحميرهم محملة، وألقوا علينا التحية. ومع شروق الشمس استطعنا اختراق شعب فى الجبل شديدة الانحدار والوصول إلى خليج سلاميس العالمى الشهرة تاريخيا، وسرنا بحذاء الساحل راكبين لفترة طويلة، ثم فى سهل منبسط، حتى وصلنا الجبال. ولم نجد إلا بعد مشقة جرعات من ماء مالح لا طعم له من بئر. وكان أهل القرية بلا استثناء تقريبا قبيحى الهيئة، وكانت النساء تبدو اقبح من الرجال ربما بسبب الأزياء المروعة التى يلبسن. ومهما أوتى المرء من خيال، ومهما أجهده، فلن يستطيع أن يجد فيهن الأشكال الإغريقية للجمال!

ووراء القرية بدأت غابة صنوبر قادنا طريقنا خلالها. ودخلنا جبال كيراتا، وكنا نأمل على الأقل أن نرى هنا أماكن برية رومانتيكية. لكن هنا

أيضا وجدنا نفس الجدب والإقفار، ورتابة الأشكال والجفاف مثلما فى السهل. لكم هى مختلفة الصورة التى كنت قد رسمتها لنفسى عن اليونان!! جبال مغطاة بالغابات الخضراء، بشعابها الرومانتيكية ومروجها الناعمة فى السهول، كما فى كل الأراضى المنبسطة التى تقوم عليها أبنية وحياة، وأسطح البيوت الودودة المصنوعة من القرميد الأحمر فى القرى المختبئة فى غابات الفاكهة التى طالما أصبحت مألوفة لذهن الغربيين حتى أن الواحد منهم لا يستطيع أن يصدق أن تكون هناك جبال ووديان وقرى ومدن بمثل روعة ما عنده فى بلاده. وما كنت أبدا لأظن أن اليونان بسمائها اللطيفة وخصوبتها وأرضها المباركة يمكن أن تكون اشد قفرا وحزنا من ألمانيا. فقد ظل كل المسافرين يلهجون بوصف جمالها ويصورونها بألوان وهاجة زاهية، وقد ذهلت حين لم أجدها كما أحببت وأملت.

وها نحن اليوم نعانى من المصاعب المعهودة التى تصاحب طريقة السفر هنا، فالطقس الغريب الحار قد كتم أنفاسنا، والشمس تحرق الدماغ، وليس من ماء يرطب اللسان الذى جف. وبعد يأس وصلنا إلى نوع من الأكشاك يسمى محطة. وكان بهذه التخشيبة بالقرب من الصالة المفتوحة من ثلاث جهات حانة لمالك المبنى، وهو إغريقى قذر يدعى انه صاحب حانة ولا يستطيع أن يقدم أى شىء غير براندى ردئ ونبيذ لا مذاق له.

وقد استمتعنا بقهوة ورقدنا لنستريح، وبعد ساعتين خرجنا بنفس العجلة. وكان طريقنا يصعد جبلا ويهبط بنا عبر مفازة جرداء لا ساكن بها فى اغلب الأحيان. وبعد الظهيرة ارتحنا مرة أخرى فى بيت صغير كان يجرى بالقرب منه ماء طيب، وكان الكوخ قد بنى فيما يبدو للرعاة اكثر منه للمسافرين، ولذا كان أسوأ من سابقه.

وقد واصلنا الصعود، ورأينا من آخر نقطة استراحة جبالا عالية أمامنا. وكانت المنطقة قد أصبحت اكثر وحشية ورومانتيكية. وكانت هناك قلعة متهدمة تتوج ظهر جبل مرتفع، وكانت فى الماضى تتحكم فى واد علينا أن نخترقه.

ركبنا عبر الهاوية المهلكة حتى وصلنا إلى الأرض المنبسطة، وكانت قفرا من النبات والبناء بالرغم من أن التربة فيها كان يمكن أن تقيم اخصب زراعة. وحوالى التاسعة مساء دخلنا طيبة. وبوسع المرء أن يرى ضخامة وأهمية هذا المكان فقط من ركام هائل متناثر فى كل المكان. أما طيبة اليوم فهى قرية بائسة، ولدى وصولنا أحاط بنا الناس ورافقونا إلى بيت طبيب ألمانى هو الدكتور هورمل، وقد احسن استقبالنا وقام ومعه زوجته الودودة الجميلة الشابة الإغريقية بكل ما يستطيع لينسينا إرهاقنا وتعبنا الكبير.

عدنا إلى أثينا، وأجهدنا أنفسنا لنتعرف على الحياة الصميمة لعاصمة بلاد اليونان. وهى مزيج من الشرق والغرب. فالكثير من العادات والتقاليد الإغريقية مستمد تماما من أهل الشرق. وأخرى تشبه عادات وتقاليد الغرب. وقد اخذ الإغريق أيضا مثالب الغرب والشرق.

وشوارع أثينا خالية إلى حد بعيد أثناء اليوم، ولا تدب فيها حياة حقيقية إلا مساء، وتستمر إلى وقت متأخر من الليل. وفى المساء تمتلئ البلكونات التى كانت نهارا لبيوت لا يرى منها شيء، وبها النساء اللائى حجبن غيرة عليهن نهارا، وتضاء البازارات. وهى الصالات التجارية الشرقية، وتضج الطرقات بالحياة. فيرى الإغريق بملابسهم المزركشة يخطون فى جلال وسرعة بين الجموع، وترتفع صيحات الباعة من

الحوانيت، وفى الشوارع يعرض المالطيون الحفاة خدماتهم للغريب، وهم فى ذلك يشبهون الكلاب الضالة التى تخرج أيضا ليلا إلى الشوارع. وفى المقاهى ترى الشيشة، الجوزة التركية، متقدة، ولكن فى الحجرات الضيقة لا يجد المرء الهدوء الذى هو طابع المقاهى فى الشرق، ويرقص عدد من الشبان على إيقاع موسيقى قيثار أو يقوم واحد منهم بالغناء مع القيثار. ولتحفظ السماء الغريب، ولتكن السماء فى عون من يحكم عليه بسماع ذلك، فالغناء الإغريقى بالنسبة لأذن الإنسان العاقل فظيع، ويسخر من كل موسيقى حقيقية. وبعد منتصف الليل فقط تهدأ الشوارع، وعندها يجد المرء كثيرا من التعساء راقدين فى وسط الشوارع، وعلى المرء أن يأخذ جانب الحذر فلا يصطدم بواحد منهم أو يقابله.

إن اغريق اليوم، والذين عرفتهم اكثر فى مصر، يشبهون قدماءهم كثيرا فى عاداتهم، ولكنهم للأسف اخذوا عنهم سلبياتهم ومثالبهم لا فضائلهم. ومن كل الخصائص يظهرون أولا الغرور وحب التملك. وازعم أن هذا هو الدافع لكثير من المثالب والرذائل. ومن المؤسف ـ وان كان ذلك هو الواقع ـ أن المرء لا يستطيع أن يعتبر إغريقى اليوم إنسانا ذا فضائل، فهو يهجر ارض أجداده بلقعا غير مزروع ويجوب الدنيا تاجرا لكى يثرى بسرعة، أو يصبح سارقا وقاتلا ليحصل على المال. الإغريقى دؤوب، ولكن فقط من اجل تحقيق غروره وحبه للامتلاك. فالسرقة والقتل والغش والمكر تعنى عنده ما يعنيه الجد والدأب. فالتاجر الذى لا تجرى تجارته وفق هواه يتحول إلى سارق مروع.

رحلنا عن أثينا فى يوم 25 يوليو، عائدين إلى سيرا حيث ركبنا فى اليوم التالى ظهر سفينة باسم امبراتريس، وأقلعت مساء من الميناء متجهة إلى مصر. وبعد رحلة موفقة للغاية اقتربنا من ساحل أفريقيا حتى إننا كنا نؤمل أن نلقى المرساة فى ميناء الإسكندرية فى اليوم نفسه. وقد اشار البحارة الذين كنت على اتصال بهم إلى الأرض التى ظهرت فى البعيد. والمعروف أن ساحل مصر منخفض جدا وليس به أى شىء بارز، وقد بدا لنا أولا كشريط ضيق اصفر باهتا، ثم اخذ يتضح اكثر فاكثر. وبعد ساعة من ظهوره لنا أول مرة استطعنا بواسطة المنظار أن نميز عددا من الأماكن البارزة، وأسرعت السفينة مع ريح مواتية إلى اليابسة، وأخذت مزق الصورة التى أمامنا تتضح، وكان أمامنا مباشرة عدد من طواحين الهواء كنا قد حسبناها غابة من قبل، والى اليمين كان برج العرب، والى اليسار كتلة من البيوت البيضاء المتوهجة تحت الشمس، ومنارات نحيلة وأبراج: إنها الإسكندرية.

وجاءنا قارب الإرشاد ليدلنا على طريق تفادى المخاطر، وسرعان ما ابلغ المرشد تعليماته. وكان هذا أول ابن لهذا البلد الراقد أمامنا نراه، وكان يتحدث الإيطالية بطلاقة، ويبدو انه يعرف مهمته وعمله جيدا. وبيد واثقة قاد السفينة التى كانت تسير بنصف قوة محركاتها عبر المدخل الخطر، مجتازا حمامات كليوباترا وعددا من الأبراج والحصون حتى الميناء الداخلى. وهناك ألقينا المرساة بجانب سفينة حربية ضخمة من قطع الأسطول المصرى.

كيف لى أن اصف المشاعر التى تحركت فينا.. إذ اختلطت الدهشة وحب الاستطلاع والبهجة والإعجاب، وقد أثارت اهتمامنا ورش الوالى

الضخمة، والمدينة الغريبة والشعب الغريب. وصارت أبصارنا تتجول من مكان لآخر لتعود دائما إلى أعمدة بومبى الراقدة أمامنا، إلى غابة النخيل، النخيل. وغابات النخيل.

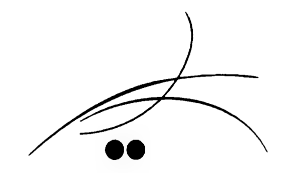
هذا مشهد جديد للغاية، والآن اتضح لنا أن ارض السحر، ارض ألف ليلة وليلة ترقد أمامنا.

* * *

1

الأيام الأولى بمصر





بعد دقائق قلائل من وصولنا تدافعت إلى الباخرة قوارب صغيرة كثيرة وكان أصحابها يخاطبون الركاب بثلاث أو أربع لغات، يدعونهم إلى ركوب قواربهم إلى الشاطئ. ولكننا ما زلنا بحاجة إلى الاذن بالنزول من سلطات الميناء ومن شرطة الصحة. وظهر القارب المرتقب بعلم الكورنتينة الأصفر، ورسى لصق باخرتنا. وعوضا عن الاذن المعهود أمر الضابط فريق الكورنتينة بالبقاء على ظهر السفينة لأنه سيقوم بحجزها فى كورنتينة. ولم نقف على سر هذا اللغز إلا فى اليوم التالى؛ فقد أخلت باخرة تابعة لشركة لويد النمساوية قبل بضعة أيام بأوامر شرطة الحجر الصحى، وعلينا أن نكفر عن ذلك الآن.

استسلمنا لقدرنا فى غضب ويأس. ولا حاجة بى لاصف كيف كنا ننظر فى تشوق إلى الارض القريبة. ومضى الوقت ثقيلا باهتا بالرغم من محاولات شركة الملاحة لعمل كل ما يجعله قصيرا. وقد شغلنا انفسنا فترة طويلة باصطياد النوارس الكثيرة التى كانت تحتشد فوقنا. ولكننا بعد حين لم نحتمل سخونة يوليو بمصر، ولجهلنا بخطورة الطقس الغريب حاولت ان اخفف عنى الحرارة وتجولت فى السطح برأس مكشوف، وبعد دقائق احسست بشر ما فعلت، فقد اصبت بضربة

شمس، وما كنت وقتها اعرف حتى مجرد اسم هذا المرض الذى بدأ بآلام وصداع متزايد الحدة. كان استقبال مصر لى قاسيا!

بعد اربع وعشرين ساعة من وصولنا استطاع القنصل العام النمساوى ان يحصل لنا على اذن افراج صحى عنا. وبعد ان ركبنا قاربا بعد مشقة، لا لقلة القوارب بل لكثرتها وتصارع اصحابها حولنا، توجهنا إلى اليابسة. وهناك استقبلنا اصحاب الحمير بصراخهم وتدافعهم، واخذونا عنوة او برضائنا على حميرهم الى المدينة.

كنت فى الساعات الاولى فى الاسكندرية كمن يعيش فى حلم يقظة. ومع ذلك كان الانطباع الاولى لى عن المدينة الميناء غير ايجابى. ان القادم الى مصر لاول مرة يجد متعة فى المنظر الذى يجتذبه ويشده بقوة، وهو يمر بين الحوانيت والبازارات المتماوجة بالحيوية فى الاحياء العربية. ويحتاج المرء الى فسحة فى الوقت كبيرة لكى يستجمع كل الصور الغريبة وانطباعاتها الاولى لكى يتعود على الشرق الذى لم يعرفه الا من خلال الحكايات. ان طزاجة الرؤية الشعرية للمدينة العربية للمرة الاولى تضمحل حين تقع العين على اشكال اوروبية قديمة ومعروفة. ففى الموسكى، اى الشارع الذى يسكنه الاوروبيون فقط فى الاسكندرية اختفت الملامح العربية تماما. فالاسكندرية دون ان تبرز الحسن والجميل فى المدينة الاوروبية قد فقدت طابعها وشخصيتها الشرقية بسبب اتخاذها ما اتخذته من الحضارة الفرنسية بشكل غير ناضج، او بتحولها الى مدينة اوروبية. ويتضح ذلك للقادم الجديد بسرعة، وسرعان ما تصبح الاسكندرية بالنسبة له باهتة وداعية للسام.

وصل بنا اصحاب الحمير الى ميدان فسيح، او الازبكية، حيث الفنادق الاوروبية. وقد اشتد صداعى، مما استلزم استدعاء الطبيب،

وكـان من ابناء بلـدى. وبعد ان فصدنى وأمـر لى بالدواء اللازم، تمنى لى عاجل الشفاء. وقد تـحسن حالى فعلا بعد الفصـاد.

وبعـد يـوم من وصولـنـا استـأجر البـارون قاربـا شـراعيـا نـيـليـا مع انجليزى وزوجـتـه [خليلته كما اتـضح لنا فيما بعـد] ليأخذنا الى القاهرة كيما يواصل الرحلة بأسرع مـا يمكن. وقد قيل لنا ان الذهبية مريحة مثل الفندق، فـأبديت اسـتعدادى لـلسـفر رغـمـا عن أوجـاع الرأس. وقـد تمت الاسـتـعـدادات الضـروريـة، واسـتـاجـرت المجـموعة شـخـصـا يدعى مـحمد ليـكون طباخـا وخادما فى نـفس الوقت، وطلبـنا الحمـير التى سـتـقلنا إلى القنال الذى يربط بين الاسكندرية والنيل.

رحلنا عن الفـندق فى مسـاء 31 يوليو، وخـرجنا من الاسـكندرية من باب الـشرق، بـوابة الـشرق، وركـبـنا فى بـداية الـليل عـبر اعمدة بـومبى الضـخمة إلى قنال، ترعـة المحمودية، وبلـغنا قرية بائسة هى قرية مـحرم بيه الكبير، المسماة على عزبة تركى، على الضفة اليمنى للمحمودية، حيث ترسو سفـينتنا الشراعـية. وكان الليل قد هبط بـسرعة، فلم نستطع رؤية السـفينة، واخيرا قررنا ان نلجأ لضـيافة اهل البلد. وقادنا محمد إلى قاعة استقبال حيث اسـتقبلنا خادم وقبلنا بعد ان عرف رغبتنا من كلام محمد، وكان ودودا للغاية وقدم لنا قهوة متبلة ونبيذا حلوا للغاية، وتبغا ممتازا، وتركنـا بعد سـاعـات فى حجرة نظيفة ومـرتبة، قضـينا فيـها ليلـة هانئة. وفى اليوم التالى قدم لنا ما نعمنا به بالامس، وودعناه شاكرين له حسن ضيافته.

وجدنا السفينـة دون عناء وحملناها امتعتنا القليلة، ومضت بنا. كانت الـريح مواتيـة، فحمـلـتـنا بسـرعة إلى الـنيل. وفى الظـهيرة قـابلـنا سفـينة لـلوالى تجرها خيول مـندفعة، خلاف ذلك لم نر طيلـة اليوم سوى السماء

والـهواء والماء والـطين والسفن ورجـال شبه عراة. ولم يـكن القنـال ليقدم تغـيـيرا كبيـرا. وقبيل المـساء بلـغنا فم المحـمودية وبوابـة ادفى التى تربط القنـال بالنيـل. وصعدنا إلى الـيابسـة ومشينـا راجلين عـبرالقريـة الميناء. ووقفنا على النيل.

كـان النهـر المقدس يرقـد امامنـا كشريط فضـى، فى أدنـى منسوب له، تحيط به ضـفافه المـزدانة بالـخـضرة. وكانت مـدينة فـواح الصـغـيرة على الضـفة المقابلـة لنـا. وكانت الصـورة شرقـية اصيـلة: فـالخضـرة الـداكنة للدلتا، والـنخل المحمل بالثمـر، والذى تتماوج تـيجانه مع الريح، واشـجار الجميز الـعتيقة المـليئة بالاوراق، والـنهر المقدس، يمـثلون الاطار لعدد من الـبيوت البـيضـاء المتراصة، والابنـية الخـارجيـة لـلمسـلمـين واسوارها، وتشرف عليها المنارات السـامقة الرفيعة التى بها درجات متعددة للاذان.

وقفنا وقد أسرنا الجمال اللانـهائى للمنظر الذى جللته شمس الغروب بذهـبهـا. وجالت انـظارنـا فوق صفـحة مـاء الـنـهر، وتـاريخه تاريخ الاف السـنين الـذى خـاطبنـا، وسرت بـافـكارنـا معه فى المـاضـى. ولكن الـهواء والشمس والنهر، والنخيل اعادتنا الى انفسنا والى الاستمتاع بالمنظر من جديد. ولا يمكن لـلمرء ان يغوص فى سر سـحر مثل هذا المنـظر الطبيعى الا اذا كـان جديـدا فى البلاد. ولا يـحـتاج المـرء للـتجوال ايـاما فى غـابات الـنخـيل لـيقـدر جمـال تلك الاشـجـار، اذ ان ارفع الاشيـاء واجمـلـهـا يفـقد جاذبيته وسحره اذا ما اصبح مالوفا عاديا.

وبالرغم من ان ريس المركب كان بطبـعه الشرقى يريد التباطؤ، الا انه اسـتجاب لرغـبتنا الـتى طرحناهـا له بوضوح تام بأن يـواصل الرحلة فى نفس الـليلة. وبعد منتصف الليل فـقط عندما هبطت الريح اقترب من قرية صغيرة لقضاء الليل هناك. وفى صباح اليوم التالى اظهر النيل انه طريق

حيوى وحى بالتجار والطيور الخفيفة الاجنحة. فقد قابلتنا سفن عديدة. وشاهدنا فى تلذذ اسراب الطيور الملونة التى تعمر النيل. وكان هناك البجع النيلى الضخم فى بحثه عن اسماك يصطادها دون ان يزعجه شىء من السفن العابرة فى منتصف النهر. وكانت هناك اسراب كثيرة من طير البقر الابيض كالثلج، وقد كانت العشرات منها فى الحقول تحط على ظهور الجواميس لتلتقط عنها الحشرات.

ولأسفى لم اكن قادرا على ان انظر كل جديد يقدمه النيل لنا فى استمتاع وتلذذ، فقد ازداد مرضى اثناء الرحلة. ولا قدرة لى على الاطلاق على تصوير ما كنت اعانيه. ولكننى ادرى اننى كنت اعانى من آلام حادة فى الراس، فى ام الراس، احسها، عندما تشتد افقد الشعور بآلامى. وبفضل تكوينى الجسمانى القوى استطعت ان اتغلب على هذا المرض الذى يميت كثيرا من الاوروبيين، وحتى من الاهالى.

لم تخل الرحلة القصيرة الى القاهرة من مغامرات. ففى الثالث من اغسطس 1847 كان الممسك بالدفة قد غفل ولم يتنبه، فارتطم - وسفينتنا فى قمة سرعتها بفضل الاشرعة المفتوحة على آخرها - بسفينة قادمة من الاتجاه المقابل، ودمر دفتها. ولسوء الحظ كانت تلك السفينة محملة بعدد ضخم من النساء اللائى انطلقن فى صراخ وعويل بعد ارتطام السفينتين، مما جعلنا نخرج هلعين من حجراتنا. ورأينا اربعة من بحارة السفينة الاخرى يقفزون فى الماء شبه عراة يسبحون باتجاه سفينتنا، ويتسلقونها. وقبض واحد من هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم على دفة سفينتنا واخذ يقودها. ودخل الآخرون فى عراك مع بحارتنا. وارتفعت صرخات مجلجلة، وكان كل ما يحدث غير مفهوم لنا تماما، ولكننا لخوفنا من ان يتهجم علينا هؤلاء الرجال فى هيجانهم وغضبهم ذاك، اخذنا أهبتنا

وتسلحنا بالسيوف والطبنجات ووقفنا منذرين عند مدخل المقصورة. وقد رأى الريس فى ذلك سبيلا للتخلص من ذلك الموقف، فطلب منا بواسطة المترجم الوقوف معه ضد اللصوص والقتلة. ولذا غيرنا موقفنا من السلبية الى الهجوم. فانقض البارون على احد البحارة المغيرين بسيفه الذى كان قد شحذه فى فيينا.. وخبطه على رأسه، فسقط الرجل دون صوت فى الماء، ولم يبد حراكا هناك. واندفعت انا بخنجر الصيد على الآخرين واجبرتهم على الفرار. اما رفيقنا الانجليزى فلم يحمل سلاحا الا بعد ان صفعته خليلته الفرنسية وحملته على الشجاعة. ولم ينتظر الثلاثة الذين واجهتهم مجىء الانجليزى بل سارعوا الى القفز فى الماء بعد ان جرح صاحبهم لكى يمدوا له يد العون. وقد وصل اربعتهم سالمين الى ضفة النيل وعادوا الى سفينتهم الراسية هناك.

اثر ذلك انطلقت صيحات وصخب جهنمى. وكانت الضفة قد احتشد فيها رجال كثر مسلحون بالهراوات والنبابيت، ولاحقوا سفينتنا التى كانت قد انطلقت من الضفة منذ حين، مهددين بالثار. وكانوا مثل المتوحشين فى امريكا الشمالية عراة تماما، رؤوسهم الحليقة ليس بها سوى ضفيرة واحدة. وألوانهم داكنة للغاية، وكانهم هنود حمر. فعبأنا اسلحتنا بالطلقات، ووقفنا مستعدين فى جد وصرامة لاى هجوم ثان منهم. وكانوا فى الحقيقة ينتوون ذلك فيما بدا لنا. وبعد حين انتزعوا قاربا صغيرا واتجهوا به صوبنا. ولم يثنهم الا تهديدنا الجاد والصارم الذى ترجم لهم باننا سنطلق النار عليهم لو اقتربوا اكثر، فكفوا عن المطاردة عائدين إلى سفينتهم.

ولا يغفر لنا سلوكنا ذلك غير عدم معرفتنا بالبلاد واهلها. فلو حدث ما حدث بعد عامين لكنت طردت اؤلئك البحارة بالسوط لا بالسيف، فما

كان فى نيتهم ان يهجموا علينا، بل كانوا يريدون من ريس سفينتنا ان يدفع لهم تكاليف الاضرار التى لحقت بدفة سفينتهم. وما كان العارف لعادات هؤلاء الناس ليزعجه كثيرا انهم يصرخون باعلى أصواتهم ويلغطون، إذ انه سيعلم أن العرب يتصايحون ويضجون فى أى مناسبة، ولكننا لسنا ملومين إذ توخينا جانب الحذر والحيطة، خاصة وقد صور لنا الريس الموقف ذاك التصوير الخاطئ. وكان يمكن لفعله الشائن هذا أن يكلف عدة أرواح، ويضعنا فى حرج كبير.

وقد أطارت الريح قبعة البارون عن رأسه أثناء ذلكم العراك. وبعد دقائق أصيب هو الاخر بضربة شمس. وطغت عليه حمى مصاحبة بالهذيان فى صباح اليوم التالى. لم ادر ماذا افعل، فوضعت حول رأسه رباطا مبتلا رغما عن أننى كنت أنا نفسى مريضا لا أقوى على الوقوف. وفى الغربة والسفر فقط يستطيع المرء أن يقدر مدى حاجة الإنسان للإنسان، فقد كان كلانا مريضا واخذ كلانا يرعى صاحبه، واضطر البارون إلى فصد نفسه بنفسه.

وفى حالة نفسية هابطة رأينا فى يوم 5 أغسطس دلائل عظمة الماضى فى الأفق، إذ سمقت الأهرامات فى الأرض المنبسطة شامخة، واظهرت تلك الأعجوبة الخالدة عظمتها وضخامتها فى الأثير الصافى، وكيف أنها مع كل تقلبات وتغيرات الأشياء الدنيوية والازمان ما زالت راسخة وثابتة. واستغرقنا فى تفكير عميق أمام هذا المشهد الفريد. فما كان الصبى قد رآه فى كتاب مصور، والتلميذ قد تعلمه من أستاذه وكان مجرد حدس، هو الآن يشمخ فى اصله أمامنا. وكنت كمن هو فى حلم. ولقد رأيت الاهرامات مئات المرات فيما بعد، ووقفت امامها. لكننى لم اقدر على ادراك عظمتها؛ لكن الانطباع الذى تركته فى نفسى اول مرة

رأيتها لم يتكرر مرة اخرى، وسيبقى فى نفسى ثابتا، راسخا مثل تلك الاهرامات نفسها التى خلفها ذلك الشعب العظيم كذكرى له. لقد صدق الكاتب الذى قال ان هناك فى هذا العالم ايضا ما هو خالد وراسخ.

بعد رحلة قصيرة بلغنا النيل الرئيسى. وفى الجنوب الشرقى كانت المنارات تعلو قلاع المحروسة فى الافق. وكانت المنازل الريفية الرائعة على ضفتى النهر دليلا على قرب العاصمة. وفى العاشرة صباحا رسونا فى بولاق، ميناء القاهرة العامر. وحصل محمد على حمار امتطيناه بعد جهد، وما كانت قوانا لتسعفنا الا بمشقة فى البقاء معتدلين فوق ظهره. وشق بنا طرقات الميناء المدينة ثم وصلنا شارعا مظللا باشجار النخيل. وكان هذا الشارع الظليل باشجاره، والحدائق الغناء الكثيرة التى تحيط بالقاهرة بمنظرها الرائع، يحجب عنا مصر القاهرة التى يثنى عليها فى كل الشرق. وقد سعدنا جدا حين وصلنا بعد ركوب دام نصف الساعة إلى احد الفنادق الاوروبية فى القاهرة.

كانت قوانا قد انهارت تماما، فهرعنا إلى النوم بعد وصولنا مباشرة. وقد استدعى لنا طبيب إيطالى ليقوم برعايتنا، بأجر. وظللنا حتى الحادى عشر من أغسطس نلزم السرير. وكان الصداع يزداد شدة وكنا نخرج من اغماءة ضعف لنقع فى أخرى. ولا اذكر غير أيام قليلة كنا ننعم فيها بوعينا كاملا، ونقدر على التخاطب معا.

ومن تلك الأيام السابع من أغسطس. كنا راقدين بلا قدرة، ونشكو من الجو الخانق. وفجأة سمعنا هديرا كالرعد، وصراخا وصرخات ألم فى الشارع، وأصوات حيوانات وخطى مسرعة فى الأروقة. واهتزت أسرتنا، وانفتحت أبواب الغرفة، وسقط حطام الزجاج من النوافذ أرضا، وفى بعض أجزاء من الغرفة تشقق الأسمنت فى الحيطان وسقط على

أرضها. ولم نستطع تفسير كل ذلك. ثم تلت ذلك صدمة أخرى اشد عنفا، وسمعنا صوت ارتطام حيطان قريبا منا، وشعرنا بمنزلنا وهو يهتز من أساسه. وهنا أدركنا بشكل فظيع ما تعنيه تلك الظاهرة: لقد هز العاصمة زلزال. وكنا نرقد مرضى دون عون، وفى حالة بائسة نكاد لا نقوى على الحركة، ناهيك عن الهرب مثل بقية المسافرين إلى منطقة خلاء. كان وضعنا رهيبا، ولكن الزلزال لم يدم غير لمحة، وان كان ذلك بالنسبة لنا مثل دهر. واذكر حتى اليوم وبوضوح شديد ما دار بخلدنا المرعوب من تصورات فظيعة. ولخوفنا من ان يسقط البيت كنا ننظر الحيطان المتشققة فى ذعر مميت. واستسلمنا فى يأس تام للقدر الذى سيحل بنا. ولكن بيتنا المبنى على طراز اوروبى احتمل ذلك الزلزال العنيف. وبعد دقائق هرع الينا الخادم ليبشرنا بنجاتنا. وكان الزلزال قد دفن فى مكان قريب منا سبعة عشر شخصا تحت أنقاض بيوتهم.

فى اليوم الثامن عشر لمرضى استطعت لأول مرة أن اخرج. وكنت لا أزال مضعضع القوى، ولا ادرى حتى الآن إن كان ضعفى بسبب المرض أم التطبيب. فقد قام ذلك الطبيب فى فترة مرضى القصيرة بفصد ثلاثة من أوردتى، واخذ 64 دفقة من دمى، وذلك ما يمكننى أن أعزو إليه ضعفى. ولعلاجى بشكل قاطع أوكل إلى حلاق عربى [حجام] أن يضع لبخة من الخردل على فخذى. لكن ذاك الحلاق نسى أن ينزعها فى الوقت الصحيح، ولم يتذكر القيام بهذا التكليف إلا بعد مضى 12 ساعة، ومنذ ذلك الحين صدمت نفسى والى الأبد من جهل وعدم أمانة ودجل الإيطاليين.

ومع استردادنا لقوانا استعدنا أيضا الرغبة فى الحياة والمغامرة، وركبنا عبر اكثر شوارع العاصمة ازدحاما وحياة إلى القلعة لنشهد دفعة

واحدة اصطخاب ما لا يمكن مقارنته بشىء. وكنت فى عالم آخر، ولم ادر أن كانت حواسى الخمس ما زالت قوية، قادرة. كنت كمخمور أو مسطول بالحشيش يرى فى أحلامه صورا ملونة مختلطة دون أن يستطيع تمييز شىء ذى معنى منها. كان كل شىء جديدا بالنسبة لى: الهواء، والسماء، والشمس والدفء والناس والحيوان والمنائر والقباب والجوامع والبيوت. وهذه اللحظات هى التى تتجمع لتكون كلا رائعا. فلم اكن لاحلم بمثل هذا الحشد من الناس والصياح والتدافع. وكانت كتلة من البشر المتدافعين تنفض وتجتمع وتموج عبر الطرقات. فهناك الراجل والراكب حمارا أو فرسا أو على ظهر جمل، وفلاحون شبه عراة وتجار معممون وجنود بثياب ممزعة، وضباط فى بزات مزركشة بالذهب وأوروبيون وأتراك وإغريق وبدو وفرس وزنج وتجار من الهند ودارفور وسوريا ومن القوقاز، ونساء شرقيات محجبات حجابا سميكا، فى حرير اسود، ونساء فلاحين فى قمصان زرقاء بسيطة، وعلى أوجههن الحجاب الطويل، وجمال محملة وبغال على ظهورها بضائع، وحمير تجر عربات وحناطير تجرها خيول مطهمة، يجرى أمام أحدها عبد قوى بسوطه المفرقع، وتركى رفيع المقام، فخم الثياب على صهوة جواد نبيل فى صحبة خادم الإسطبل الذى لا غنى عنه، وثوبه الأحمر، دلالة على منصبه، على كتفيه، والسقاءون بأدواتهم التى ترن، وعلى ظهر الواحد منهم خرطوم كثيف الشعر أو قلة من الفخار، وشحاذون عمى، وباعة قصب السكر الجوالون، وباعة الفاكهة والخبازون.

ويصدر كل واحد من هؤلاء ضجة لا يسمع المرء فيها صوته، وحشد وتدافع لا يمكن لاحد أن يخترقه: (أوعه يا سيدى.. ضهرك.. رجلك.. يمينك.. شمالك.. رأسك، أوعه وشك..أوعه الجمل.. البغلة.. الحمار..

الحصان. يا ساتر تستر. يا سيدى..) ولا انقطاع لهذه الصيحات. كل لحظة تأتى بجديد، وما رآه المرء من ثوان يصبح قديما. فإذا تخيل الطرقات المتعرجة الباردة والودودة التى تصبح أضيق فأضيق إلى أعلى وهى فى الغالب معروشة ومسقوفة، ولذا فهى مظلمة، وبيوت بها مشربيات من الخشب المحفور فى روعة فنية، يقابل ذلك المنارات السامقة إلى السماء والمضاءة بوهج شمس مصر واشجار النخيل التى تتصاعد هنا وهناك بين المنازل، فإذا تخيل المرء سحر السماء الزرقاء التى تتلالا من خلال فجوات فى أسقف الطرقات أبدا، ومتعة الهواء النقى الرائع. إذا تخيل المرء كل ذلك يستطيع أن يكون فكرة عن شوارع القاهرة الرئيسية، ولكنه لن يكون فكرة عن البازار، إذ هناك حياة أخرى تماما.

لم نستطع أن نرتوى من الصور المتبدلة، أرهق الذهن وكد بكل ما رأى. فوقفنا أمام بوابة عالية ونزلنا، ودخلنا جامع السلطان حسن. هناك أحسسنا بالسلام والامان القدسى. وكان السكون بالجامع نقيضا لحياة الشارع الصاخبة. فشعرنا حقا بأننا قد دخلنا بيت الله. لبسنا أخفافا، وخطونا إلى داخل الجامع.

كانت أرضه المرمرية مغطاة بالسجاجيد والابسطة، ومن قبته تتدلى لمبات لا حصر لها، من سلاسل من النحاس، وكل قوس مغطى بأرابسك رائع الفنية، والقبة نفسها مزينة بأرفع ما قدر عليه الخيال، وكذلك الأقواس والأعمدة.

ويخلو الجامع من كل ما بالكنيسة المسيحية من زينة، كالرسومات وصور العذراء والمسيح والقديسين والمحراب المزين والموسيقى والزهور والبخور، فالغرض فيه هو تطويع الحجر.

وحيطانه مليئة بالزخرفة، وآيات قرآنية تزين المحراب البسيط، وليس هناك أروقة أو أقواس وعقد، ليس هناك كرسى للصلاة يضيق بيت

الصلاة، فالمكان الفسيح هو مساحة وقبة وأقواس وعمد وموزييك من المرمر، كلها متحدة.

وعلى البروش خر المؤمنون يصلون. وكان آخرون يتلون القرآن ورؤوسهم تتحرك متفكرة. وقد رأينا قبر من بنى الجامع، ولوحة محفورة فى الجدار بعرض خمسة أقدام تقريبا كتذكار عن العهد الذهبى لحكومة بانى الجامع. ورأينا فى فناء الجامع حوضا يحيط به النخيل مخصصا للوضوء.

ركبنا من هناك إلى القلعة. كان الطريق إليها على منحدر مقوس على سفح جبل المقطم، حيث القلعة. ودخلنا عبر ثلاث بوابات إلى داخل هذا الحصن الذى بناه مهندسون فرنسيون. ورأينا بئر يوسف المشهورة، وموقع مذبحة المماليك. ففى أول مارس من عام 1811 قفز أحد فرسان تلك العشيرة الحربية بفرسه العربى ما يربو على الستين قدما فوق حيطان القلعة إلى الأرض، وقد هلك الفرس، لكنه أنقذ صاحبه. وقد عفا محمد على عن ذلك القافز الشجاع، واوقف له معاشا. وعاش فى القاهرة كآخر المماليك.

ومن أحد الأبراج استمتعنا بمنظر بديع للقاهرة وضواحيها. وكانت أمام أعيننا اجمل مناظر مصر، ترقد ساحرة فى الشمس الجنوبية. ولا يمكن لعين أن تحيط بسحر المنظر كله فى طبيعته. كانت القاهرة تنبسط أمامنا فى صورتها الأسطورية، بسكانها الذين يفوق عددهم الثلاثمائة ألف نسمة، وقبابها الآلف، ومناراتها وجوامعها وضواحى المدينة، والطبيعة التى يشقها نهر من الدرجة الأولى، والأهرامات، حارسة رمال الصحراء الهاربة، واحد عجائب الدنيا.. والأفق تملؤه الصحراء الرتيبة الصفراء التى لا تبدو لها نهاية ترى، والتى يضيع فيها البصر. تلك كانت

الصورة التى ماجت فى نواظرنا السكرى. وكان المساء يرقد فوق ذلك المدى العدنى، والنيل يجرى ذهبيا إلى المدى الذى يمكن للعين أن تتابعه. وعبر الأرض الضاحكة كانت ريح غربية لطيفة تحرك تيجان النخيل، فوقفنا صامتين، مسحورين بهذا المنظر الجليل. وكرعد بعيد، بلغ مسامعنا صخب الجموع المتموجة تحتنا، وحان موعد صلاة المغرب، فالشمس قد غاصت فى بحر الرمل الأبدى، فارتفع إلينا من المآذن آذان المغرب الرخيم مناديا المؤمنين "حى على الصلاة.." ومن الجموع توجه المسلمون إلى الصلاة، والمسيحى أيضا لا بد أن يحس فى قلبه صدى للآذان الذى يدعو إلى الصلاة. أثناء إقامتنا فى مصر علمنا أن بعثة إرسالية كاثوليكية ستتوجه إلى دواخل أفريقيا بعد حين. وكنا تواقين للتعرف عليهم، فكتب لنا القنصل العام فون لاورين خطاب تقديم، وقد بعثت فينا الخطط بعيدة المدى للبعثة الإرسالية رغبة شديدة للسفر، فجرؤ البارون على طلب انضمامنا للبعثة، وقد لبوا له طلبه، وكانوا ودودين لدرجة انهم عرضوا علينا سكنا فى بيت كبير فى بولاق، حيث يسكنون، وقد شكرناهم وانتقلنا إليه، وبذا أيضا أتيحت لنا فرصة السفر مع جماعة مثقفة وعارفة بلغة البلاد إلى دواخل أنريقيا. وكان غاية ما نرجوه آنذاك أن نصل إلى الخرطوم، العاصمة الاستوائية لأفريقيا الداخلية، والتى كانت تحت الحكم المصرى.

كانت البعثة الإرسالية مكونة من خمسة من الدعاة الروحيين المدربين فى روما، وكان هدفها أن تنصر وثنيى النيل الأبيض. وسأتوقف قليلا عن رواية حكايتى أصف فى إيجاز رفقاء سفرنا.

كان رئيس البعثة يسوعى اسمه ريللو، وهو معروف منذ ثورة الدروز والمارونيين فى فترة الحرب بين إبراهيم باشا والباب العالى، وهو

رجل ذو مواهب عقلية فذة ونادرة وحماس ونشاط جم وفظيع ومثمر، لكنه يسوعى. وكان يعانى حين تعرفنا عليه من دوسنتاريا تزداد سوءا فسوءا. وكان الأطباء القائمون على علاجه قد نصحوه بأن يذهب إلى أوروبا لبضعة أسابيع كيما يشفى من مرضه بشكل قاطع. لكن أوامر رئاسته قضت بأن يمضى إلى دواخل أفريقيا بأسرع ما يمكن، فأطاع. وفارق مصر متوجها إلى هدفه وهو يعلم أن حاله ذاك سيفضى به إلى الموت. وبعد رحلة مليئة بالمشاق والرهق وصل إلى الخرطوم، ومات هناك بعد إقامة قصيرة بها. تلك هى الشجاعة التى تميز رجال الإرساليات الكاثوليك واليسوعيين عن بعض رجال الإرساليات البروتستانتية، ولو لم يكن ريللو يسوعيا لكان إعجابى به عميقا.

أما الأب الروحى للبعثة فقد كان فى ألمانيا، وهو الاب الشهير اغناتز كنوبليشر من لايباخ، وكان محترما ومحبوبا، مثلما كان عالما. وكان يمضى فى أعماله دون كلل، وكثير الاتصال ببعثاته، ومتواضعا وصارما، وكان ملما بعمق باللغات، وعارفا بعلوم أخرى. ولم يكن له غرض بجانب تصريف الأعباء التى يرسمها رؤساؤه غير السعى وراء المعرفة العلمية التى تتيحها له رحلاته الكبرى، وبزهد كامل فى أى مكاسب أخرى. وبينما كان رفاقه فى السفر يقضون أوقاتهم فى صلوات عقيمة أو بلا روح، كان هو لا يقوم بكل الأعباء اليومية فحسب، بل كان أيضا يحافظ على تدوين يوميات علمية مضنية وممتازة للغاية. وكانت مواظبته كبيرة مثل بقية مزاياه.

أما الأب بترمونتى، والذى كنا نسميه «موسى» فهو المبشر الروحى الثالث فى البعثة. وبرغم كونه يسوعيا، كان اقل كثيرا عن من ذكرنا. كان مفرطا فى حب الصيد، ومهووسا بشكل غير طبيعى بحب تنصير الناس.

وفوق كل شيء كان يبدو وكأنه قد قرر أن يقيم بى وحدى كنيسة. وكان يخصنى يوميا بموعظة صارمة، مخيفة. ومع ذلك كله، ورغم فشل محاولاته فى أن يغيرنى، ظللنا صديقين.

وكان هناك الأب دون انجيلو فنشو، والأسقف دى ماوريكماستر، وكان الأول مزيجا من التناقضات. وكان لفزعه من الغرق كلما اشتدت الريح يتعلق بعمود سارية المركب النيلى وينفخ مرتبته المطاطية عند كل لحظة يشعر فيها بالخطر لكى تصبح طوق نجاته، ومع ذلك عاش فيما بعد سنوات عديدة فى جنوب السودان عند خط عرض 4 شمال مع قبائل زنجية شبه متوحشة ودون أن يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا. وعلمت فيما بعد أن ملك قبيلة النوير قد أراد أن يزوجه ابنته، وانه اغتاظ للغاية عندما أوضح له الأب فينشو انه كمبشر كاثوليكى لا يجوز له أبدا أن يتزوج.

وكان قسيسنا يسوعيا، ولكنه كان طيب القلب، منصفا ومحترما. وعلى النقيض منه تماما كان الأسقف، وهو لم يكن فى واقع الأمر عضوا للإرسالية. وقد صاحب البعثة إلى الخرطوم فقط وعاد منها. وهو لم يتبع المبدأ المسيحى القائل بان الأسقف يجب ألا يكون مزريا فاحشا، كما انه مثلا لم يكن يتقيد بمبادئ الحشمة، وعاش حياة متعة ولذة فقط، وكان يكتفى بان يتلو أمام عينى الأب ريللو الصارم كتاب الصلوات والأدعية كل يوم.

وبالإضافة إلى أولئك كان بالبعثة الإرسالية ثلاثة من أهل الدنيا، أحدهم البارون س س الذى كان مشرفا على مزرعة فى بتافيا، والذى كان يريد أن يحاول إدخال زراعة البن والأرز فى السودان لصالح البعثة الإرسالية، ولكنه اضطر للعودة إلى مصر بسبب سكره. والآخران شاب

من مالطا ولبناني او سورى، كانا يقومان بخدمة المبشرين كخادمين ومترجمين، كما يقومان بشراء ما يلزم من أغراض.

وكانت مجموعتنا، إذا حسبنا نحن الاثنان، مكونة من ثمانية أوروبيين وشرقيين اثنين انضم إليهم فيما بعد خادم نوبى. وقد حددت نهاية سبتمبر لابتداء الرحلة. وتبقى لنا زمن كبير لنرى الأماكن المحيطة بنا وان نجهز مؤننا للرحلة الكبيرة، وان نعد خططنا. ومضى معظم الوقت فى شراء الأشياء الضرورية.. فالرحلة إلى دواخل أفريقيا تختلف عن كل رحلة أخرى وفى كل شىء، إذ أن المرء ذاهب إلى أراض وبلاد لن يجد فيها أهل صناعة أو فن أو تجارة، أو أصحاب فنادق. وعليه أن يوفر لنفسه فيها ما يلزمه بنفسه. وعليه أن يأخذ معه كل ما يلزمه من أغراض البيت من المائدة وحتى إبرة الخياطة. ويجب أن يفكر ويعد لكل حاجاته حتى لا يعانى فيما بعد من عوز لأشياء عدمها له تأثيره، فالمسافر يجب أن يأخذ معه الملابس والورق وأدوات الكتابة والمأكولات والخل والزيت والبراندى والاسبيرو والنبيذ لما يكفى اكثر من عام، والأدوية والفؤوس والمنشار والشاكوش والمسامير والسلاح والذخيرة وكتب أسفار وخرائط الخ الخ الخ ومئات الأشياء التى لا يحس المرء بافتقادها إلا عندما تعوزه الحاجة إليها، وإذا وجد المرء فى بازارات مصر العليا أو السودان شيئا ذا فائدة فان سعره سيكون عاليا. ويجب قبل القيام بالرحلة، وفى كل الأحوال، الحرص على تعبئة الصناديق بعناية وحفظها بنظام دقيق وصارم.

وقد كان المبشرون خير عون لنا بالنصح والفعل فى قضاء هذه الأمور المملة. ولا يمكننى إنكار المزايا التى غنمناها بمرافقتنا للبعثة الإرسالية، ولكننى اكتشفت فيما بعد أن العالم الطبيعى يجب أن يسافر

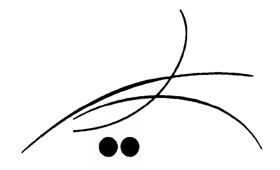
لوحده او ان يكون مستقلا عن رفاق سفره ليستطيع خدمة العلم كما يريد. ان تفويت فرصة واحدة يضيع غنائم غالية وجميلة ولا يمكن استرجاعها. لقد كنا جددا فى البلاد ونعمنا تحت رعاية البعثة بفرص واوقات كثيرة للتعرف على عادات وتقاليد الشعوب التى عشنا فى كنفها، وعندما أصبحنا لوحدنا مستقلين فيما بعد، تعلمنا أن نواجه كل مشكلة تطرأ علينا بطريقة البعثة الإرسالية، وبذلك كنا تحت هيمنتهم، وفقدنا استقلالنا. وقد اضر ذلك بنا كثيرا فيما بعد.

فى 24 سبتمبر استأجر المبشرون سفينة نيلية للرحلة إلى أسوان، مدينة الحدود بين مصر وارض النوبة بسعر آلفين وخمسمائة قرش. وقد جهزت وأعدت وحملت بالعفش. وأعد كل شيء للسفر. وقبل أيام بلغتنا إشاعات كريهة. كان الأب ريللو قد آذى إبراهيم باشا أثناء ثورة الدروز بحديثه المؤثر فى الشعب اكثر من زعماء الجبل مجتمعين. وقد وضع الباشا جائزة كبيرة على رؤوس زعماء تلك الأحزاب. وقد غامر ريللو بالمجيء إلى مصر. والآن يقال أن الباشا لم ينس ما اقسم أن يفعله باليسوعى فى سوريا. وكان شيخ من البدو قد كلف باحتجاز قافلتنا وبان يأخذ ما بها غنيمة وألا يصل الأب ريللو الى مصر حيا مرة أخرى. وفى الواقع لم يعد.

***

2

رحلة على النيل
من القاهرة إلى مشارف
صحراء البيوضة



فى عصر يوم 28 سبتمبر صعدنا مع الآباء الروحيين وشيعتهم إلى ظهر مركب نيلى كبير ومريح كان يرسو بميناء بولاق. وكانت أمتعتنا قد تم شحنها. واقلع المركب مع ريح شمالية خفيفة قبل ساعتين من الغروب، شاقا طريقه أعلى النهر. وقد ودعنا القاهرة بعدد من الطلقات ونفوسنا تفيض حزنا وكأننا ننتزعها من كل مدنية، ونفارق وطننا إلى الأبد. لكن الرغبة فى رؤية بلاد غريبة كانت هى الأقوى. وقد ظللنا نرقب فى شىء من المتعة والتلذذ ومنازل بولاق تختفى الواحد تلو الآخر. وهب علينا نفح بلسمى من جزيرة روضة التى سيوشح الظلام عما قريب منارات مآذنها المتوهجة فى شفق المغيب. كنا نبتعد عن القاهرة القديمة، واختفت مدينة الخلفاء عن أبصارنا. ومع هبوط الليل خفت الريح إلا من هبات خفيفة على الشراع المنفتح لها. وكانت الأمواج تصطفق عند مقدم المركب فيتردد صدى لغة النهر المقدس فى أعماقنا.

إن المرء لا يمكن أن يتخيل رحلة اكثر متعة من رحلة فى مركب نيلى، فى رفقة، ومع كل ما يلزم من سبل الراحة. وإذا كانت الرحلة النيلية طويلة يتم استئجار المركب وبحارته لفترة غير محدودة، ويمكن أن يتم دفع مبلغ شهرى والبقاء فوق هذا النهر العالمى كما يهوى المرء، ويشتهى،

وهو سيد نفسه، يمدد رحلته أو يحدها كما يشاء، ويجد فى كل مدن مصر كل وفرة فى الغذاء وحاجات البدن. ولا تكلف الذهبية بعدتها ورجالها اكثر من ألف قرش لمدة شهر كامل وذلك ما يعادل 66 تالر من العملة الألمانية. كما أن هناك سفنا مجهزة تجهيزا أفخم واكثر كلفة تتيح كل راحة ممكنة للرحلات الفاخرة.

وعلى أية حال، فإن الذهبية تفضل البواخر التى تملأ هذه الأيام بالمسافرين لتجوب بهم ارض الفراعنة على عجل فى أيام معدودات دون أن تتيح لهم فرصة الوقوف على بدائعها وحيث تتداخل الانطباعات وتختلط وتشوه. أما الرحلات التى تنظم على المراكب الشراعية المعروفة بالذهبية فهى توفر أقصى متعة ممكنة والوقت للتأمل وتركيز الانطباعات والعودة من تلك الرحلات بذكريات باقية.

و لا تختلف المراكب النيلية كثيرا من ناحية البناء والتجهيز. فالنصف أو اكثر من طول المركب مخصص للصالون، وما تبقى، على دكة بارتفاع بضعة أقدام قد ترك للبحارة والأمتعة، كما خصص السطح حتى الصارية الوسطى لاستخدام الركاب المسافرين، وهو مسقوف، وبمقدور المرء أن يقف تحته للتمتع بالهواء الطلق والمناظر. وهناك مطبخ عند الصارية الأمامية، وبين الصاريتين مصطبات للمجاديف. وفى مقدم المركب مكان لجلوس الريس الذى يراقب عمق الماء الذى يبحر فيه المركب، وعلى سطح الصالون يجلس المستحمل أو ماسك الدفة، الذى يأتمر بتوجيهات الريس، ويجلس البحارة القائمون على الأشرعة عند السارية الوسطى.

والصوارى قصار بالمقارنة، ولكن عارضات الأشرعة طويلة جدا، وعليها الأشرعة ثلاثية الأطراف المعروفة بالأشرعة اللاتينية التى يلزم

تعديل اتجاهها وفقا لحركة الريح والجهة المقصودة فى السفر. وعندما يكون منسوب النيل منخفضا والريح قوية يمسك أحد البحارة بحبل يشد به الشراع ويطلقه عندما ينغرز المركب فى ارض النهر، وهو ما يحدث كثيرا، عندئذ يتخلص البحارة من ملابسهم فى سرعة شديدة وينزلون الماء، ويتعاونون على دفع المركب من جديد. وعادة ما يكون للذهبية شراعان كبيران وشراع صغير. فإذا كان المركب صغيرا وطويلا وذا أشرعة كبيرة وصالون صغير، سمى صندلا. والصنادل اكثر سرعة بأشرعتها.

ويقسم صالون الذهبية إلى ثلاث أو أربع غرف، واحدة للاستقبال، وأخرى للسكنى وثالثة للنظافة والرابعة للنوم أو للحريم. وفى الذهبيات الكبيرة يجهز الصالون بمقاعد ومناضد وخزانات ملابس وما شابه ذلك من وسائل الراحة. ولا أنسى أن اذكر الزير والقلة، وهما لحفظ الماء باردا، وقد برع المصريون منذ تاريخ بعيد فى صناعتهما من الفخار. ويسع الزير قرابة جردلين من الماء، وهو مخروطى الشكل، وتصل برودة الماء فى القلة إلى ثمانى درجات مئوية.

كان كل يوم يمر بنا فى مصر العليا يزيدنا متعة وتشوقا. فهناك الحقول الشاسعة الخصبة التى كانت فى خضرة الربيع، واشجار النخيل المحملة بالثمار، والقرى والمدن الصغيرة، والمساحات التى تركت بورا دون زرع، وامتداد الرمال فى الصحراء الغربية والشرقية، والتلال القاحلة والصخور التى تبرز فجأة، والجبال، وبقايا المعابد المصرية القديمة، وأطلال أماكن سكنى مندرسة. والمسافر الذى ينشد المتعة يجد الوقت لمشاهدة كل ما هو طريف، ولكننا كنا مرتبطين بالبعثة الدينية، فلم نستطع غير أن نزور اليابسة فى ساعات الصباح فقط، والصيد فى نفس الوقت.

لقد واتتنا الريح طيلة الرحلة، وكانت الرياح الشمالية تهب بانتظام منذ شهر، كما سادت التيارات الهوائية المعروفة بالرياح السابلة. لكن الريح التى تساعد على الملاحة النيلية هى الشمالية، والتى تهب ابتداء من منتصف أكتوبر حتى نهاية مارس أو بداية أبريل. وقد هبت مبكرة هذا العام. أما التيارات الهوائية الأخرى فهى لا تدوم اكثر من يوم. وتنشط الريح صباحا حوالى الساعة التاسعة، ولا تفتر حتى مغيب الشمس، عندئذ تسكن الريح تماما، وكثيرا ما تعاود هبوبها حتى الساعات الأولى من الفجر، وتتفاوت فى قوتها. وفى بعض الأحيان تشتد الريح الشمالية حتى أن المراكب المتجهة شمالا تعجز عن الحركة، وان أنزلت أشرعتها وأعملت مجاديفها. وفى شهور أبريل مايو ويونيو ويوليو تتناوب الرياح من كل الاتجاهات. وكثيرا ما تهب الرياح المسقطة لأوراق الأشجار، تلك المعروفة برياح الخماسين، والتى يعتبرها العرب ضارة جدا بالصحة. عندئذ يتعذر سير السفن، ويتوقف. لكن الرياح الشرقية أو الغربية لا تعطل الملاحة، إذ تستطيع السفن بالتوجه جنوبا أو شمالا فى النيل وباستخدام أشرعتها اللاتينية أن تمخر فى يسر نحو الجبل أو السهل.

فى الثانى من أكتوبر رسونا فى ميناء المنيا، وهى مدينة صغيرة بصعيد مصر. وقد صعد إلى مركبنا تركى ضخم الثياب. قد اتضح لنا انه فرنسى كان قد التحق منذ سنوات بعيدة بالخدمة المصرية، وتكشف لنا بعد حين انه قد ورث عن زيه وسمته التركى عاداتهم أيضا، إذ بعد رحيله بوقت قليل أتانا خادمه بخروف سمين وسلة كبيرة ملأى بالخبز، وذلك تعبيرا من سيده عن ترحيبه بنا وضيافته لنا وإكرامه.

وقد رحلنا عند الظهيرة..

لم نجد فى القرى التى زرناها حتى الآن غير العجائز والنسوة والأطفال. أما الرجال والشبان فقد استدعاهم الخديوى لخدمته فى الجيش أو فى مزارعه أو مصانعه أو بواخره أو أعماله التجارية. ويعتبر التجنيد للخدمة العسكرية الخديوية من الأسباب التى أدت إلى الحد من النسل، والخوف من التجنيد قد حمل اكثر من ثمانين بالمائة من الأمهات العربيات على كسر سبابة اليد اليمنى لأطفالهن الرضع حتى لا يصلحوا للخدمة العسكرية. إن الحكم الباشوى لمصر قد اضر بمصادر الدخل المصرى والذى يعتمد على الزراعة، إذ ابعد آلاف الأيدى العاملة من الأرض.

فى الثانى عشر من أكتوبر رسونا بالقرب من أطلال مدينة طيبة ذات الأبواب المائة، بالقرب من مدينة الأقصر. وكانت أكواخ الفلاحين البائسة قد بنيت على بوابات أحد المعابد، كما أن القرية نفسها كانت تحجب عن الأنظار كثيرا من الآثار والتماثيل. وليس بنيتى أن أعيد ما وصفته مئات الأعمال عن آثار الأقصر والكرنك، بل إنى القى بعض الشذرات والانطباعات التى خلصت لى وأنا ابصر هاتيك الآثار.

شامخة ورائعة كل الآثار المصرية، لكنها ميتة متصلبة. فالتماثيل والمعابد اليونانية تدفئ القلب المشاهد وتثيره بحيوية أشكالها، ومن يرها لا يهتز للتماثيل المصرية. وفى رأيى الشخصى هناك ثلاثة أعمال مصرية قديمة هى حقا رفيعة، وهى الأهرامات والمدافن الملكية، ومعبد الصخر بابى سمبل. أما ما عداها من الأعمال الأثرية المصرية الأخرى التى استخدمت فى بنائها قطع هائلة الضخامة وملئت بنقوش هيروغليفية دقيقة مثيرة للاهتمام وان غفلت قواعد المنظور، فان ما يثير العجب فيها هو ضخامتها ومواقعها، لا أشكالها. وكذلك الحال بالنسبة

للجبانات الملكية، فهى كمعظم المعابد المصرية القديمة تقع على الضفة اليسرى الغربية للنيل، فى الصحراء.

هناك طريق واسع عليه آثار تدل على انه من صنع الإنسان، وكلما تقدم صار اكثر وحشة وسكونا وحزنا. إنها مملكة الموتى. وفى التفاتة واسعة يطوق الطريق الجبال التى تزداد ارتفاعا هنا. وبعد المسير ميلا يبلغ المرء مدخل الجبانة الملكية الأولى. أما الجبانات الأخرى، وعددها نيف وعشرون فهى بالقرب من هنا فى واد تسوره صخور عالية عمودية كأنها الجدران.

ثمة مغزى عميق فى اختيار هذا الموضع للمدافن. هنا تنعدم الحياة، إنسانا وطيرا، ولا يضل أى حيوان سبيله إلى هذا المكان. وتظلل المكان رائحة وسكينة قدسية، وذلك ما يجب أن يكون، إذ ان ملوك اكثر شعوب الأرض تفردا يرقدون هنا. وقد وفرت حكمة كهنتهم لملوكهم الراحلين مكانا مقدس السكون، أبديه، بعيدا عن اضطراب الحياة المائجة. وتغطى الجبال الغرفات التى تضم رفات أولئك الحكام العظام، وتدفن الحجارة مداخل القبور، ومع ذلك جرؤت الأيدى العابثة فى الأجيال التاليات أن تفتح تلك الأبواب المغلقة، وتكسر التوابيت الصخرية وتدنس الجبانة المقدسة.

ووضع القبور ثابت إلا من تعديلات طفيفة، هناك حجرات عديدة، تقع الواحدة خلف الأخرى، وفى أخراها يوضع التابوت. ولان الصخور التى نحت فيها القبر قد سطحت صفحاتها، فقد رسمت لوحات هيروغليفية على الحجر الجيرى، تصور حياة الراحل، حيث يصور الملك فى حروبه وعلى عرشه، وفى صلاته، وعلاقاته الأسرية، ولحظات لهوه. وتصور بعض الجدران الشعوب التى أخضعها المصريون. ويمكن تمييز الرؤوس

الإثيوبية مجعدة الشعر دون مشقة من بين الهنود واليهود والفرس. وقد بقيت تلك الرسوم إلى يومنا هذا محتفظة بألوانها نضيرة بصورة لا مثيل لها وكان الفنان قد فرغ البارحة من رسمها.

رهيب هو اختيار الوادى الهادئ، واكثر منه رهبة وضع المقابر. ولا يمكننى وصفها بأكثر من ذلك، إذ انه يتطلب اشهرا بطولها لا الساعات القليلة التى كانت لدى.

وبعد جولة قصيرة لمشاهدة الآثار فى الأقصر والكرنك، عدنا لمواصلة رحلتنا. وهنا برزت ثلاث راقصات فى ملابس خفيفة، ويعرفن بالغوازى، ويطلق المسافرون عليهن اسم [العوالم]، ومفردها عالمة، وهى المغنية فى الديوان التركى للضيوف من وراء حجاب. وقد شرعن فى الرقص على أنغام كمان ذى وترين، يعزفه شيخ أعمى، ويعزفن الصنوج والمزاهر. وكان رقصهن حسيا مثيرا. وقد كنا نحن أبناء الدنيا متحمسين لمشاهدة الراقصات الفاتنات، لكن الآباء الروحيين ـ ربما باستثناء الأسقف ـ قد خافوا من غوايتهن، فقاموا بطردهن على الفور.

وقيل لنا إن الغوازى يعشن منفيات هنا. وكن من قبل يمارسن فنهن فى القاهرة والإسكندرية، لكن محمد على الكبير رأى انحلالا فى حياتهن، فأمر بنفيهن إلى صعيد مصر، ففرقهن الجند فى عدد من المدن الصغيرة، حيث عشن حياة غاية فى الاضطراب. وكثيرا ما كن يضايقن المسافرين بإلحافهن. وقد يجد المرء بينهن فتيات جميلات، ولكنهن وقد مارسن كل رذيلة وخاصة إدمان الخمر، تدنين لدرجة تثير الاشمئزاز والشفقة. ويصف الترك ما يمارسنه من عربدة وتفسخ بأنه فنتازيا، ولى عودة إلى رقصهن.

عندما تكون الغازية صغيرة سن وجميلة، وغالية ثوب، وماهرة فى إخراج رقصاتها المعبرة بصورة جيدة، فان لوصف الفنتازيا ما يبرره.

وظهورها بحد ذاته مدهش رائع. ولكن سحرها سريع الزوال. وعندما لا تعود قادرة على سلب الرجال ألبابهم، تهوى فى قاع النسيان. وحين تشيخ لا يبقى لها غير أن تطرق أحط أنواع التعريص، والذى لا يغطى حاجتها للمال لتحيا! ويا له من نفى صارخ لبدايتها البراقة. وكانت إحدى أولئك الراقصات الشهيرات وتدعى صفية، خليلة لعباس باشا، ويقال إنها حين كانت فى عز تفتحها جميلة للغاية حتى ان حريم عباس باشا ـ كان يومئذ حاكما للقاهرة ـ لم يضم من يعدلها جمالا وفتنة. كان الباشا يغشاها سرا، ويسبغ عليها كل غال من الهدايا، ويطالبها بالوفاء الذى لا يمكن لفتاة مبذولة مثلها ان تعرفه، وما كان له ان يتوقعه. وقد وجدها ذات مرة فى أحضان عربى وسيم. وفى سورة غضبه ورغبته للثأر أمر بان تجلد حتى تمزق جلد ظهرها بالسياط. ومرت شهور قبل أن تبرأ جراحها. وقد ذوى جمالها، وغاض بريق فتنتها. وقد رأيتها فى اسنا حيث تسكن فى بيت كبير، وما زالت تشع منها بعض مسحات ذلك الجمال، كما بقى من تلك العقوبة ما يذكرها للابد بحب وثأر عباس باشا، إذ كانت كسيحة.

واتتنا الريح بشكل مذهل، فوصلنا بلدة اسنا فى 13 أكتوبر. وفى السادس عشر منه بلغنا [جبل السلسلة] أو جبل الزلزلة فى رواية أخرى. وهو ممر ضيق للنهر، ويمثل آخر حاجز على النيل أن يتخطاه قبل أن يفيض فى رقة وسكون على التربة الطينية التى تنتظره بمصر. وهو مكان جدير بالملاحظة، إذ يرى الواقف على الضفة اليمنى للنيل بصخورها الهائلة مدافن واعمدة معابد الأولين فى الضفة الأخرى. وبعد جبل الزلزلة تقل التلال وتبدى ارض مصر الزراعية ثراها من جديد. وعلى الضفة اليمنى للنيل تقف كوم أمبو على صخرة شديدة الانحدار قد غطتها الرمال، وبها معبد فرعونى مزدوج.

كنا نمخر النيل بسرعة باخرة بخارية صغيرة، ورأينا فى عدد من الجزر الرملية أول ما شاهدناه من التماسيح الحية، والتى كانت تزحف ببطء مندسة فى الماء حين نقترب منها لنوقعها فى مرمى بنادقنا. وكنا قبل أيام قد رأينا أحدها يسبح فى الماء، لكنه كما تأكد لنا فورا كان ميتا، ومع ذلك أطلق السادة الروحانيون نصف دستة من الطلقات على جلده المصفح، وقد استغربوا هدأة الوحش النائم. ورحت فى قرارة نفسى اسخر من صيادى أيام الأحد هؤلاء!

وقبيل المساء وصلنا أسوان، المدينة الحدودية بين مصر وبلاد النوبة، ورسونا جوار مركب للرقيق. وكان بمقدور المرء أن يرى وراء النخل الذى يحجب المدينة عن الأنظار قبر الشيخ موسى على جبل بالضفة اليسرى للنيل، وهو الحارس الراعى للشلال الأول. وتقوم صخور جرانيتية سوداء بجانب أكوام من الصخور الأسوانية [البركانية] فى مجرى النهر وتعوق الملاحة فى الصيف، وتبرز جزيرة فيلة [ألفينتاين] مثل حديقة جميلة، ومعها أسوان. ويمكن الوصول ملاحة حتى المدينة عندما يكون النيل مرتفعا. أما فى أيام النزول، فالحذر واجب، ويجب الملاحة على الضفة اليمنى وحول الجزيرة، وبحذر اكبر عبر آخر الصخور يمكن الاجتياز إلى حيث يجد المرء مكانا صغيرا وغاية فى الرومانسية، ومزينا بالرسوم الهيروغليفية، حيث يمكن الرسو، بعيدا عن الشلال.

وأسوان هى المدينة القديمة التى عرفها الإغريق باسم سينى، وكانت فيما مضى اكثر اتساعا وأهمية كما يتضح من الخرائب التى تحيط بالمدينة الفقيرة، وذلك بفضل الصخور الأسوانية الشهيرة.. تلك الصخور التى نحتت منها تلك التماثيل الهائلة والمسلات والقاعات والتى

تميزت بالمتانة والجمال الذى يجده الناظر فى كل بقايا معابد مصر، تلك الصخور ترقد قريبا من أسوان فى الصحراء.

وهناك أيضا بقايا حصون متينة البناء، ومساجد، ومقابر من أزمان متأخرة عن زمن الفراعنة، ربما من أيام المماليك، تحتل مكانا كبيرا فى ما هو صحراء الآن. ويدل الامتداد الكبير لهذه البقايا الأثرية على أن أسوان مستودع الشلال الأول كانت فى الغابر مدينة تجارية هامة. أما أسوان على أيامنا فهى لا تستحق اسم مدينة. وليس بها غير بضع محلات تجارية، معظمها خال من الباعة والمشترين. وهى المحطة الجمركية المصرية للمسافرين إلى السودان والقادمين منه.

إن كل السفن النيلية الذاهبة من مصر إلى ارض النوبة لا تعبر شلال أسوان، على الرغم من انه ليس خطرا، إلا إذا كان الريس ملزما بعقد مسبق لعبوره. ولم تكن ذهبيتنا تحت أى ظرف مهيأة لذلك. لذا كان لا بد أن تحمل أشياؤنا بالجمال لنقلها إلى ما وراء الشلال. وقد اختار دون اغناتو موقعا بالقرب من جزيرة فيلة لاقامتنا حتى وصول سفينة أخرى. وفى 18 أكتوبر جاءنا أصحاب الجمال المستأجرة، وحملوا الأشياء التى تخص الإرسالية فوق جمالهم، ورحلوا عند الظهيرة. أما نحن فقد ركبنا راحلين عند العصر فوق ظهور الحمير، وبلغنا عند المغيب قرية سيالى الصغيرة القائمة عند بداية الشلال.

وكانت المنطقة المحيطة بالقرية جميلة آسرة بصورة رومانتيكية، وان كان ذلك فى نوع من الوحشية. فالجبال تحيط بالمكان، والنيل يجرى هادرا فائرا فوق صخور سلسلة الجبال غير المنتظمة، التى تعترض سبيله وتوزعه إلى مئات البرك الصغيرة. وهناك رقعة ضيقة صالحة

للزراعة على ضفتى النهر، خلفها قتام وقفر. ومع ذلك فان هذه الجهة تتمتع بجمال آسر.

وفى وسط هذه الفوضى الصخرية ترقد جزيرة فيلة، خضراء، زاهية باشجار النخيل، وبقايا آثار معبدها. ويخيل للمرء حين يبصرها أول مرة انه أمام قلعة سحرية. فالمعبد القائم على خلفية من كتلة صخور سوداء فى عمق سكون الوحدة التى ترتطم بها أمواج النهر، وتحيط به أشجار النخيل الباسقة واشجار الميموزا[السنط] العبقة برائحة البلسم، قد بنى فى موضع مناسب لتبجيل آلهة مصر القديمة. وهو مكان لا مثيل له.

لقد شقت قاعات المعبد على اكمل واخلص الأساليب المصرية، وكل جزء فى البناء يبرز بصورة مثالية جمال البناء كله. هنا تختفى الضخامة التى تميز الآثار المصرية، وتبرز حركة رشيقة تتسم بالحرية والجسارة لا تخطئها العين. فالأعمدة الرفيعة تتوجها مقابض خفيفة، وكل عمود يختلف عن الآخرين. ما تشترك فيه هو زهرة اللوتس. ومما رأيت فى بعض رؤوس الأعمدة غير المكتملة فان الزهرة قد رسمت بعد اكتمال البناء كله.

عندما بلغنا النبأ الأكيد بان كورسكو ليس بها العدد المطلوب من الجمال لرحلتنا عبر الصحراء، قرر رجال الإرسالية تغيير طريقنا. فتم استئجار سفينتين صغيرتين حتى وادى حلفا، على أن نواصل الرحلة من هناك إما بالجمال أو المراكب حتى دنقلا، ومنها يمكن مواصلة الرحلة دون توقف عبر صحراء البيوضة.

فى 21 أكتوبر صعدنا إلى ظهر السفين مع الأسقف كاسولانى والأب موسى ودون انجيلو، وهى وان كانت الأصغر إلا انها اكثر راحة. أما بقية المسافرين فقد بقوا على مركب النقل، وكانت الريح طيبة، وفى 22 أكتوبر كنا قد عبرنا مدار السرطان، واطلقنا لذلك عددا من الطلقات.

وبعد يومين وصلنا مدينة كورسكو، ووجدنا بها حملة خديوية من عمال المناجم متجهة إلى قيسان لمناجم الذهب، وكانوا ينتظرون منذ اكثر من 18 يوما الجمال التى يعبرون بها الصحراء. وكانوا يتخوفون من طقس السودان سيئ السمعة فى القاهرة.

وكورسكو قرية صغيرة فقيرة، بها عدد قليل من المنازل أهمها بيت حامل البريد بين القاهرة والخرطوم والذى ينتقل بالجمال. ومع ذلك فالمكان ذو أهمية قصوى كمحطة فى الطريق بين مصر وشرق السودان عبر الصحراء النوبية. وتقطع المسافة بين كورسكو و "ابو حمد " فى جنوب النوبة، والبالغة 350 - 450 ميلا ألمانيا فى بحر سبعة أيام إلى تسعة أيام، ومن هناك إلى بربر[المخيرف] بالمراكب فى خمسة أيام. وليس فى الصحراء غير بئر واحدة هى البئر المر. وكما ينبئ اسمها فان ماءها ليس عذبا. ولذلك فان هذه الرحلة من اشق الرحلات واكثرها تكلفة حتى إذا استبعدنا الغش والتحايل الذى يمارسه أصحاب الجمال، ولا مناص لمسافر دون فرمان من الحكومة من الوقوع تحت رحمة شيوخ الجمال.

ان الفرق عظيم بين الجزء الذى عبرناه من بلاد النوبة، أى وادى الكنوز، ومصر، ولا يقف عند اختلاف الأرض، بل هو أيضا اختلاف فى اللغة والعادات والبشر أنفسهم. فالصخور تحيط بالنهر من جانبيه، وضفتاه أعلى من أن يفيض عليهما، ولذا فان أنين السواقى التى تروى بها الرقعة البسيطة الخصبة لا ينقطع ليلا أو نهارا. وليس النوبى المسكين قادرا على استصلاح الكثير من أرضه الحجرية، ولذا فان قراه بائسة. إنها اكثر بؤسا من قرى فلاحى مصر، ولكنها اجمل واحسن ضيافة. وهو أفقر من المصرى، لكنه افضل منه.

ويتضح الفرق بين البرابرة المسالمين والمصريين منذ الوهلة الأولى. والرجال ذوو سحنات داكنة نوعا ما، وهم انحف جسدا من الفلاحين واشد تهيبا واقل تحملا، ونساؤهم دقيقات حجم وقليلات وسامة، يمشين حاسرات الوجه. ويرتدى الرجال سراويل تبلغ منتصف الساق، وأثوابا عريضة تسمى واحدتها [فردة]، وفى أيام الجمع يرتدون جلابيب قطنية زرقاء اللون. أما النساء فيرتدين فوق سراويلهن القطنية الواسعة الطويلة فرادا، ويمشطن شعورهن المجعدة المنفوشة بنفس الطريقة التى ضفرت بها شعور النساء المصورات فى تماثيل وآثار ورسوم مصر القديمة منذ آلاف السنين. لا يمكن للمرء أن يرى تقاطيعهن السمحة إلا عن بعد، لأنه إن اقترب منهن صدمته انطباعات أخر. إن رائحة كريهة تصدم كل من يقترب من سحر المرأة النوبية، تلك هى رائحة زيت الخروع الذى تبالغ فى مسح شعرها به. فهو تحت أشعة الشمس المحرقة سريع الفساد ويبعث رائحة تلوث الجو لمدى ثلاثين خطوة. أما الصبايا فيلبسن الرحط وحده، وهو لباس من السيور الجلدية مشهور فى السودان. أما الصبيان فانهم بلا استثناء يظلون عراة حتى بلوغ الثانية عشر من العمر.

بين دير وكورسكو يغير النيل اتجاهه الجنوبى الشمالى ويجرى نحو الشمال الشرقى. وفى هذه المنطقة تصبح الرياح الغالبة غير مواتية للسفن، ولذا تجر بالحبال. وقد أمرت الحكومة سكان الضفة اليمنى للنيل أن يقوموا بهذا العمل، فالضفة اليسرى صحراوية. وقد استفدنا من هذا الأمر الحكومى، وطلبنا أن يسرع بنا. ولكننا صدمنا بالطريقة والأسلوب الذى يجبر به النوبيون على جر السفن. لقد خرج اثنان من ملاحى مركبنا واقتادوهم من المزارع والسواقى والبيوت بالقوة والقهر ليقوموا

بهذا العبء. ولقد أردنا أن نتدخل لننهاهم عن هذه الغلطة ولكن تأكد لنا بعد حين انه دون استخدام هذه الطريقة المألوفة لن يتم جر السفينة، فتركناهم وشأنهم.

أثناء الرحلة قام دون إنجيلو المشهور بخوفه من الغرق بتقديم فصل مسل. كانت الذهبية ترقد ساكنة فوق الماء، والنيل هادئ، والهواء جد طيب. فأقنعنا الأب أن يجرب المرتبة الهوائية لمعرفة جدواها فى حالة استخدامها إن حدث للسفينة مكروه. وبعد لأى قرر أن يجربها. فملأ المرتبة بالهواء ورماها فى الماء ثم خلع ملابسه ونزل فى حذر شديد، وبمساعدة البارون، ونظر بترفع إلى النهر وقال: " لتهج يا نيل فأنا محصن! " لكن بحركة واحدة انقلبت المرتبة وألفى دون انجيلو نفسه فى الماء. ورغم انه كان يقف على ارض صلبة، اخذ يصرخ طالبا النجدة. ومنذئذ وهو ينظر برهبة وخوف شديدين إلى ماء النهر المتكدر.

رسونا فى المساء فى دير، وهى قرية كبيرة لا أهمية لها، تحيط بها وتخفيها عن الأنظار أشجار النخيل. يقوم بالقرب منها معبد فى الصخر نصف متداع. هنا عقد الآباء الروحيون اجتماعا، وكان أحد الآباء قد جاء يطلب العون لولده المريض. ولم يكن أحد يدرى ماذا يفعل له إذ أن والدته كانت تعانى قبل ولادته من مرض الزهرى. لكن الأسقف لم يعدم حيلة، فقد اخذ الولد من أبيه بدعوى انه يعطيه الدواء، وعمَّده!

بعد دير فترت الريح. ولذا لزم جر المركب بالحبال [اللبان]. وفى 29أكتوبر وصلنا ابريم التى كانت حصنا من حصون المماليك، وقد خرب. وكانت هناك قرية بنفس الاسم على شاطئ النهر وتحت أشجار النخيل. وكان الحصن نفسه يقف على صخرة شبه عمودية على ضفة النهر على مسافة قصيرة من القرية بأعلى النهر، وجدرانه من اللبن

المجفف، وهو مادة جيدة للبناء فى هذا المكان الذى تنعدم فيه الأمطار. وقد كانت ابريم آخر مواقع المماليك، أولئك المحاربين الذين كان محمد على الكبير يخشى باسهم، وقد عجز لزمن طويل أن يقوم بأى شئ ضدهم وهم فى حصونهم الحصينة متحالفون مع النوبة، وكانوا يقومون بنهب السفن التى تمخر النيل. وكان الحصن مجهزا بالطعام والماء عبر نفق منحوت فى الصخر متصل بالنيل. لكن قوات الباشا قررت فى النهاية مداهمتهم. فهجمت وانتصرت وخربت القلعة واقتادت المماليك صاغرين إلى جزيرة سايس حيث تم سحقهم نهائيا.

فى الفاتح من نوفمبر وصلنا معبد الجبل، معبد أبى سمبل، وهو عبارة عن أثرين عملاقين يفوقان كل تصور. وأمام واجهة المعبد الكبير الذى كادت رمال الصحراء أن تخفيها تجلس تماثيل بارتفاع اربعين الى ستين قدما باريسيا، ووجوههم كبقية تماثيل مصر ليست جميلة ولكنها رهيبة المرأى، ولذا فهى آسرة. أما المعبد الداخلى فهو فى جملته قد نحت فى الجبل، وبه أربع عشرة غرفة وقاعات حافلة بالرسوم والتماثيل التى ترتفع لأكثر من ثلاثين قدما. وفى نهاية آخر واصغر الحجرات يرى المرء ثلاثة تماثيل من الحجر لعلها رموز لعديد من الآلهة. وكما يرى بروكيش فى كتابه "ارض ما بين الجنادل النيلية " فان عمق هذا البناء الهائل هو مائة وثلاثون قدما نمساويا، وعرضه مائة وخمسة واربعون قدما. أما المعبد الثانى فهو لا شىء أمام الآخر، هو على بعد مئات من الخطوات من المعبد الكبير، على النهر، وهو اقل حجما وأدنى جمالا.

يعانى المسافر فى هذه الربوع الكثير من عملية الاستجداء التى يمارسها صبية ورجال قرى النوبة. لقد امتدت رحلات السياحة العادية لتبلغ هذا المكان، وصارت العادة أن يتلقى الأهالى منحا بسيطة من

السواح، حتى انهم ما أن يروا شخصا يرتدى ثيابا أوروبية حتى يتحلقوه ـ الأطفال العراة، والرجال فى أسمالهم الخلقة ـ يصرخون به " يا خواجة هات بقشيش! " ولا ينقطع هذا الاستجداء إلا عند وادى حلفا التى يشكل شلالها حاجزا أمام السواح.

فى الثالث من نوفمبر وصلنا حلفا، وهى على الضفة اليمنى للنيل فى غابة من النخيل تمتد قرابة الميل على طول الضفة. وهى قرية متواضعة ولا أهمية لها، ولا تقدم أى شيء، وليس بها حتى مجرد سوق. ان الجندل [الشلال] الرابع الواقع جنوبها بمسافة ربع ميل هو الذى يضفى عليها بعض أهمية، فقد سمى بها: شلال وادى حلفا. والحلفاء هى نوع من العشب البوصى الحاد الأطراف. وقد مكثنا بها ثلاثة عشر يوما فى منزل يعرف بالقصر أو القلعة حيث لم نجد جمالا ولم تكن هناك سفن وراء الشلال. وكان مقامنا يتكون من طابقين، فناؤه كبير، لكنه يفتقر إلى الغرف. وقد بنى من الطوب الأخضر، وعرش بجريد النخل. وكان سوره المستدير الذى يحيط بالمبنى كله مليئا بالكوى للرماة فى حالة الدفاع عنه حماية للقوافل الغنية فى الأيام الماضية. أما على أيامنا –حيث التجارة تحتكرها الحكومة – فلم يعد المبنى كله ذا أهمية. على أية حال كان مريحا لنا. وكانت إقامتنا بوادى حلفا مملة للغاية وقد سببت لنا العقارب الكثيرة قدرا غير قليل من الإزعاج. كما أن خلو المنطقة من الصيد قد أصابنا بالإحباط. وبالصدفة وحدها حصلنا على بعض الطيور القيمة.

فى الثالث والعشرين من نوفمبر استطعنا أخيرا أن نواصل رحلتنا. حمل بعض النوبيين عفشنا إلى ما وراء الشلال، وسرنا نحن بالحمير بمحاذاة النيل. وكان اغلب رفقاء الرحلة قد ركبوا الإبل للمرة الأولى مما اضطرهم للقيام بمجهود كبير للمحافظة على توازنهم عليها. وكنا نقصد

موقعا يسمى ابكى، أو امكى، على مبعدة ميلين من وادى حلفا. وبعد ربع ميل من حلفا لم يعد هناك اثر للسكنى. هنا تبدأ منطقة الشلال الكبير، أو الشلال الثانى، الواقعة فى وسط الصحراء. ولا تقع العين على شىء سوى الحجارة والرمال والصخور، والسماء والنيل الذى تقاسمته مئات الجزر الصغيرة وجعلته يرغى ويزبد ويرمى بتياره فى قوة على العوائق الصخرية. وليس هناك سوى شجيرات الميموزا التى تمد فروعها فى الهواء الساكن. ولها غذاء على الشاطئ حتى بين شقوق الصخر يبقيها على الحياة. ويا له من منظر رهيب الجمال. وكأنما الطبيعة هنا راقدة فى فوضى فجر الخليقة.

ان هدير الشلال يبدو مثل لوحة وحشية لا نهائية.

وصلنا ابكى مع حلول الليل. وكانت السفن تحتشد فى الخليج وكأنما هى فى ميناء، وبحارتها يتحلقون نارا يبغون الدفء من درجة حرارة لا تزيد عن 14 درجة مئوية. وقد سعدت أجسادنا المرفهة بهذا الدفء. كان الليل رائعا، وهدير الشلال يتردد كالصدى بالقرب منا، ويمتزج مع القيثارة النوبية حسنة الأنغام التى كانت تعزف اما كدعوة لشباب البحارة إلى الرقص أو ترحيبا بنا.

وكان بمقدور العين الحاذقة أن ترى غابة الصاريات فى النهر، والسفن المتلاصقة. وكان النهر مثل بحيرة ساكنة يتردد صدى أمواجها الرخيمة التى تصطفق بالشاطئ الصخرى حيث تتلالا النجوم. وكان الهواء النقى مشبعا بعبق الميموزا، وتيجان النخل تصدر حفيفا رقيقا، ناعما، يخفت شيئا فشيئا... فننام.

كان هناك اكثر من خمسين مركبا صغيرا فى ابكى، وهى التى تستخدم فى عبور الشلالات وتفريغ ما تجلبه من دنقلا العرضى من

سنا مكة. وهى مصنوعة من ألواح خشبية صغيرة نوعا ما، مسمرة ببعضها الآخر دون أضلاع، ولها صارية تحمل شراعا بشكل شبه المعين، وليس بها غرف بل فراغ غير مريح يحتمل أربعين طنا عربيا. وشذوذ هذا البناء عن كل أنواع السفن النيلية الأخرى إنما أملته طبيعة المنطقة الخطرة التى تعمل فيها، منطقة الشلالات. وقد حذفت الأضلاع حتى يكون للمركب اكبر قدر ممكن من المرونة كى لا تكون سريعة العطب من جراء اصطدامها وارتطامها المتصل بالصخور.

أما الشراع الذى بشكل شبه المعين فهو يتيح الانتفاع الأمثل من قوة الريح من أى جهة هبت. والمركب صغير، قصير، منخفض، لكى يقاوم ويقوم بكل الاستدارات السريعة والتحولات المفاجئة فى الاتجاه.

كانت الإرسالية بحاجة إلى ثمانية من هذه المراكب لنقل أغراضهم وأمتعتنا، وقد انتظرت هذه المراكب هبوب ريح مواتية للسفر منذ 18 نوفمبر. وكان هناك قرابة نيف وعشرين مركبا آخر، وكان منظرا بديعا أن يرى المرء النهر مغطى بأكثر من ثلاثين شراعا منفتحا لسفن مسافرة.

دخلنا "بطن الحجر"، وهى اكثر مناطق النوبة محلا، واشدها حزنا. ولم أر منطقة مثلها فى حياتى. كانت كتل الصخور العالية السوداء اللامعة ترتفع عموديا من النيل الذى شق مجرى له هنا عبر آلاف السنين فى هذه الصخور التى تضغطه من جانبيه، وتضيق مجراه، مما يجعل منسوبه أيام الفيضان يرتفع إلى 24 قدما أعلى مما هو عليه فى شهر أبريل. إن هذه الصخور تهد جبروت هذا النهر الجبار. وهو بدوره يحاول جاهدا أن يقهرها، فيغرقها بأمواجه الصخابة، لكنها تقف صامدة. وقد أقصت هذه الصخور كل ارض زراعية. لكن النهر ما فتئ يحاول فى عراك ابدى معها أن يقوم بدوره الخالد: أن يروى ويغذى الغلة

المقدسة، وان يقويها. ولذا فهو يرسب طميه اينما وجد بقعة صغيرة هادئة على الصخور الجرداء، ويحمل إليها البذور واللقاح. ويرى المرء فى وسط النهر جزرا مغطاة بشجيرات الصفصاف، وقد كانت فيما سبق صخورا جرداء. وقد غرست أشجار الصفصاف جذورها عميقا فى الشقوق الحجرية. وفى أيام نزول النهر تنبت أوراقها وتمتد أغصانها وجذورها الجديدة. وهى توفر للطيور المهاجرة ملاذا حقا، فالطيور الشادية تندس بين الشجيرات التى تذخر بالأزهار والحشرات. وترقد الإوزة المصرية فوق بيضها الذى يتراوح بين ست وعشر بيضات ويستريح البجع من صيد الأسماك وينظف بمنقاره الضخم ارياشه الوردية الحمرة. وهنا يولد الكركى ذو الذنب المتأرجح. وها هو أوان الزوابع الرعدية فى الجهات الاستوائية، والتى ترفع منسوب النهر الجبار. تتغير الظروف هنا، فتصبح الصخور ملاذ كل حياة، فالنهر يغطى شجيرات الصفصاف فى الجزر الصغيرة، لكن أفرعها تنحنى فى هدوء ورقة أمام غضبة النهر الجبارة، ترتجف قدام أمواجه المتدافعة المرتفعة، ثم تبقى عميقا تحت التيار المندفع، لتعود مرة أخرى تورق وتخضر عندما ينحسر عنها الماء، وتقوى وتصبح اشد قدرة على الحياة والبقاء.

لا يكاد بطن الحجر يقدر على توفير غذاء لحياة الطيور الصغيرة، ومع ذلك هناك بشر يحيون فيه، ويسمونه وطنا! وقد أقاموا على مسافات تحسب بالأميال أكواخا صغيرة لا يملكون بها غير ما يجود به النهر إن رق. وهم يعرضون أنفسهم للخطر إذ يسبحون إلى خليج بين الصخور الساكنة لا يمكن بلوغه عبر الجبل، ليزرعوا لهم فى الطمى المتجمع فوق الصخور غلالا. فثروتهم ما يحصدون.

وقد تمكن منهم الفقر حتى أن الحكومة المصرية رفعت عنهم الضرائب.

وهناك أماكن فى بطن الحجر سمحت لبعض النوبة ان يبتنوا عششا من القصب، وان يفلحوا شيئا من الارض، وان يمتلكوا بقرة او اثنتين، وعددا من الماعز لا يتجاوز الاربعة. ولكن تلك واحات شاذة عن الطابع المحزن والنكد للحياة فى هذا الجزء القاتم من ارض النوبة. ان وجود نخلة أو شجيرة أو كوخ هو شىء يحتفى به. وحلم اليوم هو حقل لوبياء، أما امتلاك ساقية، فدلالة على الثراء العريض.

ان بطن الحجر فقير فقرا تاما لا وصف له.

فى 19 نوفمبر احتفل المسلمون بعيد الأضحى، وقد جلس بحارة مركبنا فى ملابسهم الخاصة بالعيد فوق سطح السفينة، وبذا أضاعوا فرصة الاستفادة من أطيب الرياح، ولم نتحرك إلا عند الظهيرة. وقد جلسنا فى هدوء، فجأة ارتجت كل المركب، إذ ارتطمت بقوة بإحدى الصخور، فقفزنا فى هلع، وتأهبنا للسباحة، لكن ملاحنا العجوز الريس بلال ظل جالسا بوجه هادئ ورضى بصورة لا مثيل له، على دفة السفينة. وقد نادانا فى ود قائلا: " معليش، لا تنزعجوا، المركب تستحمل اكثر من هذا، ولا تؤثر فيها هذه الصدمات. وقد عشت ما هو أسوا. "

بهذه الكلمات بدد الريس بلال جزعنا، فهو جد كل ملاحى الشلال. وقد عرف النهر كما لم يعرفه غيره؛ انه يعرف كل صخرة ترقد تحت سطح الماء. ولكننا أحسسنا انه شعر بنوع من الراحة وهو يبعد السفينة عن تلك الصخرة.

فى 20 نوفمبر وصلنا شلال سنا، وهنا يجرى النيل عبر مخانق ثلاثة لا يزيد عرضها عن أربعين قدما. وفى بداية الشلال يرتفع الماء

بمقدار ستة أقدام عما هو عليه اسفل النهر وهو عشرون قدما. وقد استخدمنا كل الأشرعة، فبلغنا أحد المندفعات المائية الصاخبة، ونزل البحارة بحبل فى الماء المزبد وسبحوا فى التيار المتزايد القوة وربطوا السفينة والمركب الصغير إلى صخرة. وبقينا هكذا حتى اجتمع بحارة المراكب الثمانية كلهم، واخذوا يجرون السفينة المتأرجحة فوق التيار الجارف.

عند سكون الريح وطيبتها يمكن عبور مندفقات بطن الحجر فى ستة أو ثمانية أيام. لكننا للأسف لم تواتنا ريح طيبة فى هذه الرحلة. ولذا فقد قطعنا فى أيام ثلاثة مسافة لا تزيد عن ميل ونصف. وما كانت البعثة الإرسالية ولا بحارة السفن ليعدوا مثل هذه الرحلة السيئة الترتيب. وكانت لوازمنا تتناقص باطراد حتى اضطررنا إلى تموينها. وكان الوضع عسيرا حقا. وكان البحارة يتفرقون فى كل الأرجاء بحثا عن شىء يطعم. وقد أكلوا نوعا من الأعشاب البرية وجدوه هناك بدلا من الخضروات. ورغم تلك الضائقة حافظوا على روح معنوية طيبة، يغنون ويضحكون. أما نحن الأوروبيين فقد كنا برمين وغير راضين عن حظنا اليسير من التموين، وكنا نتشوق للحم طازج وخضروات. كانت وجباتنا تتألف من فنجان قهوة فى الصباح وخبيز وأرز حاف فى النهار وقليل من الحساء فى المساء. ولم يكن لشىء طعم لأن السمن كان قد نفد منذ أيام. وقد اصطدت إوزة نيلية واستمتعنا بلحمها واكسبنى ذلك مودة رفقاء الرحلة من الأوروبيين وإعجاب النوبيين ببراعتى فى الصيد. وقد اصطدت إوزتين أخريين كانتا قد حطتا فى وجل على بعد ثلاثمائة قدم فى جزيرة صخرية وأحستا أمانا إذ أن ذراع النهر المتماوج كان يفصل بيننا. وتبرع بحار نوبى بإحضارهما معلقتين فى عصاة. وما كان ذلك أمرا يسيرا.

إن مهارة النوبى فى السباحة تدعو إلى الإعجاب؛ فالمصرى يتردد فى النزول للسباحة، لكن النوبى يجعلك تحس بأنه إنما يجد نفسه فى الماء. وكثيرا ما يقطع اكثر من مائة قدم سباحة وبين أسنانه حبل الجر الطويل ويعبر من صخرة لأخرى رغما عن ضغط الموج وشدة التيار.

والنوبة يدربون أطفالهم على العوم منذ وقت باكر، فالصبيان والفتيات يتبارون ويلعبون فى النيل. والفتى منهم ينفخ قربة جلدية متينة ويرقد عليها، يحمله التيار اسفل النهر. والنساء والرجال يركبون الأطواف دون تفكير فى خطر لعبور النهر الذى يمتد عرضه لأكثر من ألف خطوة.

فى 25 نوفمبر وجدنا أنفسنا فى وسط شلال امبكول بين صخور هائلة. وكانت حركة المركب المحتبسة فى شيمة أو دوامة الشلال شديدة الاضطراب، مما أصاب الكثيرين من مجموعتنا بدوار البحر. وقد عزمنا على النوم فوق الصخور، فاخترنا موضعا رمليا منبسطا كومه النهر، فرشنا عليه سجادنا، ونمنا وهدير النهر يطغى على أسماعنا طول الليل.

لاحظنا بغبطة شديدة أن المكان المحيط بنا يبشر بالخير، إذ تقوم هنا وهناك مجموعة من النخيل أو أشجار الميموزا. وكانت هناك مجموعات كبيرة من الطيور الراحلة إلى الجنوب على طول النهر، وقد أحيا هذا أملا فى نفوسنا بان نجد صيدا يخفف عنا عسر الحال إذ لم يبق لدينا ما نقتات به.

وأخيرا نشطت الريح الشمالية التى طال انتظارنا لها، وكان ذلك فى 28 نوفمبر. وبعد يومين عبرنا جنادل تنجور، كانت هناك سفينة مهشمة تماما ترقد وسط الجنادل فوق جزيرة صغيرة، قد لاقت هذا المصير بكل حمولتها منذ شهر. وكادت إحدى مراكبنا أن تلقى نفس المصير لولا

تعاون رجالنا. وقد حاول محمد طباخ الأسقف العوم إلى حطام السفينة، فجرفه التيار وكاد أن يغرق لو لم يسرع إليه نوبيان عاوناه على النجاة. وقد أكدوا لى أن العديد من السفن تغرق فى هذه المنطقة سنويا، وكثيرا ما يغرق البحارة أنفسهم رغم مهارتهم فى العوم.

وكانت مع عبد الله، أحد رجال السفينة، زوجته، وكانت نوبية جميلة حقا من جهات منطقة النخيل بالسكوت. وقد وجدتنى أمس بالصدفة بالقرب من هذه الحسناء السمراء. وكنمر هائج صاح النوبى فى وجهى: يا سيد.. ماذا تريد من زوجتى؟

وقد أردت أن أطمئنه بأننى لا أريد بها سوءا. ومن لحظتها اخذ النوبى يرقبنى فى غيرة شديدة، وبدا لى انه يمقتنا من أعماقه.

أول ديسمبر.. وجدنا أنفسنا فى بقعة افضل كثيرا من السابقة. كانت أشجار النخيل كثيرة كما أشجار السنط، الميموزا، حتى أنها شكلت غابات صغيرة. وكان أمامنا على الضفة اليمنى جبل التبشه، وعلى الضفة اليسرى قامت كتل ملساء وعمودية من الصخور. لقد كنا فى اجمل مناطق بطن الحجر، وكانت أمامنا مدينة عكاشة وقبة شيخها البيضاء التى تحيط بها أشجار الميموزا، والأراضى الزراعية العامرة. وقد كان هذا المنظر لطفا كبيرا يخفف من قسوة تلك المنطقة الوعرة الميتة. وعند الظهيرة وصلنا نبع اكمى أو أمكى الحار، وهو بجوار قلعة شبه منهدة كانت فى الماضى تحرسه، وحولها ارض مغطاة بطبقة من الملح بيضاء. وكانت درجة حرارة النبع 40 درجة مئوية. لم يكن الماء كثيرا، وكان ابيض وبطعم الكبريت. وبرغم شهرته فى كل أرجاء النوبة بان ماءه يشفى من العلل والأمراض، فهو لا يستخدم إلا قليلا. ويندر أن يستحم فيه مريض، رغم أن النتيجة إيجابية، وهو النبع الوحيد بين الخرطوم والقاهرة الواقع على النيل.

وكان شلال عكاشة على بعد نصف ميل إلى الجنوب من هذا النبع، بلغناه بعد الظهر. وكان مركبنا أول مركب يعبره مباشرة، وكان ريسنا بلال الخبير بالنهر قد كرر محاولة العبور عددا لا يحصى من المرات، وصده التيار فى كل مرة، حتى تمكن أخيرا من تخطى الشلال. ورسونا على الضفة اليمنى. وقد استحم إدريس خادمنا النوبى وارتدى أبهى ملابسه ليقوم بزيارة الضريح، ويصلى المغرب فيه. إن الاعتقاد الشائع هو أن الشيخ الراقد فى عكاشة هو حامى الشلال. ولذا فان البحارة يقدرونه حق قدره، ولا يجرؤ واحد منهم أن يمر بضريحه دون أن يصلى فيه. وقد حذا كل البحارة حذو إدريس، فاغتسلوا وتأنقوا ومضوا إلى الضريح، ولم يبق غير ريسنا العجوز بلال. وقد حمل له البحارة من تراب الضريح للتبرك. وقبل أن يشرع فى مواجهة التيار من جديد ذر هذا التراب فوق سطح مركبه، وصلى. إن إيمان بلال يجد منا كل تقدير. وقد توجه قبل مواصلة الرحلة بالصلاة إلى مولاه كى يقينا شر الرحلة ويسهل علينا. وكان كلما خرج من موقف خطر يركع ويسجد شكرا لله.

ان طهارته وتدينه ليسا مجرد قناع.. بل ينبعان من إيمان راسخ عميق وحقيقى.

التاسع من ديسمبر

كانت الريح ساكنة. وقد خرج البارون، أما أنا فقد رقدت طريح الحمى لأول مرة فى هذه الأقاليم. كنت ارتجف، واهتز بالحمى حينما سمعت صرخة داوية على ظهر السفينة. وتكررت، وأصبحت لا تحتمل. وقد عرفت من خادمنا إدريس أن أحدهم قد تشاحن مع البارون لان الأخير لم يرد العودة إلى السفينة عندما نشطت الريح واستعدوا للسفر. وقد بعثوا إليه المدعو عبد الله. وقد توجست شرا لان عبد الله معروف

بحمقه وسرعة غضبه، وهو امرىء غليظ المعشر. وبعد دقائق معدودات سمعت البارون يصرخ طالبا النجدة، وأبصرته على الشاطئ فى صراع وعراك مع النوبى الذى كان ممسكا ببندقية الصيد يريد انتزاعها عنوة من البارون. فالتقطت غدارتى، وأخذت أصوب، ولكننى لم استطع إطلاق الرصاص خوف إصابة البارون حيث كان المتصارعان يغيران مواقعهما كثيرا. وحين تمكنت من تحديد راس النوبى، سقط على الأرض، كان البارون قد غرس خنجره فى صدره.

وقد عرفت من البارون اصل الحكاية. فقد جاءه عبد الله مزمجرا يسبه ويلعنه ويريد جره بالقوة من الشاطئ إلى السفينة. فلجا البارون إلى سحب بندقية صيده من ظهره ليضربه بكعبها، لكن النوبى قفز عليه واخذ بخناقه وشتمه " يا نصرانى، يا كافر! " وهدده بأنه سيرديه قتيلا بسلاحه الذى شهره. ويمكن أن يتوقع المرء من عبد الله أن يفعل أى شىء. وبذا فان البارون كان يمارس حقه الطبيعى فى الدفاع عن نفسه.

ليس بمقدورى أن أصور الضجة والصراخ والفوضى التى أعقبت هذا الحادث. فالبحارة قد طالبوا بالثار، وتجمعوا وقصدوا الأب ريللو، وقام ذاك الدنىء ليس فقط بالحكم لهم، بل انه حرضهم علينا. أما دون انجيلو طبيب البعثة الإرسالية فقد رأى إمكانية علاج عبد الله، فأمر به وضمده وعزله عن الأخرين. فزاد ذلك من هياج البحارة. وقد أصر الرواسية على أن يتركوا سفينتنا وراءهم، وان يأخذوا العدالة بأيديهم. فأخذنا نتدبر أمر الدفاع عن أنفسنا، فاتخذنا مواقعنا.، وفى اليوم التالى كرروا وعيدهم، فطلبنا منهم أن يقوموا بواجبهم على أن نسلم أنفسنا للقضاء عندما نبلغ دنقلا. وأكدنا لهم محذرين أننا سنطلق النار على كل من يقترب من مركبنا بنية سيئة. فاضطروا إلى الانصياع.

لم يكن جرح عبد الله خطيرا، لكنه كان يمكن أن يكون مميتا لو لم تقف إحدى أضلاعه أمام حدة السكين. وبعد أن تغلب على الحمى التى سببها له الجرح اخذ يتحسن حالا باطراد، وتصافى والبارون الذى وهبه هدية بمثابة التعويض لما لحق به.

وقد حاول الآباء اليسوعيون أن يصوروا الدفاع المشروع عن النفس الذى قام به رفيقى البارون بأنه جريمة، فدافعت عنه بأنه تصرف مثل أى فرد آخر فى موقفه، ولم يكن القتل أو الضرب المميت أمرا شاذا فى هذه المنطقة، وفى مثل تلك الظروف، ولذا لا يمكن للمرء أن يقف مكتوف اليد فى مثل تلك الحال.

وبعد ذلك أصبحت رحلتنا أسرع، إذ دخلنا ارض المحس الخالية من العوائق الصخرية أمام الملاحة. وأخذنا يوما بعد يوم نقترب من العاصمة دنقلا.

وفى الثانى عشر من ديسمبر عكر حادث عارض صفو رحلتنا الطيبة بالمقارنة إلى ما قاسينا من مصاعب فى بطن الحجر، وذلك حين ارتطم ريسنا بآخر كتلة صخرية كان يحسب حساب تفاديها، وقد تحطمت دفة السفينة. ومع أن العطب قد تم إصلاحه إلا أن أثره ظل ملحوظا وخاصة عند ارتفاع الموج ودفعه الماء إلى سطح السفينة.

فى 14 ديسمبر وصل ريسنا بلال موطنه، ودعانا إلى " شربوت " بلح، ثم ودعنا. فتابعنا رحلتنا ونزلنا فى جزيرة أرقو، وهى جزيرة كبيرة معمورة وكثيرة السكان. وكان لها فى الماضى ملك. وقد زارنا صاحب مركبنا الذى يقيم فى أرقو، وأهدانا خروفا أحسنت تربيته، وجرة مليئة بالسمن. وفى اليوم التالى نزلنا دنقلا العرضى بعد سبعة وعشرين يوما قضيناها فى الطريق إليها من وادى حلفا.

وقد بنيت دنقلا العرضى فى موقع قرية اكرومار لتكون مقرا للأتراك الذين غزوا المنطقة منذ وقت ليس بالبعيد [1821]. وكانت أول الأمر بمثابة الحصن. وليس بها ما يلفت النظر. فالحوانيت قليلة السلع، وبها مقاهى وحانات للخمور، وهى مقر المدير التركى.

وفى أول يوم أحد بعد وصولنا، وكان يصادف التاسع عشر من ديسمبر، صلى الأب اليسوعى ريللو بالناس فى الكنيسة القبطية. وكان القداس باللغة العربية. وكانت الكنيسة مليئة بالناس. وقد عاد الأب ريللو ومعه خبز من ذلك الذى يقرب فى الكنيسة القبطية فى صلاة المساء. كان مصنوعا من القمح، طازجا، مستديرا، ارتفاعه بوصة، وقطره ثلاث بوصات، وقد رسم الصليب الخماسى فى صفحته الأعلى، وهو صليب مدينة القدس.

وكان رجال الإرسالية يريدون البقاء فى دنقلا بانتظار رؤسائهم الذين أقعدتهم الدوسنتاريا فى القاهرة. أما نحن فلم يكن هناك ما يشدنا إلى هذا المكان لننتظر كل ذلك الوقت. ولذا ودعناهم ورحلنا على سفينة استأجرناها حتى قرية امبكول الواقعة على مشارف الطريق السالك صحراء البيوضة. وغادرنا دنقلا فى 20 ديسمبر.

إن علاقتنا بالبعثة التبشيرية لم تكن افضل علاقة، ومع ذلك آلمنا فراق أناس جمعتنا بهم عشرة دامت اكثر من ثلاثة اشهر، وشعرنا بأننا مقبلون على وحشة ووحدة بعدهم.

وقد بسط لى الأسقف المزيف بعض النصائح الصحية. أما الأب كنوبليشر فقد حذرنى من بعض الأمور فى الطريق. وتمنى لنا الأب ريللو رحلة طيبة فى شىء من البرود والترفع. وروى دون انجيلو بعض النكات البائخة. ورافقنا الأب موسى، صديقى ومجندى، والبارون س س حتى السفينة. وهكذا فارقناهم فى سلام.

بعد دنقلا ليس بشاطئ النيل الكثير مما يلفت الأنظار. فالخندق ودنقلا العجوز لا أهمية لهما، حتى أن المرء لا يدرى ماذا يقول عنهما. وقد شغلنا أنفسنا فى الطريق الممل بالصيد وتجهيز ما غنمناه منه، حتى اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر، وهو يوم يحرك بالطبع بعض المشاعر فى نفوسنا. كنا جسدا فى أفريقيا، ولكن أفكارنا كانت فى وطننا. وقد حرك المساء مشاعرنا، فقررنا ان نحتفل به كما هى عادتنا فى بلادنا. فقدمنا الهدايا إلى خدمنا، ثم أخرجنا الخمر وشربنا نخب الأحبة فى البعاد. وعندما اكتمل الليل جلسنا تحت السماء الصافية التى تضيئها النجوم، نصغى للأمواج المتكسرة عند مقدم السفينة. وبدأنا فى هدوء رزين الاحتفال بعيد الميلاد.

فى 25 ديسمبر رسونا فى عابدون، وهى قرية غير ذات أهمية، وكنا قد سمعنا انه يمكن عبور شبه الصحراء من هذا الموقع، ونوفر بذلك يومين أو ثلاثة. ودخلنا فى اخذ ورد مع أحد الأعراب الذين زكاهم لنا رئيسنا، والذى وعدنا بتجهيز ثمانية جمال قبل مغيب الشمس مقابل أربعين قرشا لكل جمل، ولكننا انتظرنا أوبته دون طائل. قررنا أن نشكوه للقائمقام. وقد استدعاه، لكنه لم يكن تحت نفوذه، ولذا لم يستطع حياله شيئا. كان تحت إمرة شيخ البدو. وكان شيخ البلد قد رفض أن يعطى عبد الحميد، وهذا هو اسم الأعرابى، جمالا لأنه لم يكن يثق فى انه سيبلغنا الخرطوم. وقد نصحنا القائمقام أن نتصل بعمال الحكومة فقط إن أردنا جمالا فى المستقبل، لأنهم مسؤولون عن سلامة وأمن المسافرين. وقد فهمت موقفه وقدرته.

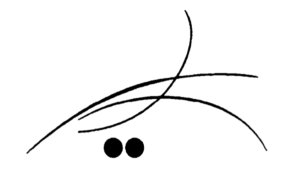
عدنا إلى سفينتنا، واصطدنا تمساحا كان يقيل، ورحلنا فى اليوم التالى إلى امبكول، حيث كان الكاشف وقد ساعدنا كثيرا. وكنا قد حملنا

إليه خطابا من رئيسه موسى بيه، وكان تركيا نشطا، وقد وعد بتنفيذ كل ما طلبنا. وزارنا مساء فى مركبنا، وقدمنا له القهوة أولا، ثم مشروب الروم لان مرافقه القبطى النحيل أكد لنا أن دعواته لاحقة، وقد فك المشروب المسكر عقدة ضيفينا الأتراك. وكان يردد من حين لآخر: " يا سادة.. هذا اسعد أيام عمرى.. " لكن الخاتمة لم تكن سعيدة، فقد سقط من المعبر إلى الشاطئ فى النيل، وجر معه سكرتيره القبطى. أردنا مساعدته، لكنه كان قد سبح إلى اليابسة. ومنها عاد ليؤكد لنا انه لم يسقط، وإنما ذاك القبطى. ونادانا ألا نكترث لشئ. وتمنى لنا ليلة سعيدة.

***

3
الصحراء وحياتها





فـى الصـبـاح الباكـر من يـوم 29 ديسـمـبـر جاء شـيخ الجـمـالين إلى معسكرنا ومعه الخبير وثلاثـة جمالة وثمـانية جمـال. وكان الكاشف قد حصل لنا على هـذه الجمال بـأدنى سعر ممكن قـررته المدينة. وقـد دفعنا فى الجمل الواحد للرحلة من امبكول إلى الخرطوم خمسة وثلاثين قرشا، وسلمناهم ثلث المبلغ هنا واتفقنا فى العقد على دفع الباقى لدى وصولنا سالمين آمنين إلى الخرطوم، ونسلمه لأحد الجمالة.

وبينما الجمال تستغل آخر فرصة للراحة متاحة لها وتقطف من أوراق الميموزا، كان الجمالة يقومون بالترتيبات الضرورية لعبور الصحراء. اخذوا السعون أو القرب وطرّوها ونظفوها وملأوها ماء، واختاروا من الأمتعة ما يتقارب وزنا، وربطوه بالحبال المفتولة من جريد النخل التى لفت حول الصناديق بطول قدم ونصف، وعقدت من اسفل لتنتهى بطريقة تسمح بحلها متى شاء المرء. ومع أن المهمة سهلة جدا إلا أنها تخلق قدرا من الضجة والجلبة، إذ أن كل جمال يحاول التخفيف عن جمله، فيختار أخف الحمل، وبذا يدخل فى لغط وجدال مع الآخرين، مزعجا بذلك المسافرين بصراخه وسلوكه الفارغ. وبعد ما تتحرك القافلة يهدأ كل شىء لأن كل واحد منهم يتحمل ما قسم له من حمل دون أى

تذمر، ولكنه لا يتحرك قط أثناء الطريق ليزيد قطعة واحدة إلى حمولته. وحتى الجمال الذى تحمل جماله مواعين الماء لا يقوم إلا مكرها بحمل شىء جديد على الرغم من أن حمولته من الماء تقل بالضرورة من يوم لآخر. وبالطبع تكون اثقل الأحمال فى البداية على جمل الماء، لأن القربتين المليئتين ماء حمل ثقيل حقا.

وفى شمال شرق أفريقيا يفرق المرء بين نوعين من مواعين الماء، يسمى أحدهما [الرى] أو الراوية، وهى ماعون كبير يسع أربعة أضعاف سعة القربة الصغيرة، وتصنع من جلد البقر، أما القربة الصغيرة فهى من جلد الماعز وتطلى بالقار، القطران، لتقويتها، ويستخلص القطران من بذور الحنظل. ويضفى القطران على الماء رائحة وطعما كريهين وشيئا من خصائص الحنظل كما أظن، لان الماء المخزون بهذه السعون يصبح غير سائغ للشرب بعد أيام قليلة، ويصيب شاربه بالمغص، ويحرك فيه الغثيان. إن خير ما يحفظ الماء صالحا لمدة طويلة هو البراميل الخشبية، ولكنها تتأثر بالحرارة الشديدة وتتصدع إن أسقطها الجمل.

وقد وجدنا أن الصفائح إن تمت تقويتها ووضعت فى صناديق خشبية فى عناية هى افضل ما يحفظ الماء فى الرحلات الصحراوية ومع أن ماءها يظل دائما دافئا نوعا ما، فإنها تحفظه صالحا للشرب لأكثر من أسبوعين، ولا يتأثر بالتبخر الناجم عن هبوب السموم والسخونة بنفس القدر الذى يتبخر به الماء المحمول فى السعون والقرب.

ويحمل كل جمال ماعونا صغيرا محملا بالماء لاستخدامه الشخصى، وهو ما يعرف بالسعن فى السودان، الزمزمية عند العرب. ويصنع السعن من جلد الغنم الصغير، فيربط عند الرقبة والقدمين الأماميتين، ويخاط الجزء الأسفل. وتملأ الزمزمية ليلا وتعلق فى الهواء، فيبرد

ماؤها. وتجلب الزمزميات من اليمن، وتباع فى كل مدن مصر الكبرى بثمن معقول.

ان جمل الشيل المصرى حيوان ضخم، ذو أرجل قصيرة سميكة، وجسد متين. وهو كسول ولا يتحرك للمشى إلا بعد مشقة؛ اما الجمل البشارى فحسن الأعضاء، نحيل لا يتعب، لا يناسبه الحمل الثقيل. فهو لقطع المسافات الطويلة فى سرعة. والجمل المصرى لا يصلح للرحلات الصحراوية، لكنه قادر على حمل أثقال عاتية حتى ان الحكومة المصرية قد أصدرت أمرا بالا يزيد ما يحمل عليه عن سبعمائة رطل فقط. ولكل من الجملين حسناته، لكن البشارى يفضل جمل الشيل.

انه لعذاب حقيقى أن يجد المرء نفسه لأيام على ظهر جمل يمشى خطوة خطوة. فالجمل على العكس من كل الثدييات لا يخطو بالرجل اليمنى الأمامية واليسرى الخلفية وإنما برجلين من جانب واحد. فهو يرفع الرجل الخلفية بمقدار ربع ثانية قبل الرجل الأمامية وبذلك يحدث تأرجحا فى حركة ظهره، مما يضطر الراكب إلى أن يقوم بحركة مماثلة.

وخطوة الجمل لا تزيد عن خطوة رجل نشط، ولذا فان الراكب يقضى اثنتى عشرة ساعة كل يوم فى هذا التأرجح القسرى. لكن هذا ينتفى فى حالة ركوب الهجين. فالجمل البشارى الجيد واسع الخطو، مريح فى حركته، ويمكن للمرء كما تقول العرب أن يتناول فنجان القهوة فوق ظهره دون أن يهتز. وللهجين خصائص أخرى، فهو لا يهيج أو يضطرب، ولا يصدر صوتا عند قيامه أو حين يبرك، ولا حاجة لراكبه إلى استخدام السوط. وعلى المرء أن يقضى الشهور الطويلة مع الجمال ليقف على هذه الخصال. أما عن هيجان الجمل فلا يمكن لأحد أن يقدم فكرة ناجزة.

عندما يرفض الجمل القيام بشئ، يقاسى المرء عذاب السعير ليلجمه. وفى حالة هياجه يخرج زبدا ابيض كالكرة، ويرغى ويعض ويضرب ويعربد كيف شاء. فى هذه الحال يقبض المرء الرسن ويشده بكل قوة ويجذب راس الجمل إلى الوراء حتى يصبح عموديا، ويحاول تهدئته بصوته، ومع ذلك تراه يزداد ثورة وجنونا وهياجا.

وهناك سير رفيع فى انف الجمل يجعله يسكن قليلا إن جذب منه. ويحاول المرء أن يجعله يبرك.. فيبدأ فى الرغو والجنون من جديد، وحين يبرك ويقربه المرء للركوب يعاوده الجنون وتصدر عنه بدل صرخات التذمر صرخات غضب وكأنما قد ركبه الشيطان. وما أن يعتلى المرء سرجه حتى يقفز كعفريت شرير ويجرى بسرعة مذهلة وكأنه فى سباق. وان كان عليه أن يسير فى القافلة وقف واستدار أو اخذ يعدو نحو أشجار السنط بقصد أن يقذف راكبه فى أغزرها وأكثرها شوكا، فان ضرب بالسوط تفجرت المشكلة كلها من جديد.

يا لتعاسة المرء مع مثل هذا الحيوان..

أما الهجين فهو بالمقارنة إليه كالإنسان الراشد بالنسبة إلى العبيط الطائش.

لكن لهذا الحيوان فضائل جمة أيضا، فهو حمول وصبور، يتحمل العطش طويلا، ولذا فهو اكثر الحيوانات الأليفة نفعا فى أفريقيا. وغذاؤه العادى هو الحسك الجاف والقش المجفف، وفى القرى يغذى بالقصب، ولا يعطى الذرة إلا فى الرحلات الصحراوية الشاقة. وهو يستطيب أوراق السنط الناعمة والفروع اللينة بأشواكها، ولو كانت ثلاث أو أربع بوصات طولا. كما يستطيب السلال المضفورة من سعف النخيل.

وبمقدور الجمل أن يظل دون ماء مدة خمسة أيام فى الصيف، وفى الشتاء أو الخريف حيث يكثر العشب الأخضر يبقى لمدة عشرة أيام دون ماء. وعندما يشرب، يخزن قدرا كبيرا من الماء فى جوفه دفعة واحدة. ويروى أن المسافرين فى الصحراء عندما يشتد بهم العطش يشقون بطن الجمل ليشربوا الماء المختزن بجوفه، وقد سالت شيوخا تقدم بهم العمر فى الصحراء عن صحة هذه الرواية الخرافية، فلم يؤكدوا لى شيئا. وعندى انه يستحيل شرب ماء بقى أياما بجوف الحيوان واختلط بمواد غذائية أخرى وبسوائل وإفرازات المعدة. وقد رأيت ذلك فى جمال حديثة الذبح، وكان السائل ذا رائحة كريهة لا تفارقه حتى بعد تصفيته وغليه.

وحتى دون هذه الأسطورة الأخيرة التى ربما نسجت لإسباغ مزيد من الفضائل على الجمل، فان قيمته بما له من خصائص ظاهرة كافية.

والجمال هى الثروة الكبرى لمربيها من البدو، وهى مصدر حياة لكثير من الناس، وفى التجارة والأسفار ونشر الحضارة.

كفت الجمال عن الأنين، واخذ المسافرون مقاعدهم فوق ظهورها، وانتظمت القافلة، وتقدم القائد. وخرجنا من قرية امبكول الواقعة فى طرف الصحراء بالفعل، وودعنا الكاشف الذى لم تدم صداقتنا له طويلا. وقد أصر أن ننزل مرة أخرى إلى ديوانه لندخن غليونا، ثم رافقنا حتى باب داره، وتمنى لنا رحلة موفقة.

وفى حوالى الساعة الواحدة والنصف ظهرا فارقنا آخر بيوت امبكول، ودخلنا الصحراء المحيطة بنا من كل جانب، الممتدة أمامنا. وظلت فى أبصارنا بنايتان مخروطيتان عاليتان هما قبتان لأولياء. وكنا كما قلت من قبل مسافرين باتجاه الجنوب الشرقى فى الصحراء. وبعد المغيب توقفنا، ومددنا السجاجيد فى الرمل الناعم ورقدنا للراحة.

انه الليل. وهواء الصحراء كما هو أبدا صاف ونقى. فوقنا كانت النجوم فى توهجها وصفائها الأبدى. ولم يكن المرء ليسمع صوتا سوى ما تصدره القافل. كان هناك سكون عميق فوق البسيطة الظلماء. وعلى بعد خطوات أضاءت نار صغيرة يتحلقها أبناء النوبة فى شبه عريهم، وهم يغلون عليها خبز الصحراء..بليلة الذرة. وكانت الجمال قد عقلت فى شبه دائرة كبيرة خارج معسكرنا. وكانت عيونها تشع من حين لآخر عاكسة ضوء النار.

ذاك جمال المعسكر فى الصحراء. ولكن من يقدر على وصف الصحراء ليلا ، ذلك الجمال اللامتناهى. من يقدر على تمثله وتقليده ان لم يخبره بنفسه. ما أحلى برودة الليل بعد حرارة نهار شاق ومجهد.

لا تصنف البيوضة تحت باب الصحراء الحقيقية. ففى وقت الأمطار تصلها السحب الرعدية التى تتجمع مياهها فى خيران موسمية تحيى فى بعض الأماكن حياة نباتية نشطة. فالأماكن المرتفعة فى شبه الصحراء هذه هى وحدها التى تبقى بلا نبات، والى الجنوب تندغم تدريجيا فى ما يعرف بالسافانا، والتى يسميها العرب (الخلا)، لكنها فى حدودها الشمالية لا تحمل حياة نباتية، ولا اثر بها لحيوان. وهناك نجد الصورة المألوفة عن الصحراء فى بعض المواضع مثل كثبان الرمال، والصخور والمنخفضات الحارقة، وكتل الحجارة الملتمعة. وفى الوديان فقط تبرز بعض الحشائش المفردة التى لا يتحرك تحتها شئ حى. وبعد مسيرة أميال كثيرة قد يمر المسافر ببركة يغلب أن يكون ماؤها مرا لا يشرب.

حمراء كالدم كانت شمس الصباح فى الأفق الصحراوى، ثم توهجت بارقة بعد حين. وفى فترة وجيزة أضحت محرقة للمسافر. وهنا دارت الأعين بحثا عن ظل بارد، لكنها لم تقع فى كل الاتجاهات إلا على الرمال.

كان الرمل المحرق يعكس شعلة الشمس الملتهبة، وليس من صخرة أو سقف ليقى الجسد المنهد، ويمنحه البرد لحظات. لقد سكت حادى الجمال عن الغناء من زمن بعيد، والجو يرتجف بالحرارة المتزايدة ويرسم للعين بحيرات متماوجة - بحر الآل - وصورا جهنمية مخادعة. وتمتد عبر السماء الرمادية ريح متوهجة مستعرة تخشى القافلة أن تضفى عليها اسمها الجهنمي، وهى تثير الغبار وتهدد سعون الماء بالجفاف، تلك التى عليها أن تبلل الحلوق الظامئات بقطرات الحياة. إن الشجاعة تغيض عن المرء ويبقى إيمانه وحده يحميه من اليأس.

إن ما يجعل الصحراء صحراء هو خلوها من المخلوقات الحية والنبات والأشجار، وتتغير علاقاتها الجيولوجية فى تبادل مع بعضها الآخر. فهى فى مساحات شاسعة بحر من الحجارة به جبال وشعاب وأودية صخرية عميقة خالية من أى مكان مؤنس أو أى مظهر للحياة؛ وهناك كتل من الصخور الأسوانية، وهى صخور بركانية خشنة الحبيبات - السوداء اللامعة، والصخور الرملية الرمادية التى تتراكم فوق بعضها البعض، وترتفع عمودية مخروطية القمم، أو تتألف فى سلاسل جبلية وتلال. هذه الحجارة غنية بالحديد، لكنها فقيرة فى المعادن الأخرى، ويؤكد انعدام الفحم بها أن الحياة النباتية لم تقم بها على الإطلاق.

وهى فى مواضع أخرى مسطحة تماما، وبها رمال ناعمة ذات لون اصفر فاتح، تنغرز فيها القدم حتى الكاحل. وتجمع الريح هذا الرمل فى أماكن متفرقة أو تفرقه وتموجه. وفى الأماكن الجبلية يرتفع هذا الرمل مع الرياح عاليا ويحط فى الجانب الآخر من الجبل، ويتكوم بانيا على الجانبين كالسقف كثبانا تلتمع صفراء كالذهب تحت الشمس.

وفى الوديـان العميقة وبعض المواقع المنـاسبة يوجد الماء الذى يبطل حـياة الرمـال، وهـناك تـرقـد الآبار الـتى تـتشـوق إلـيهـا الـقوافل. وهـى محـفـورة أو طبـيعـية تـشبه الـسراديـب والأنفـاق، يتـجمع عـندهـا ندى الحياة الـذى يسقط من الحيطـان حبيبات وقطـرات. فإذا كانت البئر فى مـنطـقة الأمـطار الاسـتـوائيـة، فإنـها تـمتـلئ بماء صـالح لـلشرب. وفى أطـراف البئـر تقـوم بعض أشجـار الـنخيل أو الدوم وشـجيـرات السنط القصيرة المحـدودبة التى يضرب بعض البدو خيـامهم تحتها. وقد تمتد أشـجـار الـسنـط على طـول الـوادى حـسب قـدرته عـلى تغـذيـة الـنبات وإعاشـته. ويصاب المسافرون أحـيانا بخيبة مرة حين تبدو لـلعين بقعة مغـطاة بنبات ذى أوراق خـضـراء داكنة، فتهـلل القافلة، وحـين تبلغها لا تجد بها غير نبات السنـا الذى لا يستسيغه بشر أو حيوان، وهو ذو اثر يكاد أن يكون ساما.

وفوق هذه الشواسع التى تـخالها مختلفة تـسطع الشمس طيلة العام، وعـاما بـعد عـام، فهى تبـعث حرارة لا تـطاق مـنذ الـصبـاح إلى المسـاء من سماء صافية لا تعرف الغيوم.

تلك هى الصورة العامة للصحراء..

إن بـحر الرمال سـريع التقـلب، كالمحيط الـذى لا يحد. هنـا أيضـا تدفـع الريح الـرمال مثلما تحرك أمواج البحار، فتـجعلها تتدافع وتعلو كالجبال. وحـين هبـوب الريح الشـمالـية والـريح الشرقـية تـرتفع بـضـع أقدام فوق الكثبان، أما أيـام هبوب الريح الجنوبية والغربية عندما يصبح تيار الهواء مكهربا ترتـفع الرمال عاليا، تغـبر السماء وتتطـاير مسابقة الريح.. وذاك هو سموم الصحراء المخـيف الذى يهابه العرب ولـهم كل حق فى خلـع هذا الاسم الرهيب عليه فهو مصدر رعب المسافرين.

وتشبه الصحراء البحر فى وجه آخر، فكما أن الزوبعة أو الريح الدوامة فى البحر تشد السحب وتجذب المؤشرات العائمة ثم تلقى به فى مكان آخر، مما يضلل الملاحين، فان المسافر فى الصحراء يرى الرمال وهى ترتفع كأعمدة متينة تتحرك فى بطء أحيانا، وبسرعة جنونية حينا آخر. ويقف المسافر يملؤه خوف وعجب يعقد لسانه وان كان يحاول أن ينطلق معبرا عن إعجابه بصوت عال. وتغير هذه الأعمدة الرملية شكلها ومنظرها، وتجمح فى المكان فى سرعة لا يباريها أسرع الخيل. وتضفى عليه الشمس بريق السنة النيران التى تدور حول نفسها، وتنفلق ثم تجتمع، وتضعف ثم تقوى. فإذا ما خفت وترسبت فوق كثبان الرمال دون أن تؤذى المسافر، فعليه إلا يفرح وينطلق مع الأمل، فالسموم عادة ما يعقب أعمدة الرمال.

إن ابن الصحراء يحس باقتراب السموم ويهجس مقدمه قبل أيام من هبوب هذه الريح التى تنذره بآثار قاتلة. والغريب الذى تصبح له هذه الأرض دارا يتعلم بعد حين التنبؤ بهذه الظاهرة.

إن حرارة الجو ترتفع بشكل غير محتمل، ويصبح الجو خانقا كاتما للأنفاس، ومتوترا كذلك الذى يسبق زوبعة رعدية، وتلك علامة واضحة للطبيعة الكهربية للريح. ويكتسى الأفق بحمرة أو زرقة خفيفة، ومع ذلك لا تلحظ أى نفحة للريح. لكن الحيوانات تحس بمقدمها، فتهيج، يصيبها الذعر، وتحرن عن السير، فتخرج عن القافلة، وتعبر عن حدسها الخفى هذا بصورة أو أخرى، وتخور قواها فى وقت اقصر مما هو عادة بالسير المتواصل أياما وتتعثر وتسقط بحملها، ولا يمكن إقالتها لمواصلة السير إلا بمجهود كبير.

وفى الليلة السابقة لهبوب العاصفة يزداد الجو رطوبَة وزمتة مريعتين، ويجرى العرق جريا، ولا يقوى المرء إلا بعد مجهود ويقظة

ذهنية صارمة أن يحفظ للجسم نشاطه وحيويته اللازمة. وتسرع القافلة فى سيرها بقدر ما يقوى الحيوان والإنسان على المضى بعد المعاناة السابقة، وبقدر ما يستطيع رائد القافلة تبيانه من ضوء نجم فى السماء لكن هذا الأخير يتلاشى، ويخيم ضباب لا يخترم، سميك وجاف.،. فوق البسيطة.

يمضى الليل، وتطلع الشمس فى مشرقها، لكن المسافر لا يراها: فالضباب الكثيف قد صار أكثف ولا يمكن رؤية شئ وراءه، ويتخذ الهواء لونا رماديا حالكا. ويغشى المكان شىء كالغسق. وتتعذر الرؤية لأكثر من مائة قدم. لكن الوقت كان نهارا، كان ظهرا. وهنا نشطت ريح خفيفة متوقدة من الجنوب أو الجنوب الغربى، وتبعتها دفقات اشد قوة، متقطعة، منفردة. ثم زمجرت الريح، وأصبحت عاصفة هوجاء. وارتفعت الرمال ودارت إعصارا، وغطت الجو السحب الكثيفة الداكنة.

ويمكن لهذه العاصفة أن تقتلع الراكب الذى يقاوم من سرجه. لكن الجمال تتوقف عن السير، ترفضه. ولا بد للقافلة من أن تعسكر. وترقد الجمال ورقابها ممدودة مسطحة على الأرض، تئن وتزفر ويسمع لها فى خوفها تنفس مرهق وغير منتظم. ويسرع العرب إلى رفع مواعين الماء ووضعها فى كوم على الجانب المستور من الريح بالجمال حتى يمكن الحد من تبخرها السريع بالتقليل من المساحة السطحية المعرضة للهواء. ويشدون ما عليهم من ثياب، ويتكومون وراء صناديق الأمتعة اتقاء واحتماء.

وترقد القافلة ساكنة سكون الموت. وتعربد العاصفة وتزمجر وتدوى. وتخلع قوتها ألواح الصناديق، ويسد الغبار أى فجوة، ويخترق الملابس ليعذب مرتديها. ويصاب الكل بآلام الصداع الحاد ويصبح

التنفس مسالة شاقة، فالصدر يصعد والرأس يتصبب عرقا، لكن هذه الرطوبة لا تبقى على الملابس، فالجو المحرق يلعقها فى نهم شديد، وان بقيت مواعين الماء مكشوفة للريح فإنها سرعان ما يغيض ماؤها وتجف وتصبح قابلة للكسر. والويل للمسافر المسكين فى الصحراء إن دام السموم طويلا. فهو مهلكه.

فالسموم الذى يدوم طويلا اشد إنهاكا للمسافر والحيوان من كل مصاعب الرحلة الصحراوية. وهو يتفنن فى تعذيب المسافرين. فالشفاه تتشقق إذ يمتص الهواء الحار كل رطوبة، والألسن تتيبس فى الحلوق، وتبعث الأفواه روائح كريهة، ويصيب الخدر كل أعضاء الجسم. ويعانى الإنسان ظمأ لا يحد، يتبعه آكلان وحريق فى كل جسمه، ويصبح الجلد قابلا للكسر. ويندس الغبار الناعم فى كل صدع. ويصاب بعض المسافرين بالجنون والهلوسة ويغمى على أخرين. تهدا العاصفة؛ لكن بعض الرجال لا ينهضون: فقد انفلقت أدمغتهم وماتوا.

وتكون تلك آخر رحلة لبعض جمال القافلة.

وليس الوضع بأفضل للأحياء! فالعطش سيميتهم ولكن فى بطء وعذاب، بعد أن هلك الحيوان ولم يعد فى المواعين ماء. ومن يحاول أن يمشى راجلا تصيبه الرمال الحارقة بأشد الحروق إيلاما. ويصبح لكل امرئ ما يشغله تماما عن العناية بالمرضى. إن عقد النظام قد انفرط. ويسرع الجمالة فى البحث عن جمال تقوى على السير ليهربوا بها. وان تم ذلك فهو بمثابة حكم الإعدام على القافلة كلها. ويجب لذلك منعهم.

ويلقى بالعفش أرضا، ولا يحمل شىء غير الماء. وفى احسن الظروف يمكن أن يجد كل مسافر جملا يركبه. ويهرع الكل صوب النهر أو البئر التالية. ولا ينجح الجميع فى ذلك: يتخلف جمل ويتعثر، ويبقى راكبه

مهجورا فى البيداء ينتف شعر لحيته ويلعن قدره وحظه، إذ ليس من سبيل لمساعدته، وقد غاض ماؤه، فلا يبقى أمامه سوى الموت عطشا.

وها هو بحر الشيطان منبسط أمامه. ويرى الظامئ أروع الصور: بيوت يحيط بها الماء، وغابات نخيل على ضفة البحيرة، وانهار بها سفائن مشرعة! انه يرى كل ما له ارتباط وعلاقة بالماء، فالخيال والوهم يعللان الذهن المضطرب بأكثر الصور الخادعة المؤنسة. وعندما يرسم الآل بحيرته الهوائية فى الأرض المنبسطة، فانه يسهل على الخيال النشط اختلاق ما يبدو حقيقيا من أشجار وبيوت وأناس تهش له.

وتبقى جثته فى العراء، وتجف كالمومياء حتى مجىء قافلة أخرى، تهيل عليها التراب، ولكن سرعان ما تعريها الريح. وفى كل طريق للقوافل يرى المسافر هياكل عظمية لضحايا من الإنسان والحيوان. وغالبا ما يكون أحد الأعضاء بارزا من الرمال. فيقرأ المسافر الفاتحة على أرواح أصحابها.

ذاك حظ من دفنته الرمال فى الصحراء.

وأستطيع من تجربتى الشخصية أن أؤكد الصور التى تتراءى للمرء فى بحر الآل ـ السراب. لقد رأيت السراب فى أيام الصيف القائظ فى الخرطوم اكثر من مائة مرة، ولكن مرة واحدة فقط أرتنى صوره الوهمية الخلابة. وكان الماء قد نفد منا قبل يوم تقريبا، ولم نكن قد طعمنا شيئا لأكثر من ثمانى عشرة ساعة، وقد استبد بنا الجوع والعطش، فتوجهنا صوب النيل. وفجأة قلت للدليل: « انظر! لقد ظهر أخيرا. إننى ابصر قرية كبيرة ونخلا كثيرا. أسرع! أسرع بنا إلى هناك، حيث الماء. أسرع!».

فأجابنى: «النيل ما زال بعيدا. وما تراه هو بحر السراب. بحر الشيطان».

وقد تكررت هذه الظاهرة نفسها مرات ومرات. لقد كانت من خداع الذهن المكدود. وفى النهاية رأينا كلنا تلك الصور الخلابة التى ينسجها الخيال والوهم. لكنها كانت تعبيرا وتجسيدا لرغبات المعدة الخاوية واللسان العطش. إن كل الأحاسيس والمشاعر تتركز فى أمر واحد حين يظمأ المرء. الماء. وما خلا هذه الكلمة لا يبقى شئ.

وعلى المرء لإدراك السرعة التى تتجه بها قافلة حتى فى نشاطها فى الصحراء إلى النهر أن يكون قد خبر عذابات العطش وان يكون قد اشرف على الموت ظمأ ليصدق الصور التى يرسمها السراب. وعندما يجف ندى الحياة فى الصحراء، فان الخيال والوهم يصوران اجمل وأحب الصور أمام عينى المسافر العطشان. أما عندما يكون المرء سليما معافى ولا حاجة به لشيء فان هذه الصور تختفى ويبقى الواقع وحده.

فى الثلاثين من ديسمبر وحوالى أربعين دقيقة بعد شروق الشمس ركبنا جمالنا باتجاه جبلين أسودين شامخين. وكان الخبير يقود القافلة فى ثقة مذهلة وفى دقة باتجاه الجنوب الشرقى خلال المعالم التى تقدمها له الصحراء. وعند الظهيرة عسكرنا تحت ظل شجرة ميموزا عجفاء، ننتظر جمال الشيل التى تركناها وراءنا ونحن نسرع. فأوقد الخبير نارا وجهز قهوة. وقد ظهر لنا غراب الصحراء واقترب منا، وقد عظمناه لان الخبير كان يريده طعاما. فقتله، ورمى به فى النار دون أن ينزع رياشه. فاحترق الريش، وتركه قليلا على الجمر ثم اخذ يلتهمه فى شهية طيبة.

جف ماء الزمزميات، وامضنى العطش. وكنت انتظر الجمال المحملة بالماء بفارغ الصبر. فهرعت مندفعا إليها عندما ظهرت. وقد أنعشتنى الجرعة الكبيرة. لكننى أصبت فيما بعد بآلام حادة، فقد أصابنى الماء بالغثيان ثم بآلام حادة فى جسدى، حتى كدت افقد رشدى. وقد أبعدت

بصرى عن الجمل بعيون دامعة، وقاسيت فى المساء اشد الآلام. وفكرت أخيرا بأنه كان من الأفضل لى أن أتحمل العطش القاسى بدلا من شرب مثل ذاك الماء.

هناك بئر واحدة فى وسط صحراء البيوضة هى بئر البيوضة. وقد أكد لنا الدليل أننا بالغوها فى مساء اليوم التالى، حيث ينعشنا ماؤها الذى ننتظره فى حنين طاغ، وكان الماء الذى بمواعيننا قد أسن حتى لم تعد معالجته بالخل أو الخمر او أى نوع آخر من الكحول مجدية. وقد ترك طعمه الكريه فى القهوة. ولذا أسرعنا وسع طاقتنا نحو البئر. وكان الطريق يبدو لانهائيا أمام الجمال المتعبة. وقلنا عند خور كنا قد سرنا فيه منذ أمس، ثم ركبنا منه مسرعين نحو إحدى سلاسل التلال التى تحيط بالبئر.

بلغنا البئر عند المغيب. وكانت ممتلئة ماء حتى حافتها، ورأينا الماء مغطى بالزبد والوسخ. وقد جلب لنا أحد البدو ماء فى ماعون بعد آن نفى منه ما خلفه قطيع من الماعز كان قد أطفأ ظمأه هناك أيضا. وعلى الرغم من ذلك يخيل لى أننا لم نشرب فى حياتنا ماء أقيم من ذلك الماء.

وبعد حين جاءنا لبن ماعز فاستمتعنا به كثيرا. والآن وبهذا الماء واللبن صرنا أغنياء بعد أن كنا أفقر ما نكون لضرورات الحياة قبل وصولنا هذه البئر. وفى هدوء وجدية صارمة دخلنا العام الجديد.

كانت شمس اليوم الأول من عام 1848 شمسا حارقة منذ شروقها، وكنا قد صحونا قبل طلوعها وتبادلنا الأمنيات الطيبة بالعام الجديد وبعثنا تحايانا الى أهلنا فى دارنا البعيدة الباردة. ثم انتظمنا فى القافلة وانطلقنا على ظهور المطى.

قضينا القيلولة تحت ما ضربنا من أقمشة فوق حراب أربع غرست فى الأرض. وتركنا جمال الشيل تتقدمنا. وفى الثالثة بعد الظهر تابعنا

المسير، فلحقنا جمال الشيل بجمالنا الهجين سريعة الخطو. ويبدو أننا لم نكن على الطريق الصحيح، إذ ان الدليل كان قلقا، وصار يبحث عن تل يستبين منه مسارنا، لكنه سلم أخيرا بأنه هو الذى أخطأ. وما كان ذلك بالوضع الطيب، اذ كنا منقطعين عن جمال الشيل دون ماء أو زاد. وخبطنا فى الصحراء، تراودنا أفكار مخيفة، ترسم لنا مستقبلا مظلما، وهنا وقعت البوصلة بالصدفة فى يدى، فأريناها البدوى والذى لم يكن اقل استغرابا وعجبا منا. وغيرنا بها رغم كل معارضة من المرشد اتجاهنا السابق، وبعد ساعة ونصف من الركوب اكتشفت عين ابن الصحراء الحاذقة مخلوقات حية، قربناها بالمنظار المكبر وكانت جمالا، لحقنا بها بعد ساعة، وكانت جمالنا. وهنا هز الدليل رأسه عجبا وقال لرفاقه: " والله شغل الإفرنج دا عجيب. " !

مضى اليوم التالى دون أمر يذكر. وارانا الخبير موضعا كان البدو قد داهموا فيه ونهبوا وقتلوا تاجرا تركيا، لكنه وضح لنا فى نفس الوقت ان مثل ذاك ما عاد يحدث لان حكومة البلاد قد عقدت اتفاقا مع كل القبائل البارزة من اجل سلامة وامن طريق القوافل، وعليه فانه يجرى راتب سنوى على رؤساء القبائل ما داموا لا يقومون بغاراتهم المشهورة على القوافل.

واخيرا دخلنا شبه الصحراء، واغتبطنا بمشاهدة حياة الحيوان النشطة.

الثالث من يناير 1848

كان البحث عن جمل شرد ليلا قد عطل رحيلنا صباحا. ولم نركب للسفر الا بعد ساعات من طلوع الشمس وقد وجدنا العشب فى الطريق، وغابات من الشجيرات عامرة بالطيور. وقد حركت الطيور المدارية وقطعان الغزلان والارانب شهوتنا للصيد، فكان لنا فى كل مكان وقفة. وعند

الظهيرة سمعنا صراخ اطفال، وقابلنا عائلة بدوية راحلة. جاءتنا عجوز فى خطى متعثرة وطلبت منا بحق الرسول ماء للشرب، فاذنا لها باخذ ما تريد من ماء. فدعت لنا بالبركة، وعرفنا منها انها وزوجها قد قدما بحثا عن الماء، لكن البئر كانت بلا ماء. ومرت بهم ثلاثة ايام بلا ماء، عاش فيها الاطفال على لبن الماعز. وبعد حين جاء البدوى، وعب من ماء القرب الكريه.

بعد ركوب لم يطل نصبنا مصيدتين وفى نهاية الصيد شعرنا بالالم فى كل اجزاء الجسم اذ ان الشوك الناعم لنباتات شبه الصحراء اخترم ملابسنا وعلق فى جلودنا. خلعنا ملابسنا وانشغلنا بنزع ما نرى من شوك الحسكنيت العالق بها. وكان الصيد قد كلفنا وقتا كبيرا، وأخرنا. وكان علينا ان نعجل بالرحيل ان اردنا بلوغ النيل فى نفس اليوم. ركبنا. وخيل الينا ان عظامنا تئن. ومن خيمة بدوية اخرى ابتعنا لبن ماعز رطبنا به اشداقنا، ومضينا مسرعين. واخذنا نلحظ اننا مقتربون من موضع سكنى وعمران. كانت هناك حقول مزروعة هى مزارع قرية الادر التى كنا نقصدها. وقد دلنا عليها جبل الرويان الذى يتمدد حتى ضفة النيل. كنا نؤمل ان نرى النهر كلما صعدنا تلا، لكننا كنا نخفق. وكان الجبل يبدو وكانه يبعد عنا كثيرا. وكانت ارض شبه الصحراء المعشبة تتمدد أمامنا على مدى البصر، وقد انستنا رغبتنا فى الماء النقى كل تعبنا ومصاعب الركوب. فاسرعنا باقصى ما تتحمله الجمال المجهدة، وبلغنا القرية ليلا.

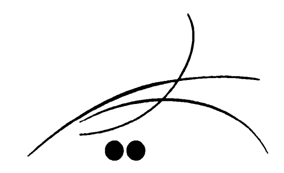
كان انين السواقى النيلية مثل موسيقى سماوية فى آذاننا، وبدا لنا الخبز المصنوع من الذرة اشهى ما يمكن اكله فى العالم. وقد زاد متعتنا اننا شربنا الماء النقى الطازج، ورقدنا فى اسرة ناعمة فى بر السلامة والراحة. فنمنا الليل كله كافضل ما يكون.

***

4

فى بلاد السودان





صحونا على اول اشعة للشمس آتية من خلف جبل الرويان، وقد نسينا الرحلة الشاقة عبر الصحراء. اخذنا اسلحتنا لنخرج للصيد. ولكن ما كان يحيط بالموضع الذى قضينا به الليل فيه الكثير الجديد الذى يشد النظر.

هنا تقوم القرى بمساكنها السودانية الاصيلة، وهى القطاطى المبتناة من القش، المخروطية الشكل، وتسمى التكل ايضا. وسأحاول ان اعرف القارئ فى البداية بهذه الاكواخ.

ان بناءها يستغرق بضعة ايام، ولكن يمكن حرقها فى دقائق معدودات. والاجزاء الثابتة فى جدارها وسقفها هى اعواد من شجر الميموزا ـ السنط ـ وقد كسيت بقصب الذرة او الدخن او قش الخلاء.

ويشارك كل رجال القرية فى عملية البناء؛ فالبعض يخرج لجلب الشعب والعيدان الطويلة المستقيمة من غابات السنط والسدر، ويقوم آخرون بتثبيت الشعب القائمة فى حفر على مسافات معينة فى دائرة مرسومة، ويشدونها باستخدام اطواق من جريد النخل الطويل المرن، ويقوم فريق ثالث بتجهيز السقف المخروطى الشكل، دون استخدام اى طوق او مشد حديدى، او حتى مسامير خشبية. وتربط ستة او ثمانية

اعواد طويلة مرنة، توضع فى دائرة الشعب الراكزة، وتشد، ثم تربط اليها ثمانية اعمدة مستقيمة وقوية ومتساوية الاطوال هى كمرات السقف، وتجمع عند نقطة واحدة فى القمة معقودة باغصان لينة، ثم تصنع اطواق تبعد ثلاثة اقدام عن بعضها الآخر، تشد بها الكمرات، وتدفع الى اسفل ليستحكم شد الكمرات. وبذا ينتج نوع من الهيكل المتين، يرفع ويوضع على الشعب الراكزة، ويربط بقوة. ثم يغطى هذا الهيكل بالقش، ويكسى سميكا.

وللتكل (الكوخ) باب واحد منخفض، مما يضفى ظلمة ساحرة فى داخله على الدوام. وعند هبوب الرياح العاصفة يتجمع الغبار بشكل لا يحتمل داخل الكوخ، وتصبح الاقامة فيه صعبة. ولكن مزايا القطية او التكل تظهر فى الخريف، فهى افضل من منازل شرق السودان لأن المطر لا يخترقها.

وعادة ما يقام امام باب القطية مبنى آخر يسمى راكوبة، وهو مستطيل الشكل، تطحن فيه النسوة الحبوب، ويقمن فيه بالواجبات المنزلية الاخرى. والاسر الفقيرة لا تملك سوى القطية، ولكن ميسورى الحال يبتنون اكثر من قطية ويقيمون حوشا مزروبا عن مساكن جيرانهم. وتقوم الزريبة بحماية المنازل من الجمال التى بمقدورها ان تلتهم قش القطية من عل الى اسفل وحتى هيكلها الخشبى، كما تحميها من الحيوانات الوحشية. وفى الاماكن التى يخشى فيها خطر الحيوانات الليلية من الوحوش تبنى الزريبة عالية سميكة وقوية، وتصبح بذلك جدارا لا يخترق.

وقد تطور التكل على يد الاتراك المقيمين بالسودان، اذ رفعوا حيطانه الى ستة او ثمانية اقدام، وبنوها من اللبن، كما فتحوا كوى فى بعضها. اما السقف فقد تركوه كما هو لمتانته، وبشكله الذى لا يحبس الماء.

واتقاء لخطر النار والحرائق، فإن قرية القطاطى تبنى على تباعد بين المنازل، وهى لا تلفت النظر اليها، ولا ترتفع قمم اعشاشها المنخفضة ان نظر اليها من بعيد الا بمقدار ضئيل عن الحشائش المتموجة التى تعمر شرق السودان. وعلى المرء ان يقترب منها ليتبين انها محل سكنى بشرية.

وبالمقارنة، فان قرى القطاطى فى غابات الاستوائية جميلة ساحرة، اذ تقوم القطاطى تحت الاشجار الظليلة، وتحتضن اشجار الميموزا المزهرة سقوفها المتموجة، وترتفع المتسلقات المزهرة الى شجرة الحراز، وتضفر البناء كله باوراقها، كما ان اشجار النبق [السدر] تطرح ثمارها فوقها، وتحت ظل الشجرة يلعب صبية القرية السود او السمر، وفى تاج القطية او الشجرة تبنى طيور السمبر اعشاشها. وقد حفظ الناس لهذا الطير الذى يحب رفقة البشر ثقته هذه، فاسموه طير البركة، وصاروا يحمونه من اى ازعاج خارجي.

ان صورة القرية السودانية لا تكتمل دون اعشاش هذه الطيور. ويوجد فى كل قطية عنقريب واحد على الاقل، وهو نوع من السرر باربعة او ستة ارجل ترتفع حوالى قدمين عن الارض، هيكله من الخشب، ومنسوج بالجلد، والجلد لين، أو بالحبال. ويمكن شد هذه الحبال او الجلد متى وكيف شاء المرء.

ولأن هواء الليل يمكن ان يهب من تحت العنقريب من خلال الحبال المضفورة، فان النوم فيه طيب للغاية. وهو لارتفاعه عن الارض يحمى النائم من هوام الليل وحشراته وديدانه. وقد جمع العنقريب خصائص تؤهله ليكون سرير النوم المناسب لكل البلدان، وهو فى شرق السودان سرير كوخ الفقير وسرير بيت الاوروبى والوجيه على السواء.

4 يناير 1848

واصلنا السفر، وفى طريقنا كنا نقابل من وقت لآخر رجال بلاد السودان راكبين حمرا رديئة السرج، وحاملين دون استثناء الا فيما ندر سلاحهم التقليدى - الحربة الطويلة ذات المشفرين، وهى من الحديد.

قضينا وقت القيلولة فى قرية السروراب، وكانت بها تلك الايام فرقة غير نظامية من سلاح الفرسان التركى. وقد شدنى اللون الابيض للجنود الاتراك واطفالهم بعد ان اعتدت اللون الاسمر للنوبيين.

والسروراب فى رأى الجغرافيين الاوروبيين هى آخر قرى النوبة. اما السودان فيبدأ من قرية كررى، والتى قضينا الليل بها. وكان بها انذاك سليمان كاشف مديرا لاكبر مقاطعات الحكومة فى الباشوية. وكان مقدرا ومعتبرا فى عين الاهالى والاتراك على السواء. وقد مات عام 1849 ? واشتهر سليمان هذا فى ألمانيا عن طريق كتاب فيرنير الذى يصف فيه الحملة الثالثة لاكتشاف النيل الابيض، والتى كان قد اعدها محمد على باشا.

6 يناير 1848

سرنا ليلا، وبعد ثلاث ساعات شققنا فيها طريقنا وسط غابات السنط وصلنا الضفة اليسرى للنيل الابيض وقت شروق الشمس. وبالقرب من قرية امدرمان الصغيرة وجدنا مركبا لعبور النيل، وضربنا خيمتنا بالقرب من مكان رسوها على ضفة النهر.

وعلى مقربة من المكان الذى عسكرنا فيه حيث تقوم محارق جير صغيرة، يلتقى النيلان الابيض والازرق. وقد كان ماء النيل الازرق فى هذا الوقت صافيا، اما ماء النيل الابيض فقد كان عكرا. وكانت ضفاف

النهرين مزروعة. وكانت خيمتنا وسط مرج اخضر غذاه النيل بالطمى ايام الفيضان. وكانت قطعان البقر والماعز والاغنام والخيول والحمير والجمال ترعى مختلطة، مما يضفى لونا جميلا من التنوع. وقد كانت الحياة زاخرة على الضفتين: فالاوز والسمبر والرهو تقف على الشاطئ، والبجع يصطاد فى وسط النهر. وفى احدى الجزر ابصرت اول طائر "اب منجل" رأيته. وكانت مدينة الخرطوم ترقد امامنا على مبعدة نصف ميل او اقل.

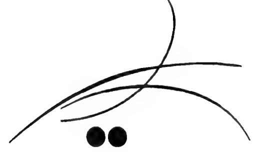
وفى اليوم التالى وضعت العفش فى المركب وودعت رفاقى، رفاق دربى السمر، وتوجهت الى المدينة على جمال مستاجرة.

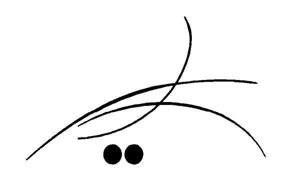
وقد وجدت البارون فى رفقة احد الاوروبيين يحاول استئجار منزل صغير. وقد استاجر منزلا من ابراهيم اسكندرانى، وهو منزل حسن جدا، ايجاره الشهرى عشرون قرشا. وكان العقد مرضيا للطرفين. نزلنا فيه، واستقبلنا افواج الاوروبيين المقيمين هنا.

وفى التاسع من يناير توجهنا لزيارة محافظ الخرطوم، سليمان باشا، الذى احسن استقبالنا، وعرض على البارون ان يستعين به فى اى وقت، واكد لنا مقدما تلبية كل رغباتنا.

***

5
الخرطوم وسكانها





يبدأ تاريخ السودان فى زماننا؛ اما ما حدث فى الماضى، فقد طمسته دماء آلاف القتلى من ضحايا الطمع والثار لمن ماتوا، وتبقى الايام السعيدة الغابرة فى الذاكرة مثل خيط ذهبى فى بحر من الدماء، ايام كان حكم الملوك المحليين من اصل الفونج يظل الناس، وايام كانت جزيرة أرقو فى ارض النوبة تعج بآلاف السواقى، وحيث كان للملك عرش، ويوم كان للشايقية فى بربر والحلفاية ملوك، وكان لاهل سنار والروصيرص وفازوغلى ملوك، ويوم كانت كردفان تحت الحكم العادل لدافور.

تلك ذكرى لم تبق الا عند قليل من الناس. فالتاريخ الذى يعرفه الجميع هو عام 1820 وعام 1821. ان احداث ذاك العام لن تنسى ابدا: المدن التى هجرها اهلها، والحقول القاحلة، والشعب المغلوب على امره ـ كل ذلك يعبر دون كلمات عن الوضع الذى خلفه الغزو التركى المصرى للسودان واخضاع شعبه.

بعد مذبحة المماليك استطاع محمد على ان يؤسس نفسه من جديد، ويؤمن حكمه. لكن السلام لم يعم. كان قادة المماليك قد سقطوا او قتلوا فى خسة، ولكن ذلك الشعب الشجاع المقاتل لم يفن، فقد انتخبوا لهم من بينهم قادة، ونزحوا جنوبا الى ارض النوبة بنية اقامة دولة جديدة لهم

هناك.وقد لاحقتهم قوات محمد على، فحاصرت حصونهم فى ابريم وسايس وغيرهما، وانزلت بهم الهزائم رغم انهم دافعوا فى بسالة واحتقار للموت، ولم يمكنوا عدوهم الا من جثثهم.

وفى عام 1820 واجه الشايقية فى كورتى القوات المصرية، وتلك ذكرى رهيبة ومهيبة عند كل نوبى. وقد كان النصر للمصريين، وكان الشعب الشايقى الباسل يحارب بالرماح والدروع ضد جيش منظم ومسلح بالاسلحة النارية التى لم تكن معروفة لدى الشايقية. وقد خرج الاطفال والنسوة مع المحاربين، يحمسونهم بالزغاريد، او يصلون ويدعون بالهزيمة المرة لاعدائهم. وكان النسوة يرفعن اطفالهن عاليا، ويناشدن الاباء فى محبة ان يجنبوا فلذات الاكباد والغوالى عار الاسر والعبودية.

بدأت المعركة، فزرعت مدافع المصريين الموت والدمار فى صفوف النوبيين البواسل. ورغم ان النوبة قد وصلوا الى المدافع وعلموا حديدها بسيوفهم ـ تلك العلامات التى يمكن رؤيتها حتى اليوم ـ فإن السلاح النارى لا الشجاعة والبسالة المشهورة هو الذى حسم المعركة وقرر النصر.

وقد اندلعت نار البطولة مرة واحدة فقط من بعد، فقاوم الشعب النبيل للمرة الاخيرة. وكان الملك الجسور المك نمر قد جمع قومه فى شندى، فكان قدر مدينتى شندى والمتمه التوأمين، وهما بجنوب النوبة، ان تشهدا من جديد اسر المنتصر وسياطه.

كان اسماعيل باشا، الابن الاكبر لمحمد على، قد وصل بجيشه وبواخره الكثيرة الى شندى فى اكتوبر عام 1822، وطلب من المك نمر ان يزوده فى ظرف ثلاثة ايام بعدد من العبيد وقدر من المال يفوق كل

تصور وقدرة عند الملك، وانذره بالموت له ولقومه ان لم يوفوا بما طلب. فدفع بهم اليأس الى الشجاعة. ولذا اظهر الملك للباشا كل خضوع، ولاينه حتى جعله يترك حصنه المنيع فى سفنه وينزل عليه ضيفا فى داره المكون من عدد من القطاطى المسورة بزريبة من القصب السميك. وكانت بداخل الزريبة اكوام من القصب برر الملك وجودها بانها علف للجمال.

وقد دعا الملك نمر اسماعيل باشا الى وليمة فى احدى القطاطى ومعه كل كبار قياداته وجلس الباشا وخلصاؤه للطعام. وكانت الطبول ـ الدلاليك ـ تدوى، والشباب يرقصون فى مرح، ويتبارون فى رمى الرماح وتلقيها على دروعهم فى مهارة. وكان الباشا يلقى نظرة من حين لآخر على الراقصين، ويمتع برشاقتهم. وليبرزوا كل مهارتهم كانوا يشتدون حركة وعنفا وكأنهم يتقاتلون فى ضراوة، ومرارة. ويحمى وطيس اللعب، ويقتربون، يلتصقون اكثر فاكثر. وكانت الطبول تدوى بلا انقطاع. وفجاة اخذت تدوى فى كل ارجاء المدينة. وملا الجو هدير يصم الآذان، واجتمع المقاتلون لا ليرموا رماحهم نحو اصدقائهم، وانما على الاتراك داخل الزريبة. وبرزت من كل الجهات نسوة يحملن الشعل ويلقينها على القش وعلى القطية التى بها الباشا. وفى ومضة كانت النار قد اشتعلت فى كل اجزاء البناء، وغطى السماء بحر من اللهب الاحمر.

وانطلقت طبول الحرب تدوى فى المتمة وكل القرى المجاورة، ويتعالى دويها حتى ترد ده المنطقة كل ها، وكان ما قد انشقت الارض عن مناضلى هذا الشعب المستعبد. وكانوا يحملون ما تيسر لهم من سلاح، والنساء واقفات بين الرجال وقد نسين جنسهن؛ كن كاشفات الوجوه والصدور، يأتزرن فقط ما يستر، وقد اخذن ينثرن الرماد والتراب فوق شعورهن، ويطاردن العدو. وكان الاطفال والشيوخ

يحاربون بقوة الرجال. وفى الكوخ حيث الباشا وخمسون من اتباعه، بدأت معركة الفناء؛ فالذى يخرج من الحريق منهم تتلقفه المدى والحراب، والنار لمن بقى بالداخل. وهكذا طهرت شندى والمتمة وحررتا فى ليلة واحدة من العدو.

وقد بقيت بقع الدم الداكنة على جدران ما تبقى من قلعة المتمة الى يومنا هذا ـ 1848ـ شاهدة على احداث ذلك اليوم.

وقد فر عدد ضئيل من جنود اسماعيل باشا الى سفنهم، وحملوا النبأ الى محمد بيه الدفتردار الذى كان وقتها بكردفان. وكان يعرف بالجلاد لقسوته وبطشه. فاسرع الى شندى برجاله وكل قواته مقسما ان يثأر لوليه واقربائه. ورغم ان النوبة قد تسلحوا بكل ما لديهم من عتاد وقوة، الا ان هم لم يكونوا فى موقف يستطيعون به مقاومة قوات محمد بيه النظامية المدربة. فهزموا للمرة الثانية. ولا يمكن لاحد ان يعرف عدد الذين قتلهم هذا الجلاد فى ثورة جنونه وثاره. ويقدر العدد بانه اكثر من نصف سكان ذاك الزمان.

وقد افنى الدفتردار خيرة محاربى النوبة، وقتل كل الشيوخ والنساء والاطفال. ولا يمكن بحال تصوير الفظائع والمجازر التى ارتكبها، والتى فرضت على الشعب الرعب والهلع. وقد روى لى عنها شاهد عيان هو النوبى تومبولدو الذى يقوم على خدمتى الآن وقد كان صغيرا وقت تلك الوقائع والاحداث، لكنه تربى فى دماء اهليه كما قال. وعندما شب، شاب شعر ذقنه وشاربه وجلل الشيب رأسه قبل ان يبلغ العشرين، وذلك بفضل ما شهدته عيناه من دم يسكب.

بعد تلك الموقعة وبحر الدم الذى طال، تم كسر شوكة النوبة واخضاعهم. وقد امحى الشعب الشايقى الذى كان فخورا وشجاعا،

وتفرق، وصارت ديار من قتلوا اطلالا واقفرت شندى والمتمة وامست الحقول يبابا، وغطت رمال الصحراء المزارع، وقد وقع على النوبة ثلاثة اضعاف ما كانوا يعانون من خسف يأملون الفكاك منه. وما زالوا يعانون. ودام الامر سنوات حتى طلع شعب اعتاد على الاحتلال، وصار صابرا على المحتل فى بلاده، وغدا جيلا خدوما اكثر من اهله الاوائل المقاتلين الشجعان، ولكنه ليس بافضل منهم.

وبعد ان اتخم محمد بيه من سفك الدماء ثارا لبنى جلدته، اتجه فورا الى الجنوب. كان الجلابة الذين يجوبون البلاد يعودون بحبيبات الذهب وخواتمه من اعالى النيل الازرق، وبمقادير هائلة من العاج من النيل الابيض. وكانوا يروون ان السودانيات يحلين انوفهن بقطع ذهبية ثقيلة، وان ملك الفونج فى سنار عاصمة ملكه يحتفظ بزريبة كبيرة من سن الفيل بالقرب من قصره، مثلما يروى ذلك عن سلطان دارفور ايضا. وهناك قطعان لا تحد ولا تحصى من الماشية والابقار فى الغابات الاستوائية، ترعى على جنبات النهر، لا يقلقها سوى ملك الغابة:الاسد.

هذه القصص، والتى لم تكن عارية من الصحة، ايقظت شهوة التملك فى الدفتردار المتسلط، فحمل بقواته على تلك الجهات، فخلع ملك الحلفاية وهزم ملك الفونج، وكانت كردفان قد اقصيت عن التبعية لسلطان دارفور، وولى عليها وال قادر على كبح جماح الشعب المنهزم. وهكذا كان بمقدور البيه ان يتحرك كيف شاء.

كانت مملكتا الحلفاية وسنار قد اخضعتا ثم خربتا. وكان الذهب يلمع فى البعيد. وعندما بلغ الروصيرص عرف ان الذهب فى جنوبها، فى قيسان، ولكنه نصح بان الوقت لم يكن مناسبا للزحف الى هناك؛ فالجند قد

بعدوا كثيرا عن مصر، ويجب ان يوفر لهم محطة تنطلق منها الحملات العسكرية وقد وفق فى اختيار ذلك الموقع.

كانت ثمة قرية صغيرة تسمى الخرطوم على ملتقى النيلين الازرق والابيض. وقد اختيرت لتكون عاصمة " مملكة السودان " . وفى سنة 1823 بنيت اول قطاطى للجنود على مسافة قريبة من القرية وعلى ضفة النيل الازرق لجودة مياهه كمياه للشرب. ومن هنا ستخرج فى السنوات المقبلة حملات عديدة. وقد اخضعت بلاد التاكا الواقعة بين البحر الاحمر والنيل الازرق على الحدود الشمالية للحبشة ونهر العطبرة، كما احتلت البلاد فى اعالى النيل الازرق: الروصيرص وفازوغلى وقيسان، ولكن سمح لملوكها ان يحتفظوا اسميا بما لديهم من ممتلكات وألقاب، لان تلك البلاد لم تجلب لمحتليها اى فائدة من قبل.

وتقع الخرطوم على ضفة النيل الازرق مباشرة، لا يفصلها عنه سوى الجنائن هنا وهناك. ويلتقى النيل الازرق بالنيل الابيض عند راس الخرطوم ليكونا نهر النيل، الذى لا يرفده فى رحلته الطويلة الى البحر سوى نهر العطبرة عند بربر المشيرف / المخيرف.

وقبل ان يدخل المرء المدينة يمر بمنطقة ترابية مغطاة بالطحلب والاعشاب النتنة وسد بنى لحماية المدينة من فيضان النهر. وهكذا يدخل المرء المدينة من شارعها الرئيسى الذى يفضى اليه هذا الطريق. هذا الشارع يشق المدينة من الغرب الى الشرق، ويدخل سوقها 0 ويغنى وصف اى شارع فى الخرطوم عن وصف بقية شوارعها، فهى ترابية مغبرة فى زمن الجفاف ومليئة بالحفر وبرك المياه فى موسم الامطار، وتطغى عليها فى كل الاوقات رائحة نتنة وحرارة شديدة فوق تصور اى انسان متحضر. وتؤدى الشوارع كلها تقريبا الى السوق او الى احدى

البنايتين الحكوميتين. وهى ليست بالشوارع العريضة المستقيمة الا فى ما ندر، بل هى بالاحرى ضيقة وملتوية، وليست هناك ميادين عامة فى المدينة، وان وجدت فهى غير ذات جدوى.

وتفصح المدينة القائمة اليوم بوضوح عن الكيفية التى بدأت بها. فالناس قد بنوا اول الامر وفق هواهم ودون اى خطة شاملة. وقد استغل ذلك كل من بنى، ولذا تجد الحدائق الكبيرة وسط المدينة، وتفتقد الاحساس بان يكون البناء قد تم وفق خارطة للمدينة.

والمنازل من طابق واحد ارضى فى الاعم، وسقوفها مسطحة. ويكون كل بيت كبير وحدة واحدة مقفولة فى ذاتها فيما لو كان ملكا لتركى او قبطى او عربى ثرى. ويتكون كل منزل من قسمين منفصلين، قسم للرجال وآخر للنساء، او الديوان والحريم كما يقولون فى مصر.

ويتم بناء الدانقة، وجمعها دانقات، بطريقة غير منتظمة منذ البداية. والدانقة هى المنزل المبنى من تراب.

يحتفر التراب اللازم لعمل الطوب الاخضر قريبا من مكان البناء، ثم يترك الطوب ليجف تحت الشمس. ونسبة لطغيان الحرارة يجف هذا الطوب سريعا ويمسى صالحا للبناء. وتقوم الجدران لارتفاع معلوم ثم تجهز لبناء السقف. والسقف هو اكثر ما يعتنى به من اجزاء البيت، ولذا فهو اكثرها كلفة. وقد يقام على كمرين سميكين متينين من خشب السنط، قد بنيا فى الحائط على مسافة قدم ونصف او قدمين، ويعارض فوقهما عدد من العيدان الرفيعة المرصوصة فى تلاصق وتجاور، تسمى الرصاص، تجلب عادة من غابات بعيدة. ويوضع فوق هذا الرصاص صفان من البروش المصنوعة من سعف النخل، وفوق هذا يتم وضع ما يجعل السقف مانعا للماء من التسرب الى داخل الغرفة، وهو بناء طبقة

ترابية بسمك عدة بوصات، تدك جيدا وتسطح. وبعد كل عاصفة رعدية ممطرة يشاهد المرء سكان الخرطوم منهمكين فى اصلاح سقوف منازلهم. وغالبا ما تكون سبلوقة تصريف الماء مسدودة، وفى هذه الحال تتجمع المياه فى السقف فى بركة وتتسرب الى الداخل. وقد تتسبب فى هدم البيت كله. ولقد حدث ان مات كثيرون بسبب انهيار سقف البيت. وقد اضطررنا نحن الى نقل حوائجنا من مكان لآخر داخل الغرفة بسبب تسرب المياه، او تكدسها فى الصناديق، كما انه ليس من النادر ان نحملها من غرفة لاخرى.

والمنزل من داخل يشبه خارجه. فالارضية من تراب مدكوك، وتفرش بالحصر، وتوضع عليها مساند للجلوس. وفيما ندر يجد المرء ما يزين الجدران الداخلية الترابية المسطحة، والتى تطلى بالجير الابيض فى بعض المنازل. والنوافذ فتحات عليها قضبان متقاربة او متباعدة، ومثلها الابواب والتى لا يمكن اغلاقها الا فى بعض المنازل. ولا يرى المرء قفلا او ترباسا او اى شىء من الحديد، وحتى الاقفال الخشبية المصرية العادية قليلة ونادرة.

وأسوأ ما فى الخرطوم هو ما يعانيه القادم الجديد اليها من جهة السكن فعندما يستاجر الغريب منزله الاول فانه يعطى دائما اسوا بيت لان المنازل الافضل قد استاجرها من هم اطول اقامة منه، ومن ثمة عليه ان يقوم بتجهيز كل شىء، لان صاحب البيت لا يقدم له اكثر من الحيطان الاربعة. عليه اولا ان ينظفه من الداخل من الحشرات والهوام، فكل الزوايا المعتمة تاويها فى موسم الامطار العقارب والثعابين والسحالى القبيحة والزنابير وما هو أسوأ. وعلى المرء الا يدخل اويخرج من اى غرفة دون ان يحمل نورا فى الامسيات لوجود هذه وخطرها. وقد وطئت

قدمى ثعبانا ساما للغاية فى مدخل مظلم، لكنه لحسن الحظ كان منشغلا بابتلاع طائرين من السنونو كان قد قتلهما. ان المرء يعتاد رؤية العناكب الضخمة والعقارب فيراعى الاحتياطات اللازمة لسلامته. اما الضب الذى يخرج ليلا ويتجول ملتصقا بارجله على الحيطان اوالسقف فهو ذو فائدة فعلية. ويرتاح المرء لما يصدره من تصويت. وعلى النقيض منه تلك الحشرات التى تدخل وتسرح وتمرح فى الغرف نهارا كالذباب، وليلا كالبعوض. فالنوافذ مشرعة لها، مما يجعل المرء يقاسى الأمرين نهارا من الذباب وليلا من الناموس دون ان يستطيع ان يفعل شيئا.

وهناك الرياح التى تهب وتذر الغبار فى الغرف. اما ارتفاع الحرارة فى الحجرات وخاصة تلك المنخفضة السقف، فانه يعالج بالرش المتكرر لارضيتها بالماء.

والخرطوم فقيرة من ناحية المبانى العامة، وهى فى الواقع تنحصر فى منزل الحاكم ومدير او محافظ الخرطوم والبازار والمستشفى العسكرى. وهى مبان حكومية تجدد بناؤها مرارا. وهى تفى باغراضها الى حد كبير. واذا اراد المرء ان يضيف بعض المؤسسات الخاصة الى المبانى العامة يمكنه ان يعد الكنيسة القبطية والكنيسة الكاثوليكية والمدرسة المسيحية التابعة للكنيسة الكاثوليكية.

ويقع بيت الحاكم العام فى الجزء الشرقى من المدينة على ضفة النيل الازرق مباشرة، وله ميدان واسع امامه، لا اسم له يحمله. وفى زمن لطيف باشا(1850 ـ 1852) ألحقت به اضافات وتحسينات، وكان فيما مضى مثل بيوت الخرطوم مبنيا من الجالوص، اما الآن فان جدرانه الارضية من الطوب الاحمر. ويتكون من قاعة استقبال او ديوان الباشا

ومكاتب موظفيه وغرفات سكنى عماله والارشيف وعدد من السجون وحرس قوى ومكان حريمه. وتحيط به حديقة حسنة.

وبفضل جهود الاطباء الاوروبيين فقد جهز المستشفى العسكرى بشكل يرضى المرضى. وعنابر المرضى عالية، نظيفة، متجددة الهواء، والعناية الطبية مرضية. وقيام الاطباء بالعلاج حسن جدا، اذ على الاقل انتهى زمن الدجالين ومدعى الطب. ولكن لم يتم مع الاسف عزل القشلاق عن المستشفى، وهى مبان فقيرة، تشبه حظائرالخنازير فى اوروبا فى منظرها الخارجى والداخلى. وقد خصصت لسكنى الجند المساكين وعوائلهم. وسكنى الجند فى مصر نفسها سيئة ايضا، ولكنها تعتبر قصورا بالمقارنة الى قشلاقات السودان.

وككل مدن المسلمين فان السوق هومركز المدينة الاجتماعى. ولذا رتب بعناية، وبه الجامع وعدد من البازارات، وقد بنى الجامع من الطوب، وهو حسن المنظر رغم بساطة بنائه. اما المئذنة فهى من اللبن وليس بها اى تزويق. وبالقرب من الجامع صالتان هامتان للبيع، احداهما من الطوب ومجهزة تجهيزا جيدا.

وبين الصالتين يقوم سوق الرغيف. وهنا يجلس الخبازون المصريون تحت مظلات شمسية ضخمة، ويعرضون رغيف القمح، بينما تبيع السودانيات الكسرة والقراصة لاهل البلد.

وتجاور سوق الرغيف اسواق اللبن والفاكهة والخضروات، ووسطها تقوم المشنقة. والفظيع فى الامر ان الناس تغدو وتروح فى شراء حاجياتها عندما يشنق انسان، ولا يبدو ان الجنائنية او بائعات السمن يكترثون لذلك.

ومن هناك يعبر المرء سوق العيش الى سوق التبغ - التنباك - الذى يجاوره سوق السمن والعلف. ويوجد الذرة والقمح مفروشين على الارض الجرداء. ويباع التنباك فى زقاق ضيق يملأ هواءه غبار التبغ الجاف. وفى سوق السمن يباع الودك المستخلص من شحم البقر او الغنم وهو يستخدم للدلكة، والتى سنتحد ث عن استخدامها فيما بعد. ويباع القش اليابس والقصب واعلاف اخر.

والحدائق القائمة على ضفة النيل الازرق هى بهجة الخرطوم. فخضرتها الزاهية تسر الناظرين، خاصة والمدينة تحيط بها مساحات جرداء؛ وفاكهتها انعاش مطلوب بالمقارنة الى اشجار اواسط افريقيا التى لا تحمل ثمرا.

ويوجد بهذه الحدائق العنب والليمون والتين والتين الشوكى والموز والقشطة. اما اشجار النخيل فهى عند نهاية حدها الجنوبى، وحتى ان كانت من نوع جيد، فهى ليست جيدة الثمر هنا.

سكان الخرطوم

تسكن الخرطوم عناصر مختلفة، وان لم تكن مختلطة كما فى القاهرة. ويمكن تقدير سكانها بحوالى ثلاثين الف نسمة، منهم قرابة الثلاثة آلاف من السود فى الخدمة العسكرية. ونجد فى الخرطوم الاتراك والاوروبيين والاغريق واليهود والقالا واربعة او خمسة اجناس من السود كالفور والشلك والدينكا، ومن تقلى واعالى النيل الازرق.

وكان الترك الموجودون بشرق السودان ومصر محتقرين من ابناء بلدهم لتخليهم عن عاداتهم، ولكنهم مع ذلك ارفع رتبة من جهة نظر اخلاقية من الاوروبيين الموجودين بالخرطوم، لان الاخيرين، باستثناء قلة، هم حثالة شعوبهم.

والاغريق واليهود هم كما هم فى بقية انحاء العالم. اما المصريون فقد احتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم.

ونقصد بالسودانيين كل الذين يعمرون اراضى النيلين الازرق والابيض وهم سمر فى اللون. وقبل قرون عديدة امتزج سكان السودان الاصليون - الفونج - مع الشعوب المحيطة بهم، ولذا فان المرء لا يستطيع ان يتحدث عن عنصر خالص. وفى الوقت الحاضر يعتبر الاحباش المقيمون فى السودان والنوبيون المهاجرون فى عداد السودانيين.

ويمكن تقسيم السكان الى اهل مدن وقرى صغيرة وبدو رحل. ومن الرحل الحسانية وبنو جرار والكبابيش والبشارية والبقارة وآخرون، وهم يختلفون فى السمات الجسمانية والعادات والتقاليد بعض الاختلاف، لكنهم بحكم نوع الحياة التى يحيون لا يمكن الخلط بينهم وسكان المدن والقرى المستقرة.

والسودانيون كلهم احرار بالمولد، ولا يجوز بيعهم كرقيق.

والسودانيون عادة ذوو قامات مربوعة او طويلة، اقوياء، وبهم طاقة هائلة على التحمل احيانا. ورجالهم اجمل من نسائهم، ما عدا الحسانية. ويمكن وصف نساء الخرطوم بالقبح، فهن يدقن شفاههن ويضعن عليها زرقة على غرار نساء البادية. وملابسهم بسيطة، ولا تختلف الا قليلا من مكان لآخر. فالرجال يلبسون السراويل الفضفاضة البيضاء التى تصل الى الركبة او ادنى، ويسمونه اللباس. ويلبسون الفردة، الثوب، التى يبلغ طولها ستة عشر قدما وعرضها اربعة اقدام وهى من القطن، رمادية اللون، وبها خطوط حمراء او زرقاء فى الحاشية، وينتعلون الصندل، ويغطون الرأس بالطاقية. وترى على الذراع الايسر سكينا، بيتها من

الجلد، مربوطة بسير من الجلد المضفور، كما يغلب ان يلبس الواحد منهم اكثر من حجاب فى شكل اسطوانات من الجلد. ولا يخلع الرجل حجباته او سكينه، وتستخدم السكين فى الاغراض العادية او للدفاع عن النفس، كما ان الحجاب يجد منهم كل تقدير، ويؤمنون بان الآيات القرانية المكتوبة فى ورق الحجاب تحمى من امراض كثيرة.

ويلبس بعضهم المحفظة، وهى من جلد ولحفظ النقود والاوراق الهامة، وبها خمسة جيوب، وهى مشغولة وحسنة. كما يرى بعضهم يحمل السبحة، ومحركا حباتها دون تفكير بين اصابعه. وهم يحلقون شعور رؤوسهم من حين لآخر، والموسى التى تستخدم سيئة، وتشحذ على جلد المركوب ـ الصندل. ومن حين لآخر يشاهد المرء كظاهرة من زمن ماض سحيق جماعة من البدو من جهة اتبرا او داخل الجزيرة بشعورهم الطويلة التى ترتفع الى ست بوصات، وتدهن بالودك، ويشكون فيها خلالين من خشب املس طول واحدهما تسع بوصات، ومقابضها حسنة الشغل. ويستخدم هذا الخلال فى جلب الراحة للراس الملئ بالقمل.

وحتى عام 1850 كان الرجل منهم يحمل رمحين طول الواحد منهما ثمانية اقدام، ويستخدمهما دفاعا وهجوما. وقد منع لطيف باشا ذلك، لكنه استثنى البدو، وبذا حد من حوادث القتل العديدة. لكن صورة السودانى فقدت كثيرا من اصالتها وتفرد شخصيتها.

وملابس النساء بمثل بساطة ملابس الرجال. فالصبايا يلبسن الرحط حتى يتزوجن. وهو مصنوع من مئات السيور الجلدية، وموشى باهداب كما بالودع، وهو رمز لعذرية الفتاة، ويستبدل يوم زواجها بمئزر قطنى.

وتلبس المراة الحجاب لا كالرجال على ذراعها بل تتركه يتدلى بسيور جلدية تحت المئزر. وتعتقد فى قدرة الحجاب على حمايتها من امراض عديدة، وخاصة ضد العقم، كما يلبسن الفردة ايضا، ولكن بطريقة مختلفة عن الرجال. والفردة النسوية من قماش يختلف، وهى من نسيج شفاف يبرق من تحته لون البشرة السمراء، ويلف الجسد بها حتى القدمين ويبقى الوجه وحده مكشوفا. وينتعلن الصنادل، ويلبسن زماما من النحاس او الفضة فى الانف، وكان من الذهب فيما مضى. ويبدو الوجه بهذا الزمام والشفة الموشومة منفرا للغاية. ويود المرء لاعتبارات جمالية لو ان الوجه قد خلا منهما.

وكما فى كل مكان آخر، فان النساء فى السودان يبحثن عن كل ما هو باذخ. ولذا فان الصندل النسائى مكلف اكثر من صندل الرجل، كما ان كوافيرهن، المشاط، مكلف جدا، وتقوم به نسوة خبيرات به، ويستخدم فى دهن الشعر الودك وموادا زكية الرائحة.

ويعتنى الجنسان بالمسوح وتدليك الجسم من حين لآخر لحماية الجلد من التشقق واليبوسة وحفظه لينا لدنا. وقد اكد لى الاطباء الاوروبيون الذين قضوا وقتا طويلا بالسودان ان ترك الدلكة والمسوح يصيب الجسم بامراض جلدية. ويستخدم النوبيون والسود هذه الدلكة التى تكسب جلد السود لمعانا وبريقا لا مثيل له فى اوروبا؛ ان نساء السود يكتسبن نعومة فى الجلد بدرجة عالية لا تعرفها نساء اوروبا.

وكانت العادة قديما فى السودان ان تقوم احدى الجوارى بتدليك الضيف العزيز.والدلكة مثل دهن الرأس تأسن بعد حين وتصبح ذات رائحة مقيتة.

تشبه شخصية السودانيين المعاصرين شخصية نصف المتمدينين، ولكنها اكتسبت عبر ديانة ممتازة بالنسبة لظروفهم بعض الخصائص النبيلة. وعندما ياخذ المرء الجوانب المضيئة والمظلمة فى حياتهم ويقابل بينها فانه يستطيع ان يجزم بلا تردد انهم فى الاصل اناس خيرون، كرماء للضيف، يقدمون القرى للغريب بغض النظر عن فقرهم او ثرائهم، فهم لا يدركون انهم فقراء، ويعينون المحتاج ويطعمون الجائع. وهم يرعون العهد ولا يتنكرون لكلمة قطعوها وعدا، ويرعون ما عهد اليهم من امانة اكثر مما لوكان ملكا لهم، ويحبون اطفالهم ويحترمون الوالدين، ويعتبرون حسن الضيافة من الواجبات المقدسة، ويقومون بها فى حرص وصرامة.

ولكن ...

هناك السودانى الذى يكذب، ويخدع، ويسرق متى تمكن من ذلك. وهو نهب للذة الحسية، وكسول، واحمق، ولا يحب العمل، ومهمل.

والسودانيون عمومًا مثل كل الشعوب الجنوبية متهورون وسريعو الهيجان، وما زالوا بالثقافة والعادة ابناء الطبيعة بالسليقة. وهم يشتعلون غضبا كالقش ويقومون باى عمل دون تدبير، لكنهم يندمون على ذلك بعد وقت قصير. وكان القتل فى الماضى امرا عاديا، لكن الحكومة قد فرضت عقوبات صارمة حدت منه. وقبل الحكم التركى كان الثار شيئا عاديا متفشيا. وكان القتل والضرب المميت من الامور اليومية. وكانوا يسوون امورهم فيما بينهم. ومازالوا يفعلون حتى يومنا هذا عندما يرون ان الحكومة لن تعرف. وما كان ملوكهم يهتمون كثيرا بخصومات رعيتهم الشخصية، ولذا يستغربون تدخل الحكومة الحالية فيها، فهى صغائر لا تخصها فى ظنهم.

ليس لهم كمسلمين اى تشريع منصوص فى الوقت الحاضر، فالقرءان عندهم هو الكل فى الكل، انه يعلمهم ان يستبينوا الحلال من الحرام، الخير والشر، ويحدد عقوبات المخالفات، وبه القوانين التى حكم بها محمد ﷺ جنوده ورفاقه وتابعيه. ومما يؤسف له ان هذا الكتاب الدينى الممتاز قليل التداول فى السودان. ولهم جامع واحد فى بلادهم الشاسعة/الخرطوم، ولا يعرفون من دينهم الا المسائل الاساسية وبشكل تقليدى. فهم مسلمون اسما دون معرفة بالشريعة او فهم لها. وحين يقومون ببعض الفروض يحسبون انهم قد قاموا بالكثير.

ينغمس السودانى فى الملذات الحسية؛ وهو خامل، كسول، مهمل، احمق. وهو بسيط فى ملبسه، مقل فى صرفه على طعامه، مبذر فى الصرف على فتيات الهوى، وهن فى الغالب من الجوارى اللائى اعتقن، اوبناتهن. وهو كثير السكر بالمريسة. وساحاول ان اقدم تبريرا ودفاعا عن السودانى، وذلك بإلقاء اللائمة فى كل هذه العيوب على طقس البلاد. ومن يستطيع ان ينكر ان للطقس اثرا كبيرا فى تكوين العقل كما فى تكوين الجسم وحتى القادم من جزء آخر من العالم يتاثر بهذا الطقس. والذى يعيش فترة فى البلاد الحارة يدرك كيف يصبح أنشط الاوروبيين خاملا. فالحرارة فى الخرطوم فى ايام السموم تبلغ 40 درجة مئوية فى الظل، فتشل الجسد. وهنا اكثر من اى مكان اخر ينصح المرء بالقيام بالاعمال الذهنية الخفيفة، اذ ان المرء يصبح دونها خاملا حتى انه يقعد فى النهاية عن اى حركة ويهتم فقط براحته ومسكنه البارد، وبذا يعجل بنهايته. ان الاوروبى يعرف تأثير الجو الحار، ونتائج الترف الجسدى، ومع ذلك فانه نادرا ما يتجنبهما. والسودانى اقل منه تجنبا لهما؛ فهو يبالغ فى فسقه وملذاته ولا يدرى انه بذلك يقصر اجله.

اما كسله فهو نتيجة لعلاقاته، فهوعندما يعمل حقا فانما ذلك لتأمين احتياجات حياته وذويه، لكنه يحتاج الى القليل، وبلده مبارك الخصب والعطاء، الامر الذى يمكنه من توفير ما يريد دون عناء. فلماذا يشقى نفسه بالعمل؟ ولماذا يفعل ما لم يامره به دينه؟ ودينه يسمح له بان يستمتع بحياته بطريقته واسلوبه، اذ يعلمه ان الله كريم وموته مكتوب وحياته قدر. ولذا فهو يعيش يومه دون هم.

وفى النهار يعمل السودانى قليلا جدا، فهو يستلقى فى داره فى عنقريبه الناعم يهنا براحته. وتبدا حياته الفعلية مع غروب الشمس، لكنها ليست حياة عمل، بل حياة المتعة. فهوفى نصف عريه يرقد فى استرخاء وامامه برمة المريسة الكبيرة يشرب منها من قرع، ويتم كيفه اذا كانت تسقيه امراة جميلة، ويقضى نصف الليل مع جميلته وبرمته، وقد اسكره الحب والمريسة. فلماذا يشغل نفسه بضوء النجوم فى ليل الاستواء الصحو او بالله ورسوله او بالعمل وارباب ?انه يحيا لنفسه وامراته ومريسته. والله كريم ويغفر للمذنب.

وليس حب المتعة والاستهتار وقفا على الرجال وحدهم، بل انه متفش بين نساء السودان. واخلاص المراة لزوجها امر مشكوك فيه!

وعلى الرغم من عاداتهم الغريبة وضعفهم. استطيع على ضوء ملاحظات خصائصهم الحسنة من قبل كثير من الرحالة انَ ابرر ايمانى بهم. لقد مكثت عامين بينهم، فلم اجد منهم شرا، كما لم اشعر باى خوف مثل ذاك الذى يستشعره المرء بين شعوب اخرى. ويمكن للمرء ان يغفر لهم ماياتون من شر لتهورهم الشديد وغضبهم المفاجئ وافتقارهم الى التعليم. وقد لاحظت مع الاسف ان ما يتعلمونه فى الخارج ويعودون به الى ديارهم لا يؤثر فى عاداتهم ايجابيا، فكلما سافروا واكتسبوا خبرة

ومعرفة زادت شرورهم. انهم مثل شباب مصر وتركيا الذين بعثهم الخديوى الى اوروبا للتعليم، والذين جلبوا معهم مباذل اوروبا دون ان تتاصل فيهم فضائلها.

ومع ان السودانيين مسلمون الا ان عاداتهم تختلف عن الشعوب المسلمة الأخرى بشكل واضح. ونستغرب ذلك كثيرا لان الدين عند المسلمين ينتظم الحياة كلها، ومعظم العادات تنطلق منه. والسودانيون يمارسون عادات دينية محمدية، ولكنهم يحتفظون بعادات أخرى كثيرة اصبحت مقدسة لديهم مثل تلك التى يحض عليها الدين. منها مثلا خفاض الفتاة. فهو ليس شرعا محمديا، وهم يمارسونه. وغالبا ما تتم العملية الفظيعة والفتاة بنت خمس اوسبع سنين، وتأخذها النسوة العجائز، ويجرين بموسى ثالمة خفض الاجزاء المعنية، وبذا يلحقن بالفتاة آلاما فظيعة. وغالبا ما تظل الفتاة لمدة اربعة اسابيع ورجلاها مقيدتان معا فوق العنقريب قبل ان يبرأ جرحها. وكما فى ختان الاولاد الذكور تقام احتفالات كبيرة فى طهور البنات. وقبل ايام من العملية يؤخذ فى الغناء والرقص والضوضاء والشرب حتى وقت متأخر من الليل. وتشرك بنت الطهور فى كل ذلك. واثناء العملية يشتد الاضطراب والضوضاء اضعافا، وتصبح الحفلة اكثر بذخا، ويرتفع دوى الدلوكة ـ الطبل ـ والزغاريد. وربما كانوا يحاولون تغطية آلام الفتاة، اذ بعد انتهاء العملية تنتهى هذه الفنتازية ويصمت جمع المحتفلين.

وعند زواج السودانى لا تقام احتفالات خاصة الا فيما ندر، فمتى بلغ الصبى عامه الخامس عشر اصبح عادة رجلا. وتكون الفتاة صالحة للزواج حين تبلغ الثالثة عشر. ولحسن الحظ لا يتبع السودانيون العادة المصرية السيئة التى تزوج الفتاة فى طفولتها، بل يتركون للطبيعة

مجراها حتى تكمل عملها دون تدخل من البشر. وعلى السودانى ايضا ان يقدم مهرا يقل عما هو فى مصر، ويدفع عادة على دفعات قد تستغرق بعض السنين. ويقوم فقيه بعقد القران فى سرعة وسط تلاوة ايات من القرءان تتصل بالزواج.

ومع ان المهر ضئيل فى السودان، فانه يحدث فى احيان كثيرة ان يمتنع الاب عن الموافقة بزواج ابنته بقصد ان يرفع المهر. فالمسلمون فى كثير من البلاد المسلمة ينظرون الى الزواج كمعاملة تجارية، وليس بمستغرب ان يحاول المرء ان يستخلص منه كل ربح ممكن. ولأن تعطيل بعض الزيجات قد يؤدى الى نقص فى عدد السكان اقامت الحكومة فى السودان مؤسستها الخاصة. فالحب هنا ليس مغلولا او محتبسا وراء الابواب كما فى تركيا وبلاد اسلامية أخرى، بل انه كما فى البلاد المتحضرة. فالفتيات يرحن ويجئن دون حجاب، كاشفات الاوجه، ويمكن ان يوقدن نار الوجد فى قلوب الشباب بجمالهن. ولمساعدة الشباب على الزواج من الفتيات قبل ان يصبحن عانسات قبيحات غير قادرات على الانجاب القوى ابتدعت الحكومة التركية مكتب ناظر الزيجات، وهو منصب اكتسب اهمية فى السودان. والناظر هنا شخص روحى يسافر متنقلا فى كل انحاء السودان من قرية الى قرية ومن مدينة لأخرى، ويستخبر عن القادرين على الزواج والراغبين فيه. وهو يسأل البنات ان كن يرغبن فى الزواج. فإن اجبن بنعم زوجهن للفتى المحبوب بالحسنى او القوة. وهو الذى يقرر المهر. وله مساعد عليه ان يعيد الى الآباء المعاندين صوابهم، ويجمع اتعاب الناظر، ويقوم اجمالا كمساعد دنيوى له.

ويندر ان يقترن السودانى باكثر من حليلة واحدة فى نفس الوقت، لكنه يحب التغيير فى علاقاته الزوجية، ولذا فهو يطلق امراته، دون سبب

حقيقى فى الغالب، وهذا حق له فى الشريعة. وعندما تكون لديه جوارى، فانه يرفعهن الى مرتبة الحريم، ويعامل اطفالهن معاملة اطفال نسائه الشرعيات. واحيانا تفر منه زوجاته الى ذويهن ان اساء معاملتهن. وهنا يسرج حماره ويلحق بزوجته، يعيدها بالقوة الى بيته، ويؤدبها. لكنه فى الغالب يدخل فى مشاحنات وخصومات جدية مع اقاربها، واذا كانت المراة قد ابتعدت عنه دون سبب وجيه، وبختها صديقاتها، وقرعنها وربما ضربنها واعدنها فورا الى زوجها..

عندما يسقط السودانى فريسة للمرض ويخشى دنو اجله فان اصدقاءه وجيرانه يتجمعون فى داره ليزينوا له مباهج الجنة، وياخذوا شهادته، ويرددون الشهادة " لا اله الا الله "، فيرد المريض او المحتضر " ومحمد رسول الله ". وعندما يصدر عنه ذلك يوقن كل من سمعوا زفراته الاخيرة انه مات مسلما حسن الاسلام. وحالما يغمض جفنه بعد موته ينطلق عويل النسوة من داره منبئا عن موته. ولدى سماع صرخة النعى هذه يهرع الجيران الى بيت البكاء، ويغسل الميت ويكفن. والكفن قطعة طويلة من القماش من القطن الصافى، ويمكن لافقر الناس ان يشتريه او يحصل عليه لقريبه الميت من اهل البر من مواطنيه، ولن يبخلوا به عليه. واذا كانت الوفاة صباحا يتم الدفن فى نفس اليوم، اما اذا كانت مساء او ليلا فيدفن فى صباح اليوم التالى.

ويتم الدفن وفقا للتعاليم الاسلامية، فالمقابر فى الخلاء بعيدة عن اماكن السكنى. وهناك يحفر القبر بعمق حوالى ثلاثة او اربعة اقدام، وفى مكان عال فى الاغلب، ويحمل الجسد الملفوف فوق عنقريب الى المقابر، يحمله عدد كبير من المشيعين، الرجال يغنون، والنسوة يعولن. ويوضع الميت فى القبر بحيث يكون الوجه مستقبلا مكة والكعبة.

واذا توغلنا اكثر فى الحياة اليومية السودانية وجدنا عادات جديرة بالاعتبار. فالسودانى ان اراد ان يكرم ضيفه بصورة خاصة ذبح شاة او عنزا ان كان معسرا، وجهز له وليمة شهية. وهو ياكل عادة طعامه اليومى: العصيدة واللقمة، لكنه محبٌ للضيف حتى انه يعتبر يوم نزول الضيف او الصديق عليه يوم عيد، ويقوم بكل ما فى وسعه ليسعد ضيفه. واذا كان قادرا فانه يقيم حفلا ورقصا امام كوخه ويجمع جيرته. وحتى الغرباء يجدون ضيافة حسنة وطيبة من السودانى. وهو يقتسم ما لديه مع الحجاج الذين يقصدون مكة، فينتقلون من مكان لآخر، سائلين الناس العون فى الطريق. ويعتقد السودانى ان الضيافة تمتد حتى الى ما وراء القبر. وقد حكى لى ان من يريد قضاء ليلة فى المقابر لن يجد راحة الا اذا اختار قبرا ونام فوقه، اما اذا نام بين قبرين، فان الميتين يتجاذبانه، كل يريد استضافته لقبره ليقوم بفروض حسن الضيافة، فيقضى النائم ليله يدفع هنا وهناك دون ان ينعم براحة، وتعذبه الاحلام المزعجة.

ومأكل السودانيين بسيط للغاية. لكن تجهيزه يتطلب مجهودا وعملا كبيرين، ولذلك فهو اشق اعباءالنساء، ويستغرقهن اليوم باكمله. والسبب هو الطريقة الصعبة لاعداد الخبز ـ الكسرة، وقبل ساعتين من وقت الاكل لا يكون من الكسرة غير الحبوب، ولا يعرف السودانيون المطحنة اليدوية البسيطة التى يستعملها المصريون، بل يستخدمون فى سحن الغلال المرحاكة [الرحى] واولادها، كما يقولون. والمرحاكة قطعة من صخر الجرانيت مسطحة بانحدار نحو الوسط، يسحن عليها الذرة اوالدخن بعد ان ينقع بالماء باستخدام ابن المرحاكة باليدين. وتجثوالمرأة على ركبتيها للقيام بهذاالعمل المضنى، وتمسك الحجر بكلتا يديها،

وبتحريكه لأعلى واسفل تسحن الذرة، وتبلله بالماء من حين لآخر، وتجمع العجين الخشن فى فجوة فى الارض بها برمة من الفخار. ولا يكون هذا الطحين جاهزا لصنع الكسرة الا بعد اعادة سحنه مرتين او ثلاث.

ومع حرارة الجو، وتقاطر حبات العرق من الجسد فى هذا الجو المدارى، تغنى الطاحنات اغنيات بسيطة مرتجلة لا تخلو من جمال. وتبرز عملية طحن الحبوب بالمرحاكة لصنع الكسرة جمال البناء الجسدى للصغيرات اللائى يقمن به.

ويحرص السودانيون على وضع الكسرة فى طبق مضفور من سعف النخل وجريده، وقصب القمح، ومزين بكل الاشكال الفنية، وله سير جلدى، ويغطى بطبق آخر هرمى الشكل مصنوع من المواد نفسها وبذات القدر من الجمال. وكلاهما آية فى الجمال. ويمكن اعتبارهما من أدوات البذخ. وتبرع النساء خاصة فى كردفان وولد مدنى فى صناعة الاشياء المضفورة.

ويندر ان تجهز طبخات من اللحم، اما الحمام والدجاج فيتم طبخه بنوع من الفلفل الاسبانى الفظيع او قليه بالسمن او سلقه. ولا يحتمل الاوروبى اكل هذه الطيور المعدة بهذه الطريقة السودانية، بل يحسب انه سيختنق او يحترق ان فعل؛ وانا نفسى لم اقدر على تناول القليل منها او تذوقه، فمن ناحية المقادير يجب ان يكون ثلث هذه الطبخة على الاقل من الشطة الاسبانية!

وفى بعض المناسبات الخاصة يأكل السودانيون لحم الضان المسلوق فى الماء دون اى بهارات حارة. وقد اولمنى شيخ احدى القرى بلحم ضان مشبع بالعسل، وكان لذيذا.

والسودانيون كمسلمين لا يأكلون الا اللحم الحلال الطاهر، اى من ذبيح قد سال دمه من رقبته، اما ما يرمى بالرصاص من حيوان فلن يكون طاهرا الا اذا كان راميه قد تلا العبارات التى تحلل اللحم قبل ان يطلق رصاصه، او ان يذبح الحيوان بعد رميه مباشرة ويسيل دمه.

وفى حالة الذبح يضع الجزار المدية على عنق الحيوان ويردد: " باسم الله الرحمن الرحيم. الله اكبر " ثلاث مرات. ثم يشرع فى الذبح سريعا حتى يسيل الدم من عروق رقبة الحيوان، ثم يسلخ الذبيح ويوضع اللحم فوق الجلد المسلوخ، ثم يفتح البطن ويخرج الاحشاء، ويكسر اللحم الى اجزاء صغيرة.

ويستخدم السودانيون ايديهم فى تناول طعامهم، مثلهم فى ذلك مثل كل الشعوب الشرقية، لكنهم لا يراعون أشياء معينة تجعل هذه الطريقة فى الاكل مقبولة ومحتملة عند الاتراك. فالسودانى يتناول قطعة من الكسرة بثلاث اصابع من يمناه، ويغمسها فى الصحن الذى امامه، ويملأ فمه بما وسعه من الطعام. وبعد الفراغ من الاكل والذى يقوم به باسرع ما يمكنه، يمص كل اصبع بصوت مسموع، ثم يغسل فمه ويده، ويحاول ان يتكرع بصوت مسموع ليعبر بذلك عن اعجابه بالطعام.

ويوضع الصحن الوحيد الذى تتكون منه الوجبة على الارض الجرداء او على البرش ويجلس الناس حوله، ويقضون عليه فى نهم.

وهم فى شربهم الخمر بنفس القدر من البداوة. ويذهب كلا الجنسين الى قطاطى الخمر مؤتزرين قطعة من القماش فقط حول الردفين، ولا يعرفون ما الذوق. فالرجل يرقد شبه عار فى عنقريبه ويجرع مريسته فى نهم ولا يقوم حتى لقضاء اهم الحاجات. وهو لا يعرف معنى الخجل بل يظل يشرب ما يستطيع ويبقى الى النهاية مخمورا فوق عنقريبه.

والمريسة او البلبل شراب مسكر يصنع من الذرة او الدخن، ويستهلك بكميات كبيرة فى الخرطوم. وهى تصنع فى اماكن مخصصة لها وبطرق متعددة. وفى الخرطوم تبل الذرة وتوضع فى مكان رطب بين اوراق العشر حتى تنبت قليلا - تزرع - ولو قارنا المريسة بالبيرة عندنا فإن الذرة تقابل الشعير؛ والعشر الخميرة.

وبعد ان يتم تزريع الذرة تبعد اوراق العشر، وتترك الزريعة لتجف تحت الشمس، ثم تسحن على المرحاكة. ثم يصب عليها الماء ويغلى فى اوعية من فخار. وعادة ما يترك ست او ثمانى ساعات على النار، ثم يبرد فى بطء. وتضاف الخميرة الى ذلك، ويترك ليتخمر، وما ينتج عن ذلك هو ما يعرف بالمريسة. فاذا تمت تصفيتها بمصفى من جريد النخل وغليت للمرة الثانية، تسمى بلبل، وتضاف اليها خميرة وتترك، ثم تشرب بعد ساعات قلائل من ذلك.

ويتم توزيعها فى برام مستديرة كبيرة، سعة الواحدة منها حوالى ست او ثمانى زجاجات، وتباع برمة البلبل فى الخرطوم بقرشين. ولا تستخفن بهذا السعر الزهيد، فالربح الناتج من صناعة البلبل هو300 % او400% من تكلفة صنعها.

ومذاق البلبل حامض نوعا ما، لكنه غير منفر؛ وهى مسكرة. وحتى الاوروبيون يحتسونها بكميات صغيرة ويستمتعون بها، فهى تزيد من التبخر، العرق، وهو مطلوب هنا للمحافظة على الصحة فى هذه البلاد، كما انها مغذية جدا كما قال لى القائمون بخدمتى، وهم من عشاق هذا الشراب السودانى.

وهناك خمارات خاصة لبيع البلبل فى الخرطوم حيث يقابل المرء بنات الهوى ايضا. كان الاغنياء والوجهاء فى الخرطوم يستخدمون هذه

الحانات للكسب الحرام، وذلك قبل مجئ لطيف باشا. كانوا يشترون عددا من فتيات القالا الجميلات، ويؤثثون لهم (دانقة)، ويختلقون مسالة بيع البلبل، ويحملون الفتيات على بيع الهوى، ويفرضون عليهن مبلغا شهريا معينا قد يصل الى مائتى قرش من كسبهن الحرام، وهم يرون فى هؤلاء الجوارى مصدرا للثراء الوفير. وقد أبطل لطيف باشا كل ذلك فى صرامة وبفرض عقوبة تصل الى الجلد ألف سوط.

قليل من السودانيين يدخن التبغ، ولكنهم رجالا ونساء يمضغونه دون استثناء. وهم يختارون نوعا قويا، يخلطونه بقدر من الرماد والعطرون، ولا يرى الواحد منهم الا وفمه محشو به رغم انه يبدو منفرا بهذا الشكل.

الدانقة غرفة ذات جدران اربعة وسقف، لها باب واحد. وهى مبنية من اللبن او مايسمى هنا الجالوص. والحاجيات الموجودة داخلها مثل المبنى الفقير نفسه، هى عدد من البروش الملونة للجلوس او الرقاد فوقها، وعنقريب وعدد من الاكواب - الكبابى - الزجاجية والصحون الصينى رديئة الصنع، واحيانا وعاء مستدير مزين بالرسوم المتنوعة يسمونه " السلطانية " وهو ايضا من الصينى، وحفرة الدخان، وعدد من الادوات المضفورة من السعف، ملونة، تعلق فيها القداح الخشبية درءا لانمل، وبعض الاغراض الصغيرة الاخرى، وذاك هو كل ما بالدانقة.

وفى بعض البيوت يرى المرء اسلحة محلية كالحربة والدرقة [الدرع] المصنوعة من جلد الغزال او التمساح، والسكين التى مر ذكرها، والسيف الطويل ذى الحدين الذى يحمله الوجهاء والرؤساء ومرشدو القوافل. كما يحمل البعض هراوات من خشب الابنوس، وهى من اسلحة اهالى النيل الازرق. اما السلاح النارى فيندر ان يحمله غير الذين قطعوا المسافات الطويلة سفرا ورأوا بلادا اكثر تحضرا، واتخذوا عاداتها.

واطفال السودانيين مخلوقات مهملة بشكل فظيع. وحتى بلوغ السادسة يمشى الاولاد والبنات عراة، وبعد ذلك يلبس الاولاد سراويل قصيرة، وتلبس الفتيات الرحط، عندئذ يتم شلخ الوجه كما يفعل النوبيون بعدد من الشلوخ المتوازية والتى تعتبر آثارها نوعا من التجميل للوجه. ويبدو ان هذه العادة مأخوذة من النوبيين، لكنها ليست عامة فى كل مكان.

الخرطوم هى مقر الباشا الذى بعثته الحكومة المصرية لادارة السودان الشرقى، ويعتبر منصبه نوعا من العقوبة نسبة لسوء الطقس فى السودان، وخلوه من اى بهجة فى الحياة الاجتماعية او متعة. ولذلك يغير الحاكم كل ثلاث سنوات فى زمن السلم ويعود الى مصر، (ويسم الوقت الذى يقضيه بالسودان زمن العقوبة) لياخذ منصبه السابق او اى منصب افضل. ويسمى باشا السودان حكمدار السودان، وهو اعلى سلطة فى البلاد، وبيده حق اعلان الحرب واقرار السلام، وهو القائد الاعلى للجيش، وراتبه الشهرى اربعون كيسا.

اما بقية الموظفين بالسودان فهم تحت امرته، وهناك مدير لكل مديرية، يحمل لقب ورتبة بيه، وله عدد من الكشاف هم رؤساء مراكز، وتحتهم رؤساء مناطق باسم قائمقام. ولكل هؤلاء رتب عسكرية. وبجانب ذلك هناك فى كل قرية شيخ البلد ـ العمدة ـ ويجلس القاضى المدنى مع القاضى الشرعى بنفس الطريقة كما فى باقى البلاد المحمدية.

والسودان فى دستوره الراهن دولة عسكرية، وكل القائمين بالامر فى المديريات او القرى من الباشا الى القائمقام هم فى الجيش الحالى، رتبة ومكانة. وفى وقت السلم يقومون بادارة المديريات الموكلة اليهم. اما فى زمن الحرب فهم قادة الفرق العسكرية التى تحتهم، ولذا لا يمكن ان نفرق بين موظفى الحكومة والجيش. وحتى الاطباء والصيادلة فى

السودان من الجيش، او يحملون رتبا عسكرية، وهم بلا استثناء اوروبيون.

اما قادة الجيش فهم اتراك او كانوا عبيد اتراك عتقوا وجئ بهم الى هنا، وهم من الشركس واهالى جورجيا والقوقازيين.

والقضاء هنا جزئى، وتتم المداولات باللغة العربية. والديوان ـ صالةالمحكمة ـ الخاص بالموظف المسئول مفتوح للجميع، ويمكن لافقر الناس واوضعهم ان يدخله متى شاء. ويجب كتابة عرض حال فى ورق مختوم يرفع الى القاضى والذى يكتب حكمه فى نفس الورقة. ويتخذ القاضى قراره بعد مراجعة الطرف الثانى، وهو غالبا ما يقضى باحكام الشريعة او تقديره الخاص. وقد وضع لطيف باشا صندوقا فى باب الحكمدارية لكى توضع فيه الشكاوى والالتماسات، ومن ساعة لاخرى ينظر فى ما به من شكاوى، ويقضى فى امرها فى ظرف اربع وعشرين ساعة.

ويقوم الاقباط بخدمة الحكام ككتبة ومحاسبين. اما المسائل البوليسية فهى من اختصاص الجيش، المسئول عن مشاكل الامن والسلام، والخدمات، كالعمل الاجبارى ـ السخرة ـ والبريد وخدمات أخر، لكنه فى كل هذه لا يقوم باداء امين او مطمئن. وفى وقت مضى كان بالسودان عدد من الاسلحة المختلفة، الارناؤوط والمغاربة والشايقية والنظام.. لكن المغاربة والشايقية قد حلت وحدتاهما الآن. وهذه الاسلحة لا تختلف فى سلاحها فحسب، بل فى ألوانها ايضا. فالارناؤوط بيض، والمغاربة صفر، والشايقية والنظام سود.

والارناؤوط من الاتراك، والالبان والاغريق، وآخرين من موانئ الشعوب الواقعة تحت الاتراك، ولهم ثلاث وحدات فى السودان هى

السنجكية او السنجكلك، ويرأسهم سنجك، وهم فرسان خفاف غير نظاميين، وليسوا مجبورين على الخدمة العسكرية، وليس زمن خدمتهم محددا وانما يتم باتفاق، ويدخل الارناؤوط فى خدمة السنجك، ويقوم بكل اعباء الجندى الوضيع الرتبة. وهو يملك حصانه وملابسه وسلاحه، ويتقاضى راتبه فقط من رئيسه، وبعض التموين من الذرة لحصانه.

وليس للفرقة اى زى خاص بها، او حتى سلاح محدد، ولذا فان الارناؤوط هى اكثر فرقة تفتقر اليى النظام يمكن تصورها. فهذا يحمل مسدسين وبندقية طويلة، والآخر يحمل مسدسات وسيفا قصيرا..وهذا يلبس قطعة قماش والآخر شيئا من قطن، وذا معمم وذاك بطربوش. والجنود انفسهم ليسوا مدربين تدريبا متسقا. وكذلك جيادهم. ومع ذلك فالارناؤوط افضل جنود فى السودان. وليس لديهم تصور او تفهم للهجوم المنظم، لكنهم يتمتعون ببسالة وشجاعة وحشية. فالفرقة تنقض على العدو دون تردد، ويبلو كل جندى فيها بلاء عظيما فى نزال فردى، ولا يمكنهم منازلة الجنود الاوروبيين لكنهم على اية حال يتفوقون على الملونين الذين يكرهونهم.

اما المغاربة، فقد كانوا كالارناؤوط يمتطون الحمير، وهم اكثر فوضى منهم، وقد استغنت عنهم الحكومة المصرية لعدم قدرتهم وعدم جدواهم. ولكن مع الاسف تم الاستغناء معهم عن بعض الفرق التى تضم الشايقية الشجعان.

اما النظام فهم جيش نظامى من السود الذين اختطفوا او ابتيعوا، يقودهم ضباط وصف ضباط مصريون ويقومون بتدريبهم، وهم فى كل شئ جنود رديئون لا يوثق بهم فى الحروب ضد قبائلهم او فى محاربة تجارة الرقيق، رغم المحاولات للاستفادة من الحزازات

والعداوات بين القبائل السوداء وارسال جنود النظام الذين يكنون الحقد لهم منذ الطفولة. وهم يقيمون فى القشلاق الذى ذكرت، ويتقاضى احدهم اربعة عشر قرشا فى الشهر وبعض ارادب من الذرة واحيانا بعض اللحم، ولأنهم قليلو الاحتياجات كان يمكن ان يرضوا بطعامهم واجرهم، لكنه لا يُجرى عليهم بانتظام، ولذا فهم دائما على استعداد للتمرد. ان فوضى الميزانية التركية المصرية الذى لا مثيل له يجعل اى مرتبات شيئا اسميا فقط، فهى تعطل كل المعاملات ـ فالتاجر الذى يمون الحكومة يمتنع، والنقاشون والعمال الذين يخدمون الحكومة يحسون بالمرارة، والموظف كبير الراتب يضطر الى حياة ضيق وعوز. وهكذا الحال فى السودان ايضا. فالجنود المساكين لا يرون من راتبهم شيئا لشهور عديدة، وبذا وتحت ضغط الجوع يمسون اخطر خصوم الحكومة.

التجارة فى الخرطوم

تشكل التجارة اهم حرفة فى السودان رغم انها لم تصبح حرة الا منذ عام 1850 . وفيما سبق كانت كل المواد الرئيسية للتجارة تحت احتكار الحكومة. وكانوا يشترون المحاصيل السودانية كالرقيق ـ وارجو الا يساء فهمى هنا – وسن الفيل والصمغ العربى والتمر هندى الخ باسعار زهيدة، وكسداد للضرائب المفروضة، ثم تباع هذه المواد فى مصر بربح هائل. ولكن الاحتكار قد رفع الآن.. ومع ذلك ما زالت الحكومة تشارك فى تجارة البلاد، وتجارة الرقيق حكر لها، وتتم على ايديها، وما زالت تقوم بغزوات بانتظام ـ على الاقل تمت غزوة عام 1851 ـ وترسل حملة تجارية الى النيل الابيض لا يشترك فيها الافراد الا بشروط.

وللتجارة فى الخرطوم اهميتها، وتعكس الموقع الممتاز للمدينة. فهى على ملتقى نهرين هما شرايين قلب افريقيا، مما جعل المدينة نشطة بالحركة التجارية. ان النهر فى افريقيا يعنى التجارة اكثر مما يعنيه فى اوروبا حيث الطرق الحديدية ووسائل المواصلات الاخرى تسهل الحركة. النهر افضل طرق التجارة، وتمكن ملاحة النيل الازرق حتى خط عرض خمسة، والنيل الابيض حتى خط عرض 11، كما يمكن ملاحة النيل الكبير حتى بربر المخيرف دون اى عوائق، ومن هناك تقف الشلالات فى طريق الملاحة، ولكن طريق القوافل المنتظم يسهل السفر.

ولقد تم نموالخرطوم السريع بفضل التجارة، واصبحت بذلك اهم مدينة تجارية بالسودان مثلما هى عاصمته، ومحلاتها التجارية هى اغنى مخازن البضاعة فى وسط افريقيا.

ومن المحاصيل والمنتوجات هناك العاج والابنوس وريش النعام والصمغ العربى والخروع والسنا مكة والتمر هندى والنيلة والبن من الحبشه والعسل والتبغ من سنار وجلود النمر من دارفور. وهناك الرقيق من الحبشة وقيسان وتقلى ودارفور، والجمال من عرب البشاريين والخيول من الكبابيش ومن دارفور، والابقار والاغنام والضان من مختلف القبائل البدو الرحل، والذرة والدخن من اعالى النيل الازرق وكردفان، والمصنوعات الجلدية من ولد مدنى... إلخ.

وعبر الاوروبيين يجد المرء احيانا اشياء غير مألوفة فى الحوانيت، منها على سبيل المثال الشمبانيا والنبيذ الفرنسى الاحمر وحتى النبيذ الابيض. وهناك خمر كالفيرموث صارت منذ زمن شراب الاوروبيين والاتراك. وفى عام 1851 وجدت ولاعات من الشمع فى يد احد

السـودانيين وكان مغتبطا بها. ويـكثر الغش فى حالة البضـائع الاوروبية؛ فالسـاعات المطلية بـالذهب تبـاع باعتبـارها سـاعـات من الذهب الخـالص. وبالطبع فان الذين يقومون بالغش فى هذه الحالات هم الاوروبيون.

ومن اهم محـاصيل الـبلاد البن والـصمغ الـعربى وسن الـفيل. ويأتى الـبن من الحبشـة، وهو جيد لـلغاية، لـكنه اقل اهمـية بالمقـارنة الى الصمغ والعاج.

وياتى الـعاج فى معظمه من النيل الابيض ويـباع للانجليز عـبر ميناء سواكن على البـحر الاحمر، او من القاهرة الى اوروبا. وقديما كانت تقلى ودارفور تـزودان الـخرطوم بعـاج وفير، لكن واردهـما قل الآن. وكما قال لى الـتـاجر الاوروبى كـونـتـاريـنى فى الخـرطـوم فان الـتـجـار المحـلـيين يفرقون بين الانواع المختلفة لسن الفيل.

ويـنتج الـصمغ العـربى بشـكل اسـاسـى فى كردفـان ومنهـا يـحمل الى الخرطوم. وكيفـية انتاجه انه يتفتق بـعد موسم الامطار كسائل من انواع مختلفـة من اشجار الهشاب، ويتجمع فى شكل كرات بلون الماء من فروع وجـذوع هـذه الاشـجار، ثـم يجـف تحت الشـمس ويـكـتـسب لـونـا داكـنا لامتصاصـه الكربون من الجو، ويمكن جمعه بعد ذلك. ويسـتخدم الاهـالى ادوات حديـدية او خـشبـية فى لـقيط الـصمغ، ويـخلـطون الـصمغ الجـيد والـردئ ويبـيعـونه للـتجـار الذين يـجوبـون البلاد فى جـمـاعـات لشرائه. ويعبا فى سلال عبوة طنين عـربيين، وتـحمل كل سلتين(قفتين) على جمل عبر الخرطوم او دنقلا الى القاهرة. ويفـقد الصمغ اثناء ترحيله 12٪ من وزنه بسبب تبخر الماء الذى بداخل كرات الصمغ.

امـا بقـية المحاصـيل فـهى، باسـتثـناء الرقـيق والمـاشية، اقـل وزنا مما ذكـرنا. ويـستجـلب خشب الابـنـوس وخشب الـسـنط، ويعد بـشكل خاص

لاعمال النجارة والزينة، ويصدر الى مصر.كما يصدر السنامكه وريش النعام والتمر هندى، وجلد فرس البحر ـ القرنتى ـ ولكن ذلك كله يتم بشكل عفوى. لكن تجارة الرقيق واسعة، ومع الاسف فإن الاوروبيين المقيمين فى الخرطوم يشاركون فيها بشكل كبير.

ولا اريد هنا ان اخوض فى طريقة وكيفية هذه التجارة المحطة للانسان، بل اكتفى بالحديث عن نوعية واسعار الرقيق.

انهم يميزون بين الرقيق وفق قدراتهم الذهنية ويقسمونهم الى احباش ومن دارفور وتقلى وتابى وشلك ودينكا، ويفضلونهم على هذا الترتيب الذى لاحظته. والاناث اغلى من الذكور. والخصيان اغلى منهما معا، ولذا يفضلون الاتجار بالرقيق الاناث. وقد وجدت اناسا يقومون بعملية الخصى، والتى لا تنجح الا بنسبة 75%.

ويتم تصنيف الرقيق حسب العمر والجمال والقوة البدنية والاستخدام. وفى الخرطوم يكلف رقيق الشلك او الدينكا مائتين الى اربعمائة قرش، ورقيق دارفور وجبال تقلى او تابى يباع باربعمائة الى سبعمائة قرش. اما الاحباش - القالا والمكادى - فيكلف الواحد منهم ستمائة الى الف واربعمائة قرش. والانثى اغلى مرة ونصف من الرجل. وتباع الحبشية بستمائة الى الفى قرش. واذا قورنت هذه الاسعار باسعار الماشية نجد انها متماثلة. فالجمل العادى يباع بمائتى قرش الى اربعمائة قرش، والهجين الجيد البشارى بثمانمائة الى الف ومائتى قرش.

ويجرى البيع فى البازار، ويقام مزاد عادة ما يكون فى ايام الجمع، فيجلس القاضى وكتبته بينما يحتسى التجار قهوتهم فى دكاكينهم. ويقوم الدلال بالمزايدة على المعروضات للبيع، رقيقا كانت ام ابلا او

حميرا او خيولا. ويمر بها رافعا عقيرته بالسعر. ويبلغ اعلى سعر لصاحب البضاعة. واتعابه 2% من الحكومة، و5% من الافراد من قيمة البيع. ويرى الدلال سائرا محملا باكثر من عشرين قطعة للبيع، وكانه بهلوان يحملها على ذراعيه وكتفيه او فى جيوبه. وتفرض الحكومة رقابة شديدة على الدلالين. واذا اتضح غشهم عاقبتهم بصرامة. ولهذا يخافون السوط ويضطرون الى الامانة.

هناك مدينتان أخريان، بعد الخرطوم، لهما اهمية تجارية، هما المسلمية والابيض، عاصمة كردفان. وسأروى الكثير عن الابيض فى رحلتى الى كردفان. اما المسلمية فهى بالقرب من ولد مدنى، واهميتها فى مجال التجارة مع الحبشة.

والتجارة فى داخل افريقيا هى الشئ المشترك والموحد بين الشعوب. وكل الحركة والمواصلات الموجودة هى لصالح التجارة، ولذلك فهم يحافظون عليها. وللحكومة طريقان فقط للبريد، احدهما من الخرطوم الى القاهرة، والآخر من الخرطوم الى الابيض. وقد حسنهما لطيف باشا بحيث اصبح الجواب يصل من الخرطوم الى القاهرة فى بحر 25 يوما. وما اعنيه بتحسين البريد ليس بناء طريق، اذ ليس هناك طرق بهذا المعنى فى افريقيا، وانما قصدت تنظيم وضبط مواعيد عمال البريد. ويقوم من الخرطوم اسبوعيا اثنان من الهجانة يومى الثلاثاء والجمعة، بالبريد اليى مصر، ويبلغان بربر المخيرف فى خمسة ايام، ثم بعد 12 او ثلاثة عشر يوما يبلغان كورسكو، وبعد 16 او 18 الى أسوان، حيث يسلمون البريد والرسائل. ويمنح رجال البريد راحة كل يومين، ويستخدمون ابلا بشارية سريعة. وهذا النظام بالمقارنة الى اواسط افريقيا يستحق الاشادة. وانا شخصيا لم افقد أى بريد خاص بى.

طقس الخرطوم وأمراض السودان

ان طقس الخرطوم من أردأ انواع الطقس بالنسبة للصحة. وتقول الاحصائيات ان 80% من الاوروبيين الذين يضطرون للاقامة سنوات عديدة متصلة بالسودان يموتون اثناء تلك الاقامة.

ان موقع المدينة نفسه بين نهرين يغمران الشواطئ بالماء زمن الامطار هو بالنسبة لنا فى اوروبا دليل على عدم مناسبته للصحة. ونسبة الوفيات فى المدينة اكثر من اى مدينة فى مثل موقع الخرطوم فى اوروبا. ان طقس السودان ضار بصحة الانسان وحتى الاهالى السود يعانون منه معاناة البيض.

وامراض السودان فتاكة، تقضى بالموت فى ساعات قلائل. وتكثر فى مواسم معينة من السنة لكنها تجتاح البلاد كاوبئة فى كل ايام السنة.

ويمكن تقسيم مواسم السودان الى موسمين: موسم الجفاف وموسم الامطار. وليس بينهما اى موسم انتقالى، فالواحد منهما يتبع الآخر فجاة. والخريف هو موسم الامطار عند العرب، ويبدأ فى يونيو او يوليو ويستمر حتى منتصف اكتوبر. وتكثر الامطار فى الجنوب عنها فى الشمال. ويبث الخريف الحياة فى كل شئ، فهو يكسو الخلاء الجاف المحترق بكساء جديد غنى بالزهور والعبق.

فى شهرى مارس وابريل عندما ترسل الشمس اشعتها عموديا على السودان وتكاد ان تبلغ ذروة حرارتها، تبدأ الرياح الجنوبية فى الهبوب بشكل قوى ومتصل، وكانت الرياح قبل ذلك شمالية. وتزيد هذه الريح الجنوبية الحرارة، وتصبح ذات طبيعة كهربية، يضيق معها تنفس الانسان وتخيف الحيوان وتجفله. وهى الرياح التى تسمى السموم فى الصحراء، وتعرف فى مصر بريح الخماسين لانها تهب خمسين يوما،

وهى رياح مهيبة يخشاها الجميع فى المنطقة الاستوائية اذ تبدو وكانها تريد افناء الطبيعة باسرها. ولا يمكن لقلم ان يصور الزوبعة الرعدية فى المناطق الاستوائية، فهى ظاهرة طبيعية طاغية ومخيفة. وساحاول ان ارسم صورة لها:

تنذر السماء بالرعد، وتتجمع زوبعة ملؤها مطر سحاح. ومن شرفة منزلنا الطينى العالية نرقب تبدل الجو. والجو خانق، لا نسمة هواء به، ولا حركة فى اوراق الاشجار، كل شىء ميت جامد. وشوارع المدينة قد اقفرت، وصالات السوق قد اغلقت كما المكاتب الحكومية، وعاد الجميع الى بيوتهم. حتى الكلاب النابحة ابدا، المتعاركة دوما، ترقد الآن فى سكون، ويسكت الطير الذى يدس نفسه فى اغزر موضع بالاشجار، ويخيم سكون جهنمى هو السكون الذى تعقبه الزوبعة المتفجرة فجاة فى الطبيعة.

وفى البعيد تتجمع السحب الداكنة الملتهبة، وكانها سحب نارية فوق مدينة محترقة او غابة مشتعلة. وتمتزج الوان حمراء قانية وبنفسجية وارجوانية وبنية وسوداء وصفراء وزرقاء داكنة فى لون واحد مخيف داكن. وكلما زادت السحب دكنة، زادت السماء ظلاما. وتتمدد السحب وتتركز الوانها ويسمع صفير، وتزداد سخونة الجو وضغطه، ويصبح غير محتمل، يحس فيه اشجع الرجال بتسارع ضربات قلبه واضطرابه لاضطراب الطبيعة. ويصبح الافق ضيقا فضيقا، وتطغى السحب المظلمة التى لا يخترقها بصر على كل شىء وتستر كل مرئى. وفجاة تضطرب فروع اقرب الاشجار الينا بصورة فظيعة. لقد بلغتها الريح فى دفعات عديدة ثم فى قوة متزايدة. وفى دقائق قليلة تجثم العاصفة وتصير زوبعة تهب فى قوة لا مثيل لها، ويعلو دويها فوق كل صوت، وتطغى كل

انواع الاصوات: الصفير والخشخشة والعويل والزمجرة، وتضطرب الاشجار وتميل وتميل وتحنى قممها الى اسفل وتسلب آخر اوراقها وتئن جذوعها وتكركر وتنكسر. وكانما الطبيعة فى عراك مع نفسها، وكانما الزوبعة تريد ان تخلخل ثبات الارض وتزعزعها، فهى تعوى من شقوق الارض وتكتسح التراب والرمل وتقذفه فى قوة عبر فتحات الابواب والنوافذ الى داخل الحجرات وتغطى كل شئ بالتراب.

وكنا قبل وقت بعيد قد اخذنا اماكننا داخل البيت، اذ الويل للمسكين الذى يبقى فى الخارج او الذى يداهمه هذا الاعصار فى العراء. ولكن البيت ايضا لا يطاق. فقد خيم ظلام خانق اضطرنا لايقاد المصابيح لان التراب المخيم الذى يطوقنا تتعذر معه الرؤية.

وفجاة يدوى الرعد ويزمجر. ولا يرى اى برق، اذ سحب التراب الكثيفة الداكنة تحول دون رؤيته. ويزداد هدير الرعد فى فوضى الضجة العامة، ثم. تتقاطر حبات منفردة من المطر، حبات غلاظ. ثم تزيد. وتسيل. وتصمت الزوبعة العاصفة وتنتهى الموسيقى الجهنمية. واللآن نستطيع ان نرى وميض البرق فى دفقات متصلة، وهو لشدته يؤلم العين ويضطر الى اغماضها، ويستمر زئير الرعد، ويسيل المطر كالنهر، وقد غسل معه كل التراب، وملأ السقوق ببرك من الماء واغرق الشوارع، فسالت بماء جرى كالانهار، وتجمع فى برك فى الساحات العامة، برك بعمق يبلغ الستة اقدام.

وهكذا يستمر هذا الجو ساعتين او ثلاث، البرق يسطع، والرعد يرزم. ثم يبدو وكان المطر قد توقف، لكن الريح تشتد بعد حين وتسوق الغيوم المطرة، تدفعها فى سرعة جنونية، ويسطع البرق متباعدا، ويضعف الرعد، ويتوقف هطول المطر. ولا تزال الشمس وراء الغيوم الداكنة

الكثيفة، لا ترى. ولكن آن لها ان تغرب ليومها، فترسل شعاعا وتضئ وردية فوق الطبيعة التى كتبت لها الحياة من جديد.

والآن ننعم بالسكون والهدوء غب العاصفة، ونرى اوراق الاشجار الدائمة الخضرة والتى كانت لشهور مغطاة بالتراب، تبرق وتزهو بلونها الاخضر الغامق. وتعود الحياة للنباتات التى كانت تبدو ذاوية الفروع والاوراق عديمة البراعم.

وعادة ما تمطر السماء كل ثلاثة او خمسة ايام مرة واحدة، فتمتص الارض العطشى شهورا هذا المطر فى سرعة، فلا يرى للبرك المتجمعة عنه اثر. ثم تثير الريح غبارا جديدا لا يغسله الا مطر يجرى من جديد. ويصبح الجو خانقا والجسد يتفصد عرقا ليلا ونهارا، لا لأن درجة الحرارة مرتفعة، بل من اثر الرطوبة فى الجو، والتى تشل الذهن والجسد. ومع هطول المطر كل مرة يضطرد نمو النبات وتتضخم الانهار.

ومن المعلوم ان النيلين الابيض والازرق يفيضان بفضل الامطار التى تهطل فى الخريف فى شرق افريقيا الاستوائية، ومن ثمة يرتفع منسوب النيل. ويستطيع المرء ان يرى بعد هطول المطر فى الخرطوم ان النيل الازرق قد ارتفع قدما فى يوم واحد، والابيض قد تمدد على ضفتيه، وهو فى ايام الجفاف يرقد عى مسافة ربع ميل من بيوت الخرطوم، اما عند اعلى ارتفاع لمنسوبه فهو يلامس السدود المقامة امام آخر صف من بيوت الخرطوم. وحيث لا سدود يجمح النهر مسافة ثمن الميل وراء ضفته، فتتكون البرك المتقطعة فى صف يمتد بجانبه.

فى منتصف شهر اغسطس يبلغ النيل الازرق اعلى منسوب له، ثم يبدأ فى الانخفاض شيئا فشيئا حتى يكتمل انخفاضه فى فبرائر. اما

النيل الابيض فانه يبلغ اعلى منسوب له فى شهر اغسطس. وفى هذا الوقت من السنة يكون منظر مقرن النيلين بديعا، وتكون صفحة الماء ظاهرة امام الناظر من مسافة نصف ميل. وتغطى المياه كل الاراضى المزروعة الواقعة بين الخرطوم والنهرين، ولا يرى من الجزيرة الواقعة بين النهرين سوى قمم الاشجار المغطاة بكل انواع الطيور.

ورغم الحرارة الفظيعة التى تستمر من مارس الى اغسطس فان هذا الوقت هو اكثر الاوقات صحة للاجانب والسودانيين. فقط عند نهاية الخريف حين تجف الارض تحت وطاة الشمس المحرقة وتتصاعد الابخرة السامة النتنة تنشط الامراض وتشتد. ولا ينجو منها الا قلة من الاجانب، ويعانى منها السودانيون اكثر لأن اجسامهم ليست بقوة بنية ابناء الشمال. ويقينى انهم يشقون بالامراض اكثر لأنهم لا يسارعون الى العلاج فى بداية المرض.

ونسبة الوفيات بين الاهالى فى شهرى سبتمبر واكتوبر عالية جدا. ولكن ايمانهم بالمقدور والمحتوم هو الذى يمنحهم الشجاعة والجلد على الحياة عندما يطغى عليهم المرض.

ومن امراضهم الحمى الراجعة، وهى نوع من الملاريا الخفيفة، وليست خطرة اذا وجد المرء العناية الطبية، لكنها تضعف البدن فى وقت وجيز حتى ليعجز المرء عن الحركة والعمل. ويسبقها ضيق فى الصدر وخوف وصداع متكرر ثم يتبع ذلك برد شديد وتقلصات فى كل اعضاء الجسم، وغثيان وسخونة جافة، ويصبح وجه المريض مصفرا اثناء شعوره بالبرد، وتصطك الاسنان ويحمر اللسان، ويطغى النزوع للتقيؤ، ويصاب المريض بظما حاد، لكن الامعاء ترفض الماء مع تقلصات حادة فى عضلات البطن، ويصبح الجسم واهنا وفاقدا للاحساس، فيدخل

المريض فى غيبوبة، وهذيان، وهلوسة. ولا يمكن ان يظل باقيا فى مكان واحد، ويعانى فى اغلب الاحيان من انتفاخ وغازات.

وتصيب هذه الحمى اقوى الناس، لكنها تقل بين النساء منها بين الرجال. وبعد زمن يطول او يقصر تخف السخونة الجافة ويتفصد العرق من كل مسامات الجسد. وكلما كثر كان افضل. ويحس المصاب براحة عظيمة، لكنه يحس ايضا بفتور شديد، ثم يبدأ حاله فى التحسن.

واشد الحميات فتكا بالاوروبيين هى حمى سنار. ولأن البحوث عنها قليلة فان افضل الاطباء فى السودان الشرقى لا يعرفون عنها الكثير. واعراضها الصداع الفظيع المتكرر ويبوسة الجلد، والهذيان والتقيؤ والتشنجات الحادة، ثم ينتهى الامر فى اليوم الثالث بموت المريض.

وعادة ما تنتشر حمى سنار عند نهاية موسم الامطار، وتتخذ شكلا وبائيا فى بعض الاحيان، فتفتك باهل مكان الوباء. وهناك الكوليرا، وإن كانت نادرة فى السودان، ويطلقون عليها اسم الهواء الاصفر، ويخشونها للغاية.

وهناك الدوسنتاريا، وان لم يكن بنفس القدر من التفشى كما فى مصر، لكنها اقوى، وتنتهى بموت المصاب.

وضربة الشمس بالسودان رغم ندرتها اخطر مما هى عليه فى مصر. ويحدث ان يشكو اشد الناس صحة من صداع فى الرأس، ثم بعد دقائق معدودات يفقد وعيه، ويغمى عليه، ويموت بانفجار الشرايين.

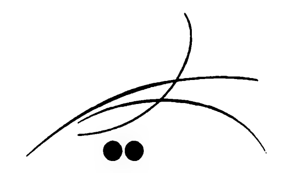
ويقال ان السيلان قد دخل السودان مع الجنود الاتراك.

ويندر ان يرى المرء مشلولا بين السودانيين او مقعدا. كما ان كل العلل والامراض الجسدية المرتبطة بالعيش الناعم المترف للشعوب المتحضرة تنتفى فى السودان.

***

6
حياة الأجانب فى السودان





فى أقاصى حدود الامبراطورية العثمانية فى وسط افريقيا نجد خليطا يمثل مختلف الشعوب، كما فى المدن الكبرى لهذه الامبراطورية الممتدة فى ثلاث قارات. وتمثل الخرطوم أقصى حدود جنوبية هامة للدول الواقعة تحت السيطرة التركية، ويحيا بها اهل الديانات الثلاث فى سلام مثلما فى الارجاء الاخرى للامبراطورية التركية. والحق ان الحدود والفوارق التى تبعد بين اصحاب هذه الديانات فى كل مكان آخر تسقط هنا فى الخرطوم؛ فلا المسيحى يترفع على التركى، ولا التركى يزدرى المسيحى كما هو الحال فى مصر او سوريا. فكلاهما يحس انه يحيا فى غربة يحتاج المرء فيها الى اخيه. وما يفرق بينهما هنا هو اللغة فحسب. والعادات السائدة هى عادات الطرف الاقوى. وقد اتفقا على افساح مكان للمصرى وهو المحتقر منهما فى غير الخرطوم.لكن هذا الحلف قد اسقط المولودين فى هذه البلاد من عضويته.

والاجانب الذين اعنيهم هنا هم الاوروبيون والاتراك والمصريون. وسأبدا بالحديث عن ابناء جلدتنا الاوروبيين. وليس معنى هذا اننى اتحدث عن ابناء وطنى، اذ ان المعنى قد توسع هنا، كما فى مصر. فعندما تكون فى الخرطوم لا تحتاج الى تقديم او معرفة طويلة لتدخل فى حياة

الاوروبيين بها. يكفيك ان تقول: سادتى.. اننى اوروبى، وخاصة ان كان ذلك باحدى اللغات التى يعرفها احد الحاضرين. وبذا يمكنك كوافد جديد ان تدخل كل بيت اوروبى هنا. واللغات الاوروبية المتداولة بين الاجانب فى الخرطوم هى الايطالية والفرنسية. وكل من تكلم بعض كلمات منها اعتبر من ابناء جلدتك، ولا يسال عن جنسيته الا بعد حديث مستفيض وطويل.

واوروبيو الخرطوم مقسورون على بناء اسرة كبيرة. وهم يجتمعون كل مساء تقريبا فى مكان للانس والسمر والتبغ والبراندى، ويأتيهم مجلد من الصحف الفرنسية مرة كل شهر تتداوله الايدى فى حرص وعناية لمعرفة ما يدور فى بلدانهم. من هذه الجرائد مادة سمر لهم وحديث لأمسيات عديدة. وتنشا تحزبات، وخاصة بين ابناء فرنسا؛ بعضهم يناصر الملكية والآخر يعضد الجمهورية. ويدور جدل عاصف حول المسائل المعاصرة، ويجد كل شعب من يناصره. ويدور البراندى وسط المتجادلين، وتسخن الامزجة، ويصبح من كانوا خصماء فى مسائل سياسية اعداء؛ وعلى المناصر للجمهورية تصب كل الشتائم والمخازى التى يكيلها الملكيون، تنذر الخصومة بالشر، فيقف الدكتور (بينى)، ويرفع كاسا من البراندى يمزجه بالماء ويهيب بالمتجادلين ان يتركوا السياسة جانبا، فيأتمر بذلك الجميع، ويهدأون ويبسمون ويتندرون ويذهبون الى منازلهم برؤوس اثقلها الخمر.

والدكتور (بينى) هو رجل السلام وسيده بين المقيمين فى الخرطوم، وهو الى جانب الأب الروحى للارسالية وقنصل النمسا، الفرنسى الوحيد الجدير بالاحترام. وهو فرنسى جمع كل فضائل امته دون ان تقعده مباذلها، ابوى فى ضيافته، محبوب اينما حل، وصديق للكل. ولم

يحدث ان احرج احدا من قومه. ويقيني انه ما من اوروبى فى الخرطوم الا وقد غفر له الدكتور بيني اساءة، فهو لا عدو له بالخرطوم. وفى بيته الذى نسميه دعابة "فندق الخرطوم" جمع الدكتور الاوروبيين الذين بكل اسف لا يشبهونه وألف بينهم. ومنزله فى وسط المدينة، وبه كل وسائل الراحة بالخرطوم.

ونجلس فى الصالة المفتوحة، فنسمع صوت الساقية فى الجنائن المجاورة، وتوقظ انغامها انغاما اخرى فى قلوب الحاضرين، ويحس المرء انه يود ان يهدى الامسية الخريفية بنفح زهرات اشجار السنط التى تهب من الشاطئ الآخر الى ربة الشعر. فيأخذ مضيفنا القيثار ويغنى جمعنا المارسليز. كلنا يغنى: الفرنسى والايطالى والالمانى والبولندى، واى اوروبى آخر. ثم نصمت. ونتوهج بالاغنية، ام بالبراندى. لا يهم.

ان تذكر الاوطان هو الرابطة التى توحد اوروبيى الخرطوم، اذ ما كان لمثل هذه الشخصيات المتنافرة والضعيفة ان تجتمع فى الوطن الام. لكن اللغة والعادات والتقاليد هى التى تجبرهم على ان يعيشوا نوعا من التجانس. ولذا فان حديثهم يدور دائما حول الوطن او اموره. وفى مثل هذه الساعات فقط نحتمل فرنسيى السودان!

يحتفى اوروبيو الخرطوم بالقادم الجديد ايما احتفاء، ويبذلون له كل ود وضيافة واستعداد لمساعدته. ولكن بعد حين يلحظ القادم ان دافعهم انانى بحت، ومحسوب. والألفة والود اللذان يجتمع عليهما هؤلاء الناس ليلا ينعدمان نهارا. فاذا تعمقنا فى حياة الاوروبى فى بيته فى السودان لاستطعنا ان نحكم عليه بشكل افضل، حيث يتكشف لنا التصدع الداخلى لهذه الرابطة المظهرية، ونرى لا شرعية حياته، ونرى ان الاوروبى هنا

هو حثالة قومه، وان المجموعة الاوروبية هنا تتكون دون استثناء من اوغاد وغشاشين وقتلة وشذاذ آفاق.

وربما صعب على المرء ان يصدق كلماتى القاسية هذه لأن بالخرطوم قنصلا اوروبيا يقوم بالقضاء، ويسعى للقضاء على الفوضى التى يحيا بها الفرنسيون. وانا لا انكر ذلك، ولكننى ارجو ان تصدقوا قولى، فقد صحبتهم حين اجتمعوا ليلا، وشربوا واطلقت الخمر ألسنتهم، وسلبتهم رشدهم. ولو كنت معى آنذاك لسمعت ما يروون من شرور اقترفوها. فالصيدلى لوميليو قد دس السم لكثير من الناس بمساعدة طبيب فرنسى. ونيكولا اوليفى الذى مثل منذ وقت امام قاض عال لجرائمه المتكررة فى الغش والسرقة وجريمة قتل علنية، هذا الرجل عذب ابنته طويلا حتى اضطرت فى يأسها ان تلجأ الى القضاء التركى طلبا لحمايتها منه.

ويتحدثون عن جرائمهم دون تفكير، فيروون عن حريمهم من الجوارى، وكيف ان الواحد منهم يملك اربعا او خمسا من الاثيوبيات الجميلات فى حريمه وانه باع جاريته حتى بعد ان ولدت له. وفى نظرهم ان تجارة الرقيق حرفة بريئة، ويقومون بها على الرغم من ان حكوماتهم تحارب هذا الشر الذى زرعه الاتراك. وهناك الكثيرون الذين يدافعون فى حماس عن تجارة الرقيق وعن تعدد الزوجات، فالحس الاخلاقى قد مات وانحط فى اوروبيى السودان الشرقى. انهم أسرى رغائبهم ونزواتهم. وكان نيكولا اوليفى سباقا فى كل شر، لكن فرنسيا يدعى بيسيير قد فاقه فى تجارة الرقيق. وكان هذا يسوق بضاعته تحت العلم الفرنسى فى سفن الى القاهرة. وقد منح اخيرا منصب وكيل القنصل الفرنسى فى افريقيا الوسطى.

استطيع ان اسرد الكثير من الفضائح التى يضمها ما نسميه بالكتاب الكبير عن فضائح الخرطوم، لاعطى القارئ فرصة النظر فيه. لكننى ارى ان القليل الذى ذكرت يكفى، وارى ان يتجه نظرنا الى العلاقات التى يحاول القنصل النمساوى الحالى ان ينظمها والتى نذكرها بالعرفان، فالفوضى التى كان يفرضها المتسلطون قد وضع حد لها، وللالمانى ان يفرح لأن الحكومة الالمانية قد اقامت اول قنصلية فى الخرطوم.

ومن الاوروبيين المحبين للعدالة من يبتعد عن الاوغاد ما استطاع. ولكن من المؤسف ان المرء لا يمكن ان يعزل نفسه بصورة كلية، وللعادة قوتها التى تجذب بها المرء الى ما كان عليه. وحتى الاباء الروحيون بالارسالية، الذين يعيشون بمعزل عن الآخرين فى منزل خاص بهم يختلطون من حين لآخر بمعتادى هذه الدائرة. ولقد اقمنا نحن الالمان على قلة عددنا مجموعتنا الخاصة، وسار الآخرون دروبهم المختلفة، بعضهم تجار، والآخر موظفو حكومة. وهؤلاء لا يقومون بشئ، اذ يتركون عملهم لمرؤوسيهم ويعيشون حياة انحلال وفساد ويقوم رقيقهم بخدمتهم. ومن حين لآخر يقومون برحلة الى داخل البلاد، او الى القاهرة.

روليه، مثلا، يقوم برحلة الى بحر العرب، ويقايض الاهالى هناك تجارة. اما نيكولا اوليفى فهو فى العموم يتاجر مع كردفان، ويعمل بتجارة الجملة بالخرطوم. ويقوم القساوسة بواجبهم الاسبوعى ايام الاحد فى الكنيسة الصغيرة، وفى اثناء الاسبوع يدرسون ابناء المسيحيين. وهناك آخرون لا حرفة لهم تعرف، ومع ذلك يحيون.

وهم فى ملبسهم ومأكلهم ومشربهم اقل حظا من الاتراك، لكنهم اشد بذخا. فالاتراك فى الخرطوم يحافظون على عاداتهم وتربيتهم؛

يضعونها نصب اعينهم. وقد اخذ الاوروبيون عن الاتراك نظام حبس النساء وتعدد الزوجات. ان جوارى نيكولا الحسناوات حبيسات الحريم مثلهن فى ذلك مثل جميلات الاتراك. وحتى ابنة اوليفى المصفرة وجه كالبدر، واسمها جنويا، وقد رايتها فى القاهرة، ما كان يسمح لها بمغادرة حوش الحريم.

وعموما فان الاوروبيين قد اخذوا كثيرا من عادات الاتراك، وبينها عادات طيبة، ولكنهم فقدوا كثيرا من عادات بلادهم الحسنة. وبذا فهم ليسوا افضل عما كانوه. لقد فقدوا اوطانهم، وفقدتهم اوطانهم. وهم لا يتعاملون والصالح العام نصب اعينهم، وانما مصالحهم الخاصة. ولا يتوقع المرء ان يجد بينهم من يهتم بالبحث العلمى او الملاحظة العلمية، فطموحهم ينحصر فى تأمين دخلهم وعيشهم الطيب. وقد فقدوا الاحساس بالفضائل، فصاروا يغرقون فى السكر. فان وجدنا فيهم مرة احساسا بشىء نبيل، فانما ذلك آخر نفس من السعى لحياة افضل جلبوه من اوطانهم.

ان حياتهم فى الخرطوم بائسة تماما وخالية من اى آصرة للصداقة او الحب. وربما احسوا بذلك احيانا واشتاقوا الى تفتح الحياة فى اوطانهم؛ لكنهم مقيدون بلا فرصة لفكاك بحياتهم ووجودهم هنا، ولا يستطيعون إن عادوا أن يحيوا بالعادات التى فطموا عليها فى اوطانهم، ولن يحسوا بعد فقدها بالراحة. ولذا فهم باقون فى غربتهم التى لا بهجة بها؛ وعندما تصرع الحمى احدهم، يتجمعون ويحملونه ليدفن فى رمال الخلاء، ويكرون سريعا الى منزله يقتسمون ممتلكاته على رنين الاكواب. ولا صديق هناك يبكيه، لأن من لم يحظ بالاحترام فى حياته لن يناله بعد موته. وبعد سنين ينسى اسمه.

تلك هى حياة الاوروبيين فى الخرطوم..

لقد ذكرت ان اتراك السودان الشرقى هم الذين يتبوأون اعلى المناصب. وهناك بعض العثمانيين العاملين فى التجارة، وآخرون فى المنفى، لأن عباس باشا ينفى كل من يعارضه، إما الى الخرطوم او الى قيسان، حيث جبال الذهب. وكما فى مصر، فإن الاتراك هنا ليسوا من استنبول. فالاسم يشمل كل القوقازيين من شركسى وجورجى واغريقى وبوسنى وسلافى. لكن الفرس يتميزون عن هؤلاء جميعا ويختلفون. وفى اغلب الحالات تبعث الحكومة المصرية الاتراك الى السودان للادارة. اما التجار فان دافعهم فى الهجرة الى السودان هو الرغبة فى الاثراء.

وطبيعة حياة الاتراك لم تتأثر كثيرا فى السودان. ولذا سأتحدث عن حسن الضيافة الذى يتميزون به اكثر من اى شئ آخر هنا. فالتركى الذى يعيش هنا وحيد فى اعماقه؛ فالكاشف منهم او القائمقام يحيا عامه كله وحيدا فى قرية وسط الادغال، او فى الصحراء. وبعد حين يسأم القائمين على خدمته، وهم قلة، ولا يجد فيهم سلوى، ويحن الى السمر والناس. ولذا يبتهج عندما يأتيه ضيف، ويقوم بواجب الضيافة فى سرور بالغ، ويحاول ان يؤجل رحيل ضيفه بكل وسيلة ممكنة، فيقدم له ما طاب من اكل وشراب، ويحقق له كل امنية، ولا يفارقه الا اسفا.

ويكفى المسافر ان ينزل عن دابته عند منزل التركى فيدخل الى حجرة الاستقبال، ويقول: " السلام عليكم "، ويتخذ مقعدا فى الديوان. فيقوم صاحب البيت مجيبا: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. مرحبا بكم" . هذه الكلمات تكفى لتمنح الضيف كل حقوق الضيافة، أيا كان الضيف، فلاحا او سودانيا او اى شخص آخر.

واذا جاء المرء على ظهر جمل او سفينة الى مدينة صغيرة، فان الادارى التركى سرعان ما يأتيه للترحيب به، واحيانا تكون هذه

الزيارات مضنية، ولكن لا يمكن تجنبها. ان لعبة التعرف الى الاجنبى بدافع حب الاستطلاع ليست معروفة هنا. فالتركى الذى قضى عاما فى عيشة ضيقة يتوق الى كل جديد يخرج حياته من رتابتها. ولذا فهو يأتى الى السفينة، ويشرب القهوة، ويدعو الغريب فى النهاية وفى لباقة ان يرد الزيارة. ويلبى الزائر الدعوة، فهو ايضا يريد التغيير، ويجلس لتدخين التبغ ومعرفة شيء عن المكان، ثم يعود راضيا الى معسكره، او سفينته. ما اطيب عادات الاتراك وهم يقومون بضيافة الغرباء فى بلد لا توجد به اماكن عامة.

وتقضى حقوق الضيافة على التركى ان يعود هذا الغريب قبيل سفره، حاملا اليه الزاد، خروفا كان او خبزا او اى زاد آخر، ويصحبه فى الطريق، ويتمنى له رحلة سعيدة فى رعاية الله.

ويعيش العرب القادمون من مصر فى مدن البلاد فقط ان لم يكونوا جندا او اصحاب وظائف عليا. وهناك يقومون باعمال حرفية. فهم فى الخرطوم يصنعون الاحذية والاسرجة، ويقومون بصبغة الزراق، واعمال الحلاقة وعمل البن وصنع خراطيش الصيد، والاطعمة والخبز. ويمارس بعضهم التجارة، ومنهم رجال الدين. ومع انهم لا يحافظون دائما على عاداتهم وتقاليدهم، الا انهم يعتبرون انفسهم فوق النوبيين اوالسودانيين. ولهم حيهم الخاص بهم فى الخرطوم، وان كان موقعه وسط منازل الاهالى. ولهم فى البازار قهوة خاصة بهم، هى قهوة اولاد مصر، وبها صارت الحياة فى عاصمة المملكة ممكنة لهم. وهم يقومون بالاعمال الهامة، وبفضلهم حلت مشكلة الخبز الجيد، اذ كان الاجانب فى الماضى مضطرين الى اكل ما يخبزه الاهالى، ولم يكن مستساغا. اما الآن فيمكن شراء الخبز المصنوع من القمح.

ويوجد المصريون كخدم فى بيوت وجهاء الاتراك، ومع ذلك، هم فوق الخدم السود والرقيق. وتؤهل المصرى لذلك قدراته، فهو، وقد فارق وطنه، خادم يؤتمن، مجود لعمله، حاذق فيه، ومجد. وبينما يقوم النوبيون بخدمة المصريين فى مصر فان المصرى هوالمقدر للخدمة هنا.

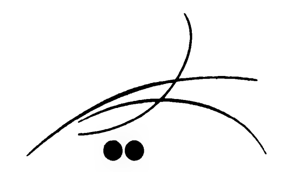
ويلبس المصرى ازياءه التى اعتادها، ويتميز عن الاهالى بنظافته. وعندما يرغب المصرى فى السودان فى الزواج فانه يبنى منزله قريبا من منازل ابناء جلدته، ولا يتزوج الا منهم كلما كان ذلك ممكنا. ولذا فان الفتاة المصرية الجاهزة للزواج مطلوبة جدا فى السودان، ويعتبر المصرى نفسه محظوظا وسعيدا ان وجدها. وهو يعلم ابناءه القراءة والكتابة وينشئهم نشاة افضل من اطفال السودانيين. وهو مثل الاوروبى يوثق صلاته مع ابناء بلده.

وما على المرء الا ان يستمع الى المصرى وهو يتحدث عن القاهرة ليدرك عمق حنينه لوطنه. ولذا يتجمع المصريون كل مساء للحديث عن القاهرة وتبادل المشاعر. وبعد صلاة المغرب يذهب رجالهم الى السوق ويبقون حتى وقت متأخر من الليل يقضونه فى السمر العذب والحديث وشرب القهوة الحادقة ويعودون نشيطى الذهن والبدن الى منازلهم الفقيرة ويزاولون فى الصباح اعمالهم بأمل ان يجتمع ابناء البلد فى دائرتهم الامينة. وبذا يحاول المصرى من يوم لآخر ومن عام لعام ان يعزى نفسه، راجيا الاقدار ان تعيده يوما قريبا الى وطنه.

وربما كان السود القادمون حديثا من غاباتهم يعانون من الحنين للعودة اليها. ولا يمكن لاحد ان يحس ذلك، فهم ايضا غرباء فى هذا المكان الذى اقامه الاتراك. لكننى لا استطيع ان أتحدث عن غربتهم وحياتهم هنا.

***

7
الرق وحملات الاسترقاق



لقد انتهى كفاح شعب السودان ضد الحكومة التركية المصرية، ولكن معركته ضد العبودية والرق ما زالت مستمرة، وستدوم طويلا ما دام الانسان الذى ولدته امه حرا فى وضع للدفاع عن اقدس ما وهبه الله له، وما دامت هناك الشجاعة والعزيمة التى تحتقر الموت وتقف فى وجه المكر والدهاء والاستهتار بالشرف، والطمع والاستعباد.

والرق يعنى بالنسبة لى كل تلك الشعوب الحرة التى اعلنت عليها الحكومة التركية الحرب بشكل دائم لانها تريد ان تسترق اقوياء رجالها او تسبى حسناوات نسائها، لأنها لا تنظر اليهم الا كما ينظر الانسان الواعى المتعلم الى قطعان ماشيته، ولانها وجدت اناسا مستعدين لشراء الناس. وقد وقعت نكبة النظر الى الانسان كسلعة تشرى وتباع على قبائل الحبشة والقبائل الزنجية المختلفة فى الاصقاع الجنوبية للنيلين الابيض والازرق.

ولنعد القهقرى قبل الخروج مع الغزوة فى الغابة، الى سوق النخاسة فى مصر. فالزائر لعاصمة هذه البلاد فى أيامنا يسأل اول ما يسأل عن سوق النخاسة. وبعد ان يرى فى ايام قلائل كل ما هو رفيع ورائع، وبعد ان يرى الاهرامات، احدى عجائب الدنيا، ولا تفارقه الدهشة والروعة بعد

ان يرى قبور الخلفاء ومدينة الموتى، ولا يزال به سكر من طقس البلاد وشمسها الساطعة دونما سحب على الدوام، والجلبة والحركة والاصوات فى شوارع مدينة المسلمين، يعرج المرء الى سوق النخاسة ليشبع حبه للاستطلاع. ولحسن الحظ فإن السوق بسبب الازدحام والحركة قد انزوى فى شارع مقفر وساكن. وفى مبنى متقادم يجد الداخل الى السوق نفسه امام "وكالة العبيد"، ثم يرى خليطا من الساحات والاصطبلات والحجرات والغرف تتسع امامه. ومن المدخل يرى البضائع امامه. اذ يجلس فوق بروش رديئة الصنع والضفير ابناء الجنوب السود، بثياب مهلهلة، يعرضون انفسهم للمشترين. ويرقد الجلابى فوق عنقريب ويدخن غليونه[شيشته] فى هدوء واسترخاء ويدعو القادم الى معاينة الفرخات. فاذا كان القادم قد جاء مشتريا حقا، فان النخاس ينهض ليرافقه الى مكان العبيد، ولا يحرجه سن او جنس وهو يطلب اليهم ان يروه اسنانهم مثلما يفعل باعة الخيول فى ألمانيا، لكى يحدد عمر ونفع كل واحد منهم. ويعاين المواضع المختلفة من الجسم وحركاته، ثم يطلب منهم ان يخلعوا ما عليهم من ملابس ليقوم بفحصهم بلا احساس وفى بربرية متلذذة بما تفعل. ولا بد لهذا الفحص ان يحرج بعمق ويثير مشاعر اكثر الناس توحشا.

ويحدق العبيد فى المشترى وكأنهم بلا احساس ودون ان تطرف لهم عين او تختلج حاسة، ويلبون اوامر الجلابى دون ان يبدو عليهم احساس بالالم، تاركين انفسهم لكل ما يفعل بهم. ومع ذلك فإن مجرد نظرتهم، هو للاوروبى امر شنيع. فهو يرى امامه انسانا يشبه الحيوان ويعامل كالحيوان. ويثير ذلك فيه الغضب للكرامة الانسانية، فيستدير خارجا تاركا الوكالة.

لقد رأى سوقا يعامل فيه العبيد معاملة رقيقة وانسانية بالمقارنة الى اسواق دواخل افريقيا. لقد رأى بعضا من الملامح الوضاءة فى لوحة الليل. وفى السودان فقط سيرى الرق بكل قبحه، اذ هناك سيرى صيد العبيد.

الاسترقاق والسخرة المؤلمة والعسف بالعادات المحلية وتفكيك الروابط المقدسة والعبث بالشرف وطمس ارفع المشاعر هو ما ينتظر الحبشى او الزنجى عندما تقترب من دياره الغزوة او جموع العرب المتطية جيادا سريعة كالنسور، فلا عجب ان واجهوها بجسارة ودخلوا معها فى قتال دموى شرس، وقاتلوا قسوة الاتراك بقسوة مريعة. فالحكومة التركية تريد استرقاق الناس لتعطيهم للقائمين بالادارة عوضا عن رواتبهم، ويريد العرب الرقيق كخدم ليقوموا بكل ما يراد منهم، لاستغلالهم او للاستفادة منهم كسلعة. ويعرف الاسود او الاسمر من الجبال او الغابات مصيره، ويعرف كيف يدافع عن عشيرته، ويفعل ذلك. ولم يعد صيد العبيد اليوم سهلا كما كان فى الماضى حينما كان الزنوج لا يدرون ان عدوهم اللدود ليس بمخلد. فاليوم يقع فى الاسر من الجنود اكثر مما يقع من اعدائه.

ومنذ زمن ليس بالبعيد كان ابن الغابة ينظر الى البيض باعتبارهم لا يمكن مسهم، وانهم مؤلهون، وانهم الربوبية نفسها، او مخلوقات تشبه الشيطان. وفى عام 1851 كان الايطالى التاجر نيكولا اوليفى Nicola Ulivi المقيم فى الخرطوم والمعروف فى كل شرق السودان كوغد ولص وقاتل، قد قاد الحملة التجارية التى كانت تقوم سنويا من الخرطوم الى النيل الابيض للتجارة بالمقايضة مع قبائل الدينكا والشلك والنوير الخ.. ولم تشبع فى الايطالى الارباح الطائلة هناك جشعه، وقد حدث ان نشبت مشاجرة اثناء المعاملات

التجارية بين احد بحارته ورجل من بلاد كيك Kihk وكان واحدا من بين آلاف كانوا قد تجمعوا بالقرب من الباخرة. وكان الرجل قد ظن، وبحق، ان البحار قد خدعه. وقد تذمر الرجال من الشاطىء على ظلم البيض. فخاف نيكولا ان تكون بضائعه فى خطر، واراد ان يظهر بأسه وقوته للسود، فامر خمسين جنديا من السود الذين كانوا يرافقون حملته التجارية ان يطلقوا النار على المتجمعين على الشاطىء، فسقط اكثر من عشرين منهم عند اول اطلاق نار. وقد كان لذلك اثر كالزلزال على الناس، واحسوا وكأنهم امام قضاء الله الذى لا مرد له، فانحنوا مستسلمين.. وما كانوا يعرفون الاسلحة النارية..

ولكن ليست كل القبائل الزنجية اليوم فى جهالة من امر البيض وسلاحهم النارى مثل الكيك. فالشلك والنوير والدينكا واهل دارفور والتابى والحبشه يعرفون اى عدو ذاك الذى يقف امامهم. وبعد ما عرف الزنجى انه يحارب شخصا يموت مثله، فانه اخذ ينتصر على البيض فى كل مرة. ولذا اصبحت عملية الغزو لجلب الرقيق اكثر خطرا وصعوبة، وندرة.

وفى نفس السنة التى شهدت المذبحة التى قام بها نيكولا جهز لطيف باشا بأمر من الخديوى غزوة ضد تقلى، وكان ذلك الامير الشجاع، اذ كان جديرا بهذا اللقب، قد صمم على الثأر من اعداء شعبه. فقد رفض مواصلة دفع الجزية التى فرضها الاتراك بعد معارك ناجحة على بلاده. وقد شن هجوما على منطقة الاتراك فى مديرية كردفان، وخرب عددا من القرى وسلب قطعان الماشية وقتل اناسا واخذ آخرين اسرى، وباختصار اخذ ثأر عدد كبير لا يحصى من شعبه كانوا قد شقوا بقسوة الاتراك. وعليه كان لا بد من تأديبه. فجهز لطيف باشا جيشا ضخما لغزو تلك الاصقاع به اكثر من ألف عسكرى من الزنوج من النيل الابيض، وهم من بيت لدود فى عداوته لاهالى تقلى، واربعمائة من فرسان الارناؤوط.

وكان مثل هذا الجيش يعود بخمسمائة او ستمائة من الاسرى، ولكنه هذه المرة هزم تماما. ولم يعد من الاربعة عشر الفا غير ثلاثمائة. فقد فأجاهم ملك تقلى بما لم يكونوا ينتظرونه: بالاسلحة النارية، وبجيش مدرب على استعمالها. وكان كل من يفر اليه بسلاحه يعطى عشة وزوجتين، وسكنا بين اهله من قبيلته. وقبل ان تقع المعركة نفسها كان مئات من الزنوج العساكر قد فروا من صفوف وحداتهم وانضموا الى العدو، وهو ملك تقلى. وكان الاتراك بقيادة محمد اغا، الاعور الذى يمقته كل جنده. وكان سيد القيادة. وقد اضطر رغم شجاعة وبلاء الارناؤوط على الانسحاب من المعركة تماما. فقد وجد محمد اغا فى ملك تقلى ليس ندا فحسب بل مقاتلا اكثر كفاءة وتفوقا. فكان محمد اغا هو الذى اظهر جبنا واضحا فى المعركة، وملك تقلى هوالذى ابلى بلاء حسنا. ولم يبق لمحمد اغا من المائة فارس سوى خمسة رجال فقط.

ان الغزو للرقيق يماثل حرب العصابات تماما. فالطرفان يسعيان بالمكر والقسوة للتفوق على احدهما الآخر. وساحاول ان اصف غزوة كما رواها لى رائد تركى صديق لى، ولا اشك فى صدقه.

يتم تجميع الغزوة. وتكون الاسلحة ووسائل الدفاع فى احسن حال. والجنود فى روح عالية. وتحمل الاثقال على الجمال، وبينها اغراض الجنود وصناديق الذخيرة. ويتحرك الجنود فى مهل الى مقصدهم حتى يبلغوا حدود الاراضى الواقعة تحت السيطرة التركية، ويدخلوا منطقة السود الاحرار، وتنقسم الحملة، وتتحرك فى مشقة عبر الاعشاب المتسلقة واشجار الميموزا الكثيفة، وتصبح الغابة اكثر كثافة كلما تقدمت الحملة. ولا يظهر لها اى عدو. وتكون القرى التى يتفق ان تمر بها الحملة صدفة خالية تماما. فتحرق. وتستمر الحملة فى شق طريقها فى الغابة

وتـزداد المصـاعب: فـالجمـال التى لاتـألف هـذا الجو الـغـريب تسـقط، اما بـسبب آلاف الـذباب الذى يقـرصـها، او الاعـشـاب التى لا تـصـلح لـغذائها. ولا يـسـتـطـيع الجـمل ان يـعـيش جـنـوب خط عـرض 13 درجـة، فـتوزع الاحمال على الجنـود، وتبطىء حركة الصفوف. ولقد ظلوا يسيرون اياما ولم يلـمحوا العدو بـعد. ولكن شـخوصـا داكنة ظلت تتـابع حركة زحفهم. فـمن شـجـرة الى شـجـرة، ووراء كل جـذع يرقب رجـال سـود كل حـركة تأتيـها الحمـلـة، ويحصـون او يقدرون حـجم قوتهم الـضـاربة، ويـعلمون اهالى قبيلتـهم بالنتيجة الـتى خبروها. واخيرا يلـمحهم الكل. وتكفى عدة طلقات لترويع الزنوج، وابعادهم.

وتـزحف الحمـلة غيـر المعروفـة خلال الغـابة الكـثيـفة، وقد حـاقت بها المصـاعب من كل نوع، وبجنودها الذين ارهقهم المسير عبر غابات كثيفة. وقد اضطروا إلى ترك المدافع. ويصل المحـاربون وهـم متعبون ومرهقون الى بقعة منفتحة ومناسـبـة لاقامة معسكر. وبعد فترة من الراحة قصيرة تبدأ حـياة نـشطة. فـالفـؤوس ترتـفع لتقطع اشجـار الميـموزا وتسـتخدم افـرعهـا الشـوكية فى صـنع الزريـبة لحمـاية المـعسكر، ويخـصـص مكان صـغير للكتيبة التى احتشدت معا. ويهبط الليل بظلامه على الغابة. ويقوم جـنود مؤتـمنون مـصـريون بالحـراسة فى صفـين، والسـكون عميق. وما زال الـليل فى اوائله سـاكنا ومظـلما فى الغابة. وستـبدأ اصوات الليل فيما بـعـد فـيسـمع فى الـبـعيـد هـدير الـفـهـود وصـدى طـائـر الاوهـو ونـقيق الضـفادع، وطـنين حـشود الـبعـوض، وتطـير مـئات من الخـفافـيش فوق رؤوس القائمين بالحراسة.

" الاتسمع يا اخى، الا تسمع خشـخشة هناك فى الغابة؟ الا ترى ذلك الشخص الأسود؟ ".

" لا بد انه المرفعين. لا تطلق عليه النار فقد يكون احد اولئك السحرة الملاعين، اعوذ بالله من الشيطان.. يا ربى.. وقد اتخذ هيئة المرفعين. "

" الله. لعنة الله على الغابة وسكانها.. يا اخى تظلم الدنيا فى عينى. انا متعب.. متعب.. آه يا ربى. "

وبالرغم من صيحات بقية الحرس لايقاظه لا يستطيع الجندى المتعب ان يقاوم النوم. فعيناه لا تريان شيئا من شدة الاعياء. فلا يرى اولئك السود الذين يتحركون فى خفة وهدوء كالقطط فى الليل، ولا تميزهم العين، ويزحفون على بطونهم حتى يقتربوا منه. واخيرا يميزهم ويصيح: " الله اكبر. اسمع يا اخى.. هون علينا يا ربى.. العبيد.. " ولا يزيد على ذلك شيئا، فقد اخترقت صدره حربة. وينتصب امام الزريبة آلاف من الرجال السود، وترتفع صيحة حرب مجلجلة هى هدير الفهد وعواء الذئب وصيحة الموت من الاوهو منطلقة من حناجر السود، ومعها تنطلق الحراب القاتلة فى الهواء.. وحيثما حطت فى المعسكر فهى ساقطة فى اكثف تجمع للمحاربين. وتنطلق اعيرة نارية، ويندفع مئات من الجنود لحشو بنادقهم، وينطلق هدير مدفع او مدفعين، ولا تجد طلقاتها من تؤذيه. لقد اختفى المهاجمون منذ حين، تسترهم الاشجار الضخمة ومرتفعات على الارض والليل، وتصفر طلقات الجنود فى جذوع الاشجار دون جدوى غير اثناء العدوعن القيام بهجوم جديد.

وينهى الصباح المطل تلك المعركة، ويضئ نوره ارض المعركة الصغيرة. وكثير من الجنود لم يبدوا حراكا، فقد اخذهم الموت وهم نيام، واثبتتهم الحراب على الارض.. وعصيها تتأرجح فى الهواء. وآخرون يتوجعون ويعانون من آلام السهام المسمومة او ينازعون الروح، وليس هناك ميت

من السود فى ارض المعركة، فقد حمل الاحياء منهم جثث الاموات ليدفنوهم على طريقتهم او يقذفوا بهم فى امواج النهر المقدس.

وفى مثل هذه الظروف يحسن بقائد الغزوة ان يختار الانسحاب، فان جنده من الزنج قد يثورون بسبب الخيبة فى الحرب ويعودون الى اهليهم..وان كانت التدابير قد اتخذت لاخراجهم ضد اعدائهم فقط، والذين كانوا منذ نعومة اظفارهم قد تربوا على قتالهم.

اما بقية الجنود فإن شجاعة التهورتستيقظ فيهم ويريدون الاندفاع بهم لحرب العدو، فيلعنونه متناسين كل التعاليم المحمدية، يلعنون اقدارهم. ويندفع الرجال مشرعين السونكى الى قرى السود. وخلف كل جذع شجرة يستند رجل مسلح للقتال، وهنا لا تجدى الاسلحة النارية، فالقتال هنا رجل لرجل. ففى الغابة لا جدوى من البنادق او المدافع. وكثيرا ما يتغلب السود على الجنود المدربين على اصول الحرب الاوروبية. ولكن اذا فشل السود فى صد العدو واجباره على الانسحاب، فان القرية كلها تقع تحت جبروت الجنود الذين يندفعون كالنمور وينقضون على غنيمتهم. فالكبار، والمرضى والذين لا نفع لهم كعبيد يقعون ضحية للجنود الذين ما عادوا يعرفون انسانية، فيطعنونهم ويعتدون على النساء. اما غليان الرجال فقد ألجم بعد ان اخذت منهم اسلحتهم ورموا فى الزريبة. وكثيرا ما يحاولون شنق انفسهم، ولكن يحال دونهم وذلك. وتذبح نساؤهم واطفالهم وآباؤهم وامهاتهم امام نواظرهم، وحتى الحيوانات الاليفة التى لا ذنب لها تبقر بالحراب. ويمكن القول بأن الجنود السود اشد فظاظة من البيض فى هذه الاعمال.

بعد ذلك يجمع الاسرى ويقتل كل من لا قيمة له. وبعد ان يستولى المنتصرون على الماشية التى يجدونها، يعودون ادراجهم. ويتحرك ركب

الاسرى المحاصر بالجنود فى ألم وخزى وكأنه قطيع من الماشية، ويصيح القائد ان قفوا. ويستدير الجميع ليروا القرية المحترقة. ولا يهتم المنتصرون بما قد يحدث لمن كان خطير الجراح بين النيران، او امرأة تعض التراب بعد انتهاكها لتصمت آلامها وتعجز عن الحركة بعيدا عن النيران التى تقترب منها، او ان كان فى احد الاكواخ طفل يبكى دون حيلة. وتتكرر هذه الصورة فى قرى اخرى حتى يجمع عدد كاف من العبيد او يضطر الطقس الغزاة على التراجع، او تشتد مقاومة العدو. ويعود الجنود الى الخرطوم بعد ان انتصروا وحرقوا وقتلوا وخربوا.

ويتحرك الركب فى بطء. فالرجال الذين يعانون من جراح المعركة، والذين تضغط الشعبة على جراح حلوقهم، والنساء الائى يكدن يمتن ظمأ وجوعا، والاطفال، لا يقدرون على الحركة السريعة.

وقد رأيت فى الخرطوم ركبا من زنوج الدينكا قادمين. كان منظرا فظيعا ولا يمكن لقلم ان يصفه، او كلمة ان تعبر عنه. وقد ظلت صورته تطاردنى اسابيع عديدة كما تطارد صورة الرعب الروح.

وكان ذلك فى 12 يناير 1848، وكان يجلس امام دار الحكومة فى الخرطوم ما يربو على الخمسين رجلا وامراة فى دائرة على الارض. وكان الرجال كلهم مقيدين بالسلاسل، والنساء غير مقيدات. وكان الاطفال يحبون على اربع بين اهليهم. وكان اولئك التعساء تحت الشمس المحرقة ولا شئ يظلهم، ونظراتهم مائتة محزنة مطرقة الى الارض.. ودون اى شكوى او تذمر. ومن جراحهم يسيل الدم والصديد وليس ثمة طبيب ليهتم بهم. ليس لهم سوى الارض الساخنة لتستقبل دماءهم. وغذاؤهم ذرة جافة غير مطبوخة، وهو نفس عليقة الجمال. ولا يرى الناظر اليهم سوى الفظيع والافظع: النساء الامهات واطفالهن الرضع،

والامهات المرضى، وهن يرمقن بعيون دامعة اطفالهن الذين يحبون اليهن يريدون ثدى الأم، ولكن ليس بالاثداء شئ، فهى جلد مشدود على العظام.

ودخل علينا ضابط، شاويش، مصرى هوالمسئول عن الحراسة. " اسمع يا سيد.. لقد كان الله معنا فى غزوتنا، وحالفنا الحظ. تغلبنا على خمس قرى، وقتلنا اكثر من خمسمائة من الوثنيين [الكفار]. آه يا كلاب! آه يا ملاعين. يالله ارقصوا انتظروا.. ساساعدكم. "

وكان يمسك سوطا بيد وبالاخرى آلة موسيقية، واخذ يهزهما، وامر الزنوج بواسطة مترجم ان يرقصوا ويغنوا.

ذاك هو صيد العبيد الذى كانت الحكومة تقوم به علنا. فلا غرابة اذن ان يقوم افراد ايضا بالمتاجرة فى الرقيق. وفى المنطقة الواقعة بين مدينة الابيض والنيل الابيض تعيش قبيلة الكبابيش، وهى قبيلة رعوية تقوم بالسطو، وهم ايضا تحت سيطرة الاتراك. وقد اعتادوا غزو الجبال بعشرين الى ثلاثين فارسا بخيلهم السريعة القوية الاحتمال. وقبل ان يحس اهل القرى بالجبال يجدون انفسهم تحت رحمة الكبابيش، ويخطفون عشرة او اثنى عشرة طفلا قبل ان يلتقط السود اسلحتهم، ويختفون. ويظهر تجار الرقيق فى معسكرات البدو فيشترون الاطفال ويأخذونهم الى مدينة الابيض. ويصبح اولئك الصبيان جنودا او خدما، والصبايا خدما ورقيقا فى بيوت الوجهاء والاثرياء. ويا حظهم ان وقعوا فى ايدى اتراك رحماء او مصريين. والويل لهم ان كانوا من نصيب النوبة والكردفانيين او الاوروبيين. فالسوط لظهورهم قبل ان يشبوا. والواقع ان الزنجى العبد يختلف تماما عن الزنجى الحر فى وطنه فى الجبال. فالعبد مثل كل من هو خاضع وذليل وبالتالى غير متحضر

يصبح خداعا وحريصا وماكرا وسيئا. وتتحول طاقته فى العبودية الى عناد، وروحه القتالية الى خبث وطوية سيئة، وعداؤه وحبه للثار من اعداء قبيلته الى تربص وحب للثار. يصبح المقاتل السابق قاتلا مريعا. والعبد الذى لا يستطيع كسر قيوده يحاول ان يجد فرصة لأخذ ثأره ممن صنعها.

وعبد ساءت معاملته بهذه الصورة لا يستغرب منه ان يحن بدلا من التراب القاسى للارض التى اضطر على العمل فيها فى الحقل الى هواء جبال موطنه النقى عندما يرغب فى تحرير ظهره الذى شققته السياط، سياط القهر، وان يحمل الحربة فى يده الطليقة ضد الاحرار الذين ابقوه فى العبودية سنوات وعذبوه. فهو يفر ويسرع قافلا الى الغابات النضرة حيث ذووه، والى اخوته فى القبيلة. ولكن الويل له ان اخفق فى محاولة الهرب، وقبض عليه مرة ثانية. ولا يحب مالك العبيد لعبده الذى يفعل ويترك فيه ما يريد وكأنه حيوان، ان يسافر. ويالمصيبة ان مات العبد، فان صاحبه يحزن على المائتى او ثلاثمائة قرش التى تكلفها فى شرائه. وكم يغمه ان يفر واحد من عبيده. فهو يثور ويتوعده بالثار والعقوبة غير الانسانية، فيذهب الى من يقومون بما تقوم به كلاب الدم فى امريكا الشمالية ويطلقهم اثره مسلحين بالمسدسات وبنادق او حراب، ويحملون معهم سلاسل ومسامير وفئوس لكى يضعوا (الشعبة) متى وجدوا العبد الآبق الفار، ويفلحون بعد ساعات وتعقب ممض وشاق حقا ان يقبضوا العبد او يجندلوه ميتا اذا لم يستسلم. فان قبضوه حيا، اتوا به لصاحبه، فيأمر بربطه كالكلب، ويسقى الجلادون المريسة حتى السكر، ويبدأ جلد العبد. ويا له من جلد.

كنا فى قرية ملبس الحدودية فى كردفان فى شهر مايوعام 1848، وكان خادمى محمد يحشو عددا من النسور التى كان لحمها منتشرا فى

حوش عششنا. والنسور لا تأكل الا الجيف المنتنة، وهى نفسها ذات رائحة نتنة ولا تفارقها تلك الرائحة بعد سنوات فى المجموعة بالرغم من المواد الحافظة القوية التى تستخدم لتطهيرها. وقد احتمل النوبى الرائحة الكريهة بفضل البصل الذى دسه فى انفه. وفجاة اطل عليه شبح انسان وخاطبه بالعربية " يا اخى برحمة الله ورسوله محمد اعطنى هذا اللحم " وخرجت مندهشا من راكوبتى، ووجدت امامى انسانا.. لا.. لم يكن انسانا، لم يعد انسانا.. كان امامى هيكل بشرى بعينين منطفئتين، وقدماه مقيدتيان بسلسلة حديدية ثقلها اكثر من عشرة ارطال وجروح بصديد ينز من ظهره، ويرتجف جسمه كله من الوهن، ويعتمد على عصا ليحفظ توازن هيكله العظمى واقفا.

" ماذا تريد بهذااللحم ايهاالتعيس؟ " سالته.

"اريد يا سيدى شيئا اطعمه ليقوينى. "

لم اجبه. لم اجد اى كلمة. وفى صمت استجبت لمطلبه. وكنت لو طلب الى ان افرغ فى مخه طلقات البندقية التى بجانبى لفعلت.

ذاك هو الرق فى دواخل افريقيا. كان ذاك عبدا قد هرب واعيد قبضه وعوقب قبل ثلاثة اشهر.

ولا انسى الحقيقة المعروفة من أن الكلاب السود والافاعى والتماسيح والحيوانات المتوحشة الاخرى التى تتقزز منها اذا كانت للطعام، تأنف من اكل لحم النسور. وازعم ان المرء الذى يجد طعاما آخر لن يقرب طعاما مقرفا كهذا. ويشهد على ذلك دهشة واستغراب خادمى الاسمر من طلب ذلك التعيس، وشهدت به الذئاب الحية التى تأكل الجيف ولكنها تأبى اكل لحم النسور. لكن انسانا جوع وعومل بقسوة اصبح

نصف مجنون ولا مناص له فى هذا الوضع المحزن الا ان يفقد انسانيته، ولا يمكن ان نسميه انسانا.

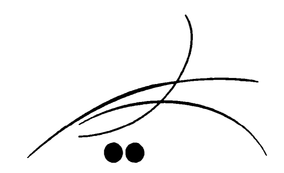
وهناك فى الخرطوم تقليد فريد يسمح للعبد بتغيير سيده. فاذا كان العبد بحق او دون حق لم يعد راضيا عن وضعه، فانه يمضى الى احد الاتراك او العرب ويقطع اذن حماره او جمله. ووفقا للعادة او بحكم عادة اصبحت كالقانون، فان هذا العبد الذى لا يقدر على دفع تعويض عن الضرر الذى سببه، يصبح ملكا لصاحب الحيوان الذى اضير بهذه الصورة ان عجز مالكه عن دفع التعويض. والجمال والخيول فى الخرطوم اغلى من العبيد بصورة واضحة، ولذا يصعب عادة دفع تعويض عنها. وقد يستمر العبد فى قطع آذان الحمير والجمال حتى يتعب صاحبه من دفع التعويضات. وفى هذا السلوك لا يجد المرء اذا كان عارفا لأوضاع العبيد وبغض النظر عن العذاب الذى يحدث للحيوانات اى مأخذ يستاهل العقوبة، ولكن ثمة مكر فى الامر، مصحوب بجحود لا يحد فى احوال كثيرة. وقد خبرنا نحن بانفسنا شاهدا على ذلك. فعندما وصلنا عاصمة كردفان عرفنا ان ابن السلطان "ابومدين"، سلطان دارفور، كان هو نفسه فى عوز وضيق عيش. وقرر البارون ان يأخذه اليه واذا رضى ان يصحبه الى اوروبا. وكان قد زار انجلترا سابقا، واعجبته الحياة هناك، ولذا كان يرغب فى العودة الى اوروبا. وقد ظهر لنا فى ملابس ممزعة للغاية لكى يعود الى حياة افضل وضعا. وخر ساجدا وقبل اقدام البارون وقال: " انا عبدك يا سيدى، فافعل بى ما تشاء، فانا لا استحق عطفك ورحمتك. " فاعطاه البارون مالا وملابس واجلسه معه على المائدة وعامله بود وتمييز. وبعد ثمانية ايام لم يعد الينا الامير البائس. واختفى عنا وسرقنا.

ويمكنني ان أروى حقائق تظهر وكأن كل السود قادرون على كل انواع المفاسق. فالزنوج الذين يبدون لكل من يسافر فى النيل الابيض كأناس منشرحين ذوى مزاج طيب، هم فى الحرب مع الاتراك كالنمور. وليس من المستغرب ان ساكن الاحراش الفج وغير المتعلم عندما يظهر له العدو، ولهول ما ينتظره من مصير فظيع، يدافع عن حريته التى وهبها له الله بشجاعة جديرة بالمتحضرين والمتعلمين..وبالمثل لا ينبغى ان يستغرب ان يثار بشكل دموى من العدو الذى يغير على ارضه يحرق ويخرب.. وبدافع الثار يخرب ممتلكاتهم ويطارد ويقتل كل مسافر من اعدائه وكل ابيض وكل شعب معذبيه، ويعلن عليهم الحرب. فالناس تحكم بقسوة على عادات الحبش فى قتل كل اسير من اعدائهم.. ولو عرفوا ان كل خطوة من ذلك العدو تعنى البؤس والدمار والفظاعة واليأس، لخففوا احكامهم. ان حقد الشعوب السوداء له ما يبرره. فالقسوة التى يمارسونها مع كل ابيض يقع فى ايديهم ليست سوى ممارسة لثار له اسبابه القوية. ان صيد العبيد هو الذى يقفل الطريق امام كل باحث فى دواخل افريقيا.

***

8
رحلة إلى كردفان





فى الخامس والعشرين من فبرائر 1848 انطلقت الذهبية التى تقلنا والسيد جون باتريك من الخرطوم فى طريقها الى قرية طرة على النيل الابيض. وقد استخدمت المجاذيف حتى عبرت السفينة النيل الازرق عند راس الخرطوم ودخلت مجرى النيل الابيض، حيث فتحت اشرعتها لريح شمالية نشطة كانت تدفع امواج النيل الابيض امامها، وقد سررنا بسرعة الرحلة، وكنا مأخوذين تماما بالطبيعة الخلوية التى كانت غريبة ومجهولة تماما بالنسبة لنا. وكان اليوم جمعة، وقد حذرنا كونتاريني متمثلا بالمقولة الايطالية: ان المرء لا يتزوج ولا يبدأ سفرا يوم الجمعة اوالثلاثاء. والبحارة يتطيرون من يوم الجمعة، فلا تخرج فيه سفينة ايطالية الى البحر، او تقف عروس امام المذبح للزواج، ولا يبدا فيه أحد رحلة. والحق مع البحارة. ان يوم الجمعة ليس باليوم السعيد لبدء رحلة.

كنا مبحرين والريح مواتية. وفى صباح اليوم التالى وجدنا انفسنا حيث النهر قد اتسع لاكثر من ثلاثة آلاف خطوة عرضا، وحيث تبرز الجزر الرملية والضفاف الطينية كلما قل عمقه. كانت هناك اعداد لا تحصى من انواع الطيور المختلفة رأينا بينها الالاف من الاوز النيلى والرهو والسمبر والكركى والغرانيق وطيور الشاطئ والماء. وكانت

غابات اشجار السنط تمتد على مدى البصر على الضفتين والتى تشبه الغابات الاستوائية. وكان الجزء الاكبر منها فى الماء الذى يبلغ عمقه عشرة اقدام، وحيث تبعد هذه الغابات عن الشاطئ يمكن للناظر ان يبصر ارضا منبسطة ذات تلال جرداء هنا وهناك. وكانت القرى تخفيها الغابات، لكن القطعان الكثيرة تدل على وجودها، اذ كانت هناك ثروة حيوانية وفيرة من الضأن والابقار والجمال ترعى العشب القصير على الشاطىء الطينى، او تقطف من اغصان الاشجار غنية الاوراق. ورأينا على الشاطئ اخاديد عميقة شقتها افراس النهر - القرنتى - فى الطين عند خروجها للرعى ليل بعيدا عن النهر. وهناك اعداد كبيرة منها هنا تخرج من النهر فتلحق اضرارا بحقول الذرة. وحيثما وجدت كان مرافقها الدائم التمساح هناك. وقد رأينا التماسيح متمددة كجذوع الاشجار فى صفوف طويلة على الشاطئ الرملى، لكنها كانت تنسحب الى الماء كلما احست بدنو المركب.

وكانت تحيا على ضفتى النهر قبيلة من القبائل شبه الرحل، مستقرة وان كانت تمارس نفس الحياة البدوية، هى قبيلة الحسانية. وثروتهم الوحيدة هى قطعان الماشية، ويقومون بالزراعة، غير ان قوام حياتهم هو تربية الحيوان.

وكان النيل الابيض يبدو اكثر عرضا كلما اقتربنا من قرية "أليس"، وهى آخر نقطة تحت الحكم التركى، وربما بلغ عرضه ايام ارتفاع منسوبه لقمته قرابة الميل الالمانى اتساعا عند قرية بويضة، وتصبح الغابات كثيفة، وبها نباتات متسلقة ذات جذوع غليظة سمكها ست بوصات، وفى داخل هذه الاجام حياة استوائية مثل تلك التى بالبرازيل، من قرود ذات اذناب طويلة تأتى فى اعداد كبيرة للشرب من النهر،

والببغاوات التى تنتقل من شجرة لاخرى. وفى كل خطوة يرى الصياد اشياء جديدة.

هنا يحلو الصيد وينجح..

نزلنا فى الثامن والعشرين من فيرائر 1848 بجهة قرية طرة الواقعة على مسافة ميل ونصف الميل الالمانى من الشاطئ، وبقينا بها حتى تصلنا حيوانات الشيل المطلوبة.

ان العالم والباحث الطبيعى لا يشكو فراغا او سأما عندما يجد نفسه فى جزء غريب من الكرة الارضية. وبينما كان السيد جون باتريك يتلهف لمتابعة السفر، وجدنا نحن فى الغابة كل جديد، وتمنينا ان نبقى اياما اخرى. ولكن لأسفى اصبت بالحمى التى وضعت نهاية لبهجتى بالصيد فى الايام التاليات. وقد عدت بعد جولة صيد محموما، احس بصقيع ذلك المرض المؤلم. وقد فتح البارون وريدى وحجمنى، وكان ذلك على نصيحة طبيب ايطالى، ولكن دون جدوى.

كانت الجمال المحملة قد وصلت، فحملت عليها وانا فى قمة الحمى الى طرة، وكنت اوهن من ان استطيع الجلوس قائما، فحاولت نوعا من نصف الجلوس والرقاد فوق احد الصناديق، واحكمت الامساك به، وعانيت الكثير. وكانت كل حركة للجمل عذابا لى، سبب لى تأرجح حركته غثيانا، وشل جهدى للبقاء دون السقوط كل قوتى الواهنة. وبعد ركوب دام ثلاث ساعات كنت فيها المصلوب بلغنا القرية، وخارت قواى تماما وتمددت كالميت فى اول قطية بها.

ولكى لا اضجر القارئ، اختصر الحديث عن مجموعة الامراض التى اخذت تعذبنا حتى الآن، والتى تبدأ بهلوسة، واقول اننا اثناء الشهور الاربعة التى قضيناها فى كردفان لم نستطع التخلص من الحمى

باشكالها وانواعها المختلفة. وقد قضينا اكثر من ثلاثين يوما فى آلام فظيعة، وكانت مشاقنا ومعاناتنا ثلاثة اضعاف ما يلاقيه المسافر فى ارض الاعشاب عادة.

فى التاسع من مارس فارقنا طرة مع قافلة السيد باتريك متوجهين الى اول قرى كردفان. وقد امتطينا الهجن بقلوب مثقلة. وكان البارون لا يزال تحت وطاة المرض ولم اكن قد شفيت من اسقامى.

وبعد ركوب دام اربع ساعات رأينا رؤوس القطاطى بحلة العجيد تبرز من بين الحشائش. وما ان انخنا فى القرية حتى اتانا عدد من الصبايا مرحبات، يغنين فى جوقة ويرقصن. ولكننا كنا جوعى، متعبين، لا هم لنا سوى الراحة والطعام. فاعطيناهن بقشيشا فرحن به، وطلبنا فرخة. لكن الشيخ هز رأسه مستغربا، وقال: " انتو ماشين الابيض زى ما سمعت وعاوزين تشتروا فرخة هنا؟ انا عندى واحدة، لكنها كبيرة وقبيحة. "

فقلنا له: " لا يهم. جيبا لينا. "

فعاد يصحب جاريةً! وكان قوله عين الحقيقة فى وصفها. ضحكنا وقلنا له اننا لا نريد تلك الخادم لاننا نريد فرخة نأكلها. فمضى الشيخ عنا محنقا. فتابعناه بابصارنا مندهشين. وقد فك لنا ادريس هذا اللغز حين اخبرنا ان الكردفانيين يسمون الجارية الصغيرة فرخة، والدجاجة (فروجة)، ثم لحق بالرجل الذى عصفت به الشكوك، وطلب منه ما اردنا، فجاءنا بعدد اكثر من حاجتنا من الفراخ.

تابعنا سيرنا فى اليوم التالى وبعد ساعات اخترقنا فيها غابات السنط، دخلنا الخلاء ثم عسكرنا فى المغرب لنجهز قهوة، ثم سرنا ليلا. وقد طاردت جمالنا اعدادا كبيرة من دجاج الوادى التى كانت تتفرق فى

كل اتجاه وتصيح عاليا. لقد كانت الاولى من نوعها التى رأيناها طليقة فى العراء. لكننا لم نستطع ان نصيد منها شيئا. وبعد عشر ساعات عسكرنا فى موضع رملى خال من الاعشاب فى وسط الخلاء. وكانت نيران الحرائق تمتد اميالا فى الجنوب، اذ يتم حرق الاعشاب لتجهيز الارض لنمو حشائش المراعى التى تنبت بسرعة بعد هطول الامطار.

فى 11 مارس 1848 تعثر سفرنا لأن البارون عاودته نوبة من الحمى شديدة. وكان بحاجة الى الراحة. وكان طريقنا اكثر انتظاما منه بالامس. منظر الخلاء كما هو فى كل مكان. ولم نر من الحيوان سوى الغزلان.

من قرية العجيد رافقتنا قافلة من الحجيج التكرور العائدين من مكة. وكانت بينهم فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها، اعجبنا بها لجمالها وقوة احتمالها. والتكرور يحجون فى معظم الاحيان مشيا على الاقدام، يسألون الناس، حتى يكملوا رحلتهم الى الحج من قلب افريقيا الى آسيا البعيدة. وترى التكرورى حاملا لوحا من الخشب يكتب عليه آيات من القرءان الكريم ويقف امام قطاطى او دانقات او خيام العرب والبدو والنوبة، وينتظر فى صمت حتى يمنح حفنة من الذرة او كسرات من الطعام. ومعرفته باللغة العربية لا تتعدى ما يفى بمتطلبات العبادة وفهم آيات من القرءان. وربما استغرقت رحلته الى الحج اعواما، فهو يخترق الصحراء المحرقة والخلاء الجاف، ويسير بجانب ألد اعدائه فى سلام مسافة تربو على الثلاثمائة ميل ألمانى.

والتكرورى هو كل حاج اسود قادم من اعماق افريقيا، من تمبكتو ودارفور وبرنو وباقرمى الخ. وهؤلاء الحجيج زنوج ينتمون الى مختلف القبائل. ولا يرى الكثير منهم فى السودان لأن الناس يشكون دون

اساس فى رأيى انهم يسرقون الاطفال لبيعهم رقيقا، اما سرقتهم للمواد الغذائية، فهذا امر ثابت.

عند الظهيرة انخنا تحت اشجار السنط الظليلة وجهزنا طعام الغذاء المعتاد فى الصحراء، القهوة وقراصة البصل. وبعد راحة ساعتين استانفنا الرحيل فى سرعة. وبلغنا حقول الدخن التابعة لحلة هشابة (خشابة) التى بدت قطاطيها فى الافق. وبعد حين قابلنا الانجليزى العائد بغزالين اصطادهما. ويسكن هشابة فرع من قبيلة الحسانية يعرف بالمجانين، وليسوا بدوا رحلا بل يقيمون مستقرين فى قرى كهشابة والديومات ويزرعون الدخن وبعض القطن والذرة ويقومون اساسا بتربية الماشية. وقطعانهم تشمل الابقار والماعز، وقد تركت الحشائش القريبة من مكان سكناهم لرعيها، ولذا فان المزارع تبعد مسافة نصف ميل عن القرى، وهذا هوالحال فى كل كردفان. واود ان اذكر ان القرى فى كردفان تبعد عن بعضها الآخر مسافة لا تقل عن نصف الميل الالمانى، واحيانا اربعة الى ستة اميال.

ويغطى نبات الحسكنيت اللئيم كل المراعى، لكنه يتم حشه من الحقول، والتى تنتج غلة جيدة رغم كل جفاف. ان محصول الدخن يثمر لدرجة لا يستطيعون جنيه كله، انهم يجنون سدسه، اى افضل الانتاج، ولا يخشون جوعا، ويتركون ما تبقى لطيورالخلاء. وحصادهم فى نفس زمن الحصاد بالخرطوم ويحصدون بنفس طريقة الحصاد فى مديرية الخرطوم، ويخزنونه بنفس الاسلوب. وتصنع النساء والفتيات الصبايا وهن يغنين اشعارا جميلة بنفس الطريقة التى وصفت من قبل خبزا جيد الطعم، ومريسة تفضل مريسة الخرطوم، ولعل جودتها بسبب نوعية الغلة، وهى الدخن هنا، كما لطريقة صنعها. فهم يطحنون الدخن ناعما

ويخلطونه بالماء ليكون عجينا سميكا، يتركونه يتخمر. وعندما يتم تخميره كما يشتهون، يوقدون نارا كبيرة فى التربة الرملية امام الكوخ ويصبون العجين على التربة الرملية الحارة ويغطونه بالرماد، ويوقدون النار من جديد. ثم بعد ان يخبز لثلاث ساعات يخرجون الخبيز ويضعونه فى وعاء به ماء. ويبدأ من جديد يتخمر. وفى اليوم التالى يصفون الشراب ويعبونه فى برام ويوزعونه.

ومريسة كردفان جيدة للغاية، ومنعشة، وهى متعة الصغير والكبير، والغنى والفقير. وعلى اية حال هى صحية اكثر من الماء المالح المجلوب من غالبية آبار كردفان. وفى هشابة يشرب الناس والحيوان من بئر واحدة عمقها 27 قامة، وماؤها عكر وبه قدر عال من الملح والسلفات، بحيث تترك طبقة عميقة على جنبات الاوانى حين تغلى.

ولا يختلف المجانين فى ملابسهم ايضا عن الحسانية. فالفتيات الصغيرات يلبسن الرحط كما فى كل انحاء السودان، ويعرفن انه يبرز جمالهن. ويجد المرء بين الفتيات الناضجات وبينهن من بلغت الثانية عشرة او الثالثة عشرة من العمر اعوادا جميلة وتقاطيع حسنة. وهن يضعن زينة على الرأس عبارة عن حجارة الكهرمان والخرز والسكسك. اما الفقيرات فيتحلين بالنحاس والعاج او خواتم الحديد. وتلبس المنعمة منهن اساور من الفضة. والنساء جملة مغرورات يحاولن باى وسيلة ان يبقين نظيفات ويعتبرن انه عار ان تخلو شعورهن من الودك والدهن. وهن يشخن باكرا، ويصبحن قبيحات بعد جمال. وعليهن كل العمل الشاق، فالرجال لا يقومون الا بالقليل، مثل جلب الحطب والماء، ورعى الماشية. ويقضون بقية اليوم مرتاحين فى قطاطيهم.

والمجانين محبون للغناء الرقص، ويهوى المستر جون باتريك مشاهدة الفتيات الجميلات ويشجعهن بتقديم بقشيش معتبر، ولذا تتجمع فتيات القرية امام كوخه كل يوم للرقص والغناء. ويختلف رقصهن عن رقص الغوازى والفلاحات المصريات. فهن يتحلقن فى نصف دائرة، ويغنين ويصفقن بايديهن، فتدخل فتاة الى وسط الدائرة، وتاخذ فى الرقص بخطوات موقعة، والنصف الاعلى من جسدها منحن الى الوراء باتجاه المحتفى به، وتبرز امامه صدرها الذى تغطيه الفردة مرة واخرى فى عجب واختيال نادرين، وتجدع بشعرها المشع بالدهن فى وجهه(الشبال) وتتراجع بنظرات مشوقة، لتدخل فتاة اخرى، وهكذا.. حتى ترقص جميع الفتيات.

فى نظرنا نحن الاوروبيين، ليس هناك داع لجدع الشعر للشبال وملامسته للرجل؛ لكن من يرى بريق نظرات الفتى الكردفانى المشارك فى الرقص والذى يسبغ الحظ عليه شبالا من حسناء، يستطيع ان يدرك اى امتياز يعنيه هذا الفعل القدرى الرقيق. فهو يقف باعتزاز وفخر، يرمق الراقصة بنظرات متوهجة بالحب، ثم يمسح الدهن الذى ناله وجهه من شعرها بغبطة على جلده. وكلا الجنسين مولع جدا بالمتعة الحسية. لكن النساء يحافظن على وفائهن لازواجهن.

ان القصة التى رواها احد المسافرين الاجانب من ان النساء فى قرى كردفان يتربصن بالمسافر ويهددنه بالضرب بالعصى على رجليه ان لم يستجب لرغبتهن حكاية لا اساس لها.

غادرنا هشابة مساء الثانى والعشرين من مارس قبل غروب الشمس، وركبنا اثر البمباشى الذى كان قد سبقنا فى الصباح. وبعد ثلاث ساعات او اربع عسكرنا فى الخلاء. وفى اليوم التالى بكرنا فى

مواصلة سيرنا. ولأن قدمي كانت تؤلمني وجدت مشقة في البقاء على ظهر الجمل سيء السرج، فقذفني في قلب شجرة سنط صغيرة بالقرب من قرية جوماد [ديومة]، فقمت زاحفا من بين الاشواك متسخ الثياب مجرحا مهانا، وتابعت الرحلة على ظهر جحش. لكن هذا الحيوان الضعيف لم يقو على مواكبة الجمال المسرعة، فكنت وحدي وراء القافلة. واصابتني نوبة من الحمى وعانيت كثيرا قبل الوصول الى القرية، فارتميت في اول قطية امامي. وبعد حين اتانا شيخ الحلة، يتفقدني، حاول ان يجد لي بعض الضمادات. وجئ بماء اضيفت اليه كسرة ذرة ناشفة جعلت مذاقه مرا، فكان لي خير علاج. وفي المساء اختفت الحمى، وخرجت من الحجرة وقلبي يلهج بالشكر لمن كرموني بضيافتهم.

وقد جرت العادة ان يقوم شيوخ قرى السودان بواجب استقبال وقِرَى كل مسافر يأتيهم، ولذا هناك مسكن كبير وطيب في كل قرية مخصص للضيوف المسافرين. ولكنه كان برهانا حقيقيا على حسن الضيافة ان يقوم هذا الرجل الغريب تماما بالنسبة لي بخدمتي والعناية بي بكل جهده. وسيكون نكرانا مني ان افترض انه قام بما فعل لانني احد المستعمرين للبلد - اذ حسبني تركيا - ان على المرء ان ينظر الى حسن الضيافة عندهم كما هو على حقيقته، اى كعادة متأصلة ومقدسة عندهم، يقوم بها الواحد منهم دون انتظار لمنفعة، ويرعاها افقرهم مثلما يقوم بها اغناهم.

وجدت البارون مع البمباشي في قطية بالطرف الآخر من القرية. وعرفت ان جمال الشيل ستتقدمنا تلك الليلة حتى قرية توم Tohm فلم استبشر لذلك. واكتأبت لان حالتي كانت سيئة. لكن ماذا للمسافر في تلك الآفاق سوى المعاناة والمشاق! وكان عليَّ مع كل ضعفي ان احمل

نفسى على الركوب. وحين طلع القمر رحلنا عن قرية جوماد. وبعد قليل اضطررت للنزول والراحة لبعض الساعات اذ كنت مرهق البدن، ضعيفه. وقد فرشت بساطا فوق الرمل فى الطريق. وما كانت الشكوى عادة لى، لكننى اليوم شكوت. وحين بلغنا قرية توم صباح اليوم التالى رقدت اليوم كله والذى تلاه لما اعانى من الحمى المستمرة. وذاك ما يسمى بالسفر فى اعماق افريقيا.

فارقنا بارا متجهين الى عاصمةالمديرية فى 16 ابريل 1848. كان البارون قد تعرف الى الكاشف المحلى، اذ عالجه من مرض عضال عذبه سنوات. وقد جهز لنا جمالا لنقل اشيائنا، كما كتب جواب توصية لصديق له فى الابيض، وقد وصفه بانه رجل عظيم. وكان خادم الكاشف هو مرشدنا.

كان الطريق الى الابيض يخترق غابة كثيفة من اشجار السنط تتخللها هنا وهناك حقول الدخن الخاصة بقرى متفرقة. وكان الطريق من بارا يصعد جبل الكرباج والذى يمكن رؤية قمم قطاطى العاصمة الابيض من قمته. وعلى يسار الطريق اشجار التبلدى - البوباب او القونقليس كما تعرف محليا، وكانت هناك اعداد كبيرة من طيور الببغاء الخضراء الرمادية اللون، متجمعة فى اعشاشها فى قمم التبلدى المورقة. وقريبا من المدينة يمر المرء بالفولة التى تحيط بها اشجار السنط الكبيرة. وهى منخفض يمتلئ بالماء بعد امطار الخريف. ويبقى ماؤها صالحا للشرب لزمن طويل بعد توقف هطول الامطار. وقد سميت الابيض على فولة مثل هذه. وقبل ان يحتل الاتراك البلاد كان حصان احد زعماء كردفان قد بات فى احدى البرك المطرية، وغرق، فسميت البركة " فولة الحصان الابيض " ، وهى فى الموقع الذى تقوم عليه الابيض الحالية.

وكانت الاكواخ التى بنيت حول البركة وتجمعت حولها اكواخ اخرى قد سميت الأبيَض اولا ثم حرفت لتصبح الأُبيِّض.

وقد اخذنا المرشد الى منزل الرجل العظيم، فدخلناه. وكان الفناء الداخلى قذرا، ولم يتنبه لنا احد، وتركنا دون حماية او عون. ومع اننا كنا مرهقين، اضطررنا للنوم فى راكوبة كان بها بعض العبيد الذين تركوها لنا متذمرين. وكان جمالتنا قد نزلوا للشرب مع خدم البيت. وقد شرعوا فى العراك والضرب، ورأينا انه لا مقام لنا فى بيت مثل هذا الرجل العظيم، فقررنا البحث فى ليلنا ذاك عن مكان آخر. فامر البارون الجمالة بشد الرحال. وقد وقفت وبيدى سوط حتى يمتثلوا للأمر. ولم نجد فى المدينة التى طواهاالنوم اى مكان آخر نقضى به الليل. ولكن رجالنا وقد افاقوا قليلا من سكرهم اصبحوا اقل ازجاعا لنا.

وفى اليوم التالى وبمساعدة ونفوذ وكيل المديرية الذى يصرف الامور فى غياب المدير فتحت لنا ابواب منزل الفرنسى(تيبوت) الذى كان وقتها غائبا. وبعد ان عرفوا اننا اوروبيون وفر لنا ناس بيته كل ما نحتاجه، وعوملنا على امثل وجه.

وقد تعرفت على هذا الرجل الذى نعمنا بضيافته فيما بعد فى الابيض. وهو معروف فى السودان كله باسم شيخ ابراهيم. وقد كان صديقا حميما لكل البدو، وبقى هنا ثلاثة وثلاثين عاما. وهو فى المجتمع الاوروبى المحلى رجل منشرح، ذو دعابة. وهو فى المجتمع المحمدى شيخ وقور لا يذكر اسم النبى الا مقرونا بالصلاة والسلام عليه، يقول ذلك ويقبل يده من ظاهر وباطن. وهو يوقر ما يوقره المسلمون، وله خبرة بتربية الخيل والجمال، كما انه تاجر قادر بيعا وشراء، مع الاتراك والعرب والبدو بكل الوسائل. وهو يعظم المدير، ولا يخاطبه الا بلقب

" افنديـنا " ، وباختـصـار، فهـو عليم " بـتـرتيب الـبلد " وعـاداتها. وهو فى منـزله الخاص يرحب بـالضيوف ويـكرمهم كـما العرب، وسـلطته مـطلقة عـلى عبـيده وجـماله وابـقاره وخـرافه وغـنـمه. وهو مع خـلصـائه يرقص البـولكا رغم اعوامه الـثمانى والـخـمسـين خـاصـة اذا كانت مـعه فتاة حارة الدماء فتيـة. وما زال لحسن حظه قـويا امام ضربات هـذا الطقس، ويبدو اقـوى مما هوعـليه. وقـد شاب شعـر رأسـه وذهنه بـعد رحـلة مريـرة عبر صـحـراء الـبـيوضـة حـيث ظل ايامـا بلا مـاء وقـد رأى ثلاثة من مـرافـقيه يموتون عطشـا، وقد شرب بول الجمل وبلغ النهر فى النهاية نصف ميت.

وفى تقديرى ان ثيبوت Thibaut كان سيبقينا مدة اطول مما كنا نريد فـى الابيض فيما لو كان موجودا. لـكننا سئمنا الـبقاء فى مدينة القطاطى، وصـار الصـيد فى المنطقـة القريـبة من المديـنة غـير مجـد. وما كان لـنا ما نفعله فيشغلنا، فاصابنا سأم لم اشعر بمثله الا فى الاسكندرية فيما بعد. ولذا فـارقنا الابيض فى الثالث والعشـرين من ابريل 1848 متجهين نحو مـلـبس، Melbe وهـى قـريـة الى الجـنـوب من الابـيض وسط الاحـراش والغابات التى تكثر هناك، وتبشر بصيد ثمين.

وبعد مسـافة استدرت بجـملى العربى لانـظر المدينة الـعاصمة، حيث تمكنت من الاحاطة بمداها من هناك.

وتـقـع الابيض فى جـزء مـنـبسط لم يتـوقعـه احد فى جـنوب كـردفان وهـى مكونـة من عدة اقـسـام حسب نـوعـية اهـلـها المـتـداخـلـين. ويـسكن الاتراك والـجنود التابعين لهم فى العرضـى، وفى الدناقلة سكنى النوبة او الـنازحـين من ارض الـنوبـة والذين اسـموا انـفـسهم دنـاقـلـة. ولـلمغـاربة حييهم، وكانـوا فيـما مضـى فى خـدمة الحـكومة، وقد جـاءوا من الجزائر وفزان والمغرب. اما الجزء الرئـيسـى من المدينة فـهو العرضـى، وبه سراى

المدير، وهو مبنى من طابق واحد من الجالوص، وذو سقف مسطح. وديوانه صالة واسعة جيدة التهوية، جدرانها مطلية باللون الابيض. وهناك منازل الموظفين، وهى قطاطى ذات جدران سميكة ومتينة من اللبن. وهناك القشلاق والمستشفى والسوق. وتسور القشلاق زريبة ارتفاعها عشرة اقدام، وسمكها خمسة اقدام. وبه ساحة بها حوالى اربعين قطية فى صفين طويلين متجاورين.

والاسبتالية مثله، لكنها لا ترقى باى حال لمستوى اسبتالية الخرطوم. فالاطباء الجهلة والصيادلة الذين لا علم لهم يؤدون العمل بصورة مزرية حتى ان المريض الذى يرقد بها يقضى ايامه كعقوبة شاقة. وحال الحوانيت يدعو للرثاء بالرغم من ان التجارة هنا ذات وزن. ويبدأ السوق فى الثالثة بعد الظهر لان ميدان السوق الواسع المغبر لا ظل به، فلا يمكن تجمع عدد كبير من الباعة والشارين تحت الشمس المحرقة قبل هذا الوقت. ولا تعرض البضائع فى صالات ظليلة معروشة بل تغطى فقط بمظلة من البروش. ويعرض الباعة بضاعتهم على جلود الثيران غير المدبوغة. والسلع الغالبة هى المنسوجات القطنية والخرز والتمباك والدخن، وقراصة التمرهندى والبقالة. ولا توجد هنا مخابز للخبز الابيض، فتقوم النسوة ببيع كسرة الدخن جالسات هناك فى الرمل.

وهناك بعض القطاطى القذرة اقيمت قريبا من السوق لتكون مقاهى.

ان التجارة الرئيسية فى الابيض لا تتم فى السوق وانما فى بيوت التجار. هناك يجد المرء اعدادا هائلة من الرقيق وكميات هائلة من العاج والصمغ العربى.وقراصة تمر الهندى وبعض المحصولات الاخرى من داخل البلاد. واهم السلع هى الرقيق، ثم الصمغ العربى الذى يتوفر

بكميات كبيرة فى كردفان، ثم العاج الذى تجلب منه كل عام مئات الاطنان من دارفور.

والدناقلة يحتكرون التجارة هنا تقريبا، وهم فى شرق افريقيا مثل اليهود فى اوروبا، مبثوثون فى كل مكان، ويقومون بصناعات يدوية مختلفة وحرف اخرى ايضا بغض النظر عما اذا كانت مشينة ام خلافه. فهم يقومون بخصى الغلمان، ويدر ذلك عليهم ربحا كبيرا.

وليس بالابيض الكثير من الحرفيين بمعنى الكلمة، فالاتراك يحتاجون الى الترزى والنجار وصانع الاسرجة والحداد، والصائغ وصانع الاحذية؛ اما الكردفانيون فلا حاجة بهم لأى من هؤلاء. ولا يوجد كل اؤلئك بالقرب من السوق.

وتتم تجارة المقايضة مع السود الموجودين فى المناطق المحيطة بالابيض، اذ ياتون بالذهب والرقيق من جبال النوبة، ومن دارفور يأتيهم الرقيق والعاج وريش النعام، يشرون كل ذلك بالخرز والبارود - رغم انه محظور - والقطن والنسيج. وكما فى كل انحاء السودان فان الذهب يؤتى به فى شكل حلقات او خواتم. وهو ذهب جيد العيار، ولا يقل بحال فى صفائه عن ذهب البندقية. وكان الكردفانيون فيما مضى يلبسون الذهب حلية، ولكن الاتراك لم يتركوا للاهالى ثروة الا انتزعوها، وكثيرا ما استخدموا وسائل متعسفة لانتزاع الذهب منه ولذا لا يظهر الآن الا كسلعة تجارية، ومع ذلك فمن الخير لمالكه ان يخفيه ويبقيه سرا، والا ألتهمته الضرائب العالية غير المباشرة التى توضع دون قانون يحكمها. وفى هذه الايام تلبس نساء الاتراك المقيمين فى كردفان الحلى الذهبية دون ان تصادر منهن. وهى حلى بسيطة وجميلة.

لقد بنيت الابيض على اتساع افقى كبير، ولان كل بيت تقريبا مسور بزريبة تقوم قطاعات عديدة تنتثر فى المدينة وتتخللها الطرق الرملية المغبرة التى يغوص السائر فيها حتى الكعبين ويكاد يختنق من شدة الحرارة والغبار. ويقوم كل ساكن فى المدينة بحفر التراب من عرض الطريق حين يريد بناء بيت جديد، ولذا امتلات المدينة بالحفر التى تتجمع فيها كل القاذورات. وكثيرا ما ترمى فيها جثث الحيوانات، ولكسلهم لا يحرقونها، بل تترك حتى تتعفن وتتحلل؛ وقيل انهم قديما كانوا يرمون بجثث الناس فى وسط المدينة دون دفن، لكن ذلك لا يحدث الآن مهما ادعى الرحالة. على اية حال فإن اهالى الابيض يوسخون هذه الحفر بكل صورة مما جعل مدينتهم ذات رائحة كريهة وهواء لا يحتمل.

وماء الشرب بالمدينة ردىء. وليس هناك سوى عدد قليل من الآبار الصالحة للشرب، اى ذات ماء قليل الملوحة. ويعيش الناس على المريسة التى يجيدون صنعها. وبالاضافة الى الانادى الدائمة حيث تقوم الفتيات اليانعات بتوزيع المريسة وتلبية رغبات اخر للضيوف، يجد المرء فى كل ميدان كبير فى عصر كل يوم خدما يقومون ببيع المريسة فى قرع، كما ان بعض الاسر تصنع المريسة والبلبل للبيع. وكما فى بعض القرى الالمانية يرفع علم فى صارية طويلة كدليل على مكان الشرب.

ويمكن ان يبلغ تعداد سكان الابيض مختلفى الجنسيات حوالى العشرين الف نسمة. ويمكنك ان تسمع بجانب اللغة العربية اللغة البربرية وقرابة خمس لغات زنجية. ويعيش سكان المدينة فى ظروف تماثل ظروف اهل الخرطوم، لكنهم يندفعون وراء الملاذ الحسية متى ما استطاعوا لذلك سبيلا، وهم مبذرون جدا، وبهم استعداد كبير للجريمة. وتبدأ حياتهم حقا بعد غروب الشمس، اذ يقضون ساعات النهار داخل

اكواخهم لا يتركونها الا اضطرارا، اما للسوق او لقضاء عمل حقيقى. وفى الليل يسمع المرء الغناء والتصفيق وصدى الطبول والموسيقى. ويأخذ الحب دروبه الخفية المستترة، كما يأخذ اللصوص الذين تعج بهم المدينة طريقهم من كوخ لآخر. ويجب الا ننكر ما قامت به الحكومة التركية ضد هذا الشر، وكان الناس فيما مضى لا يطمئنون على ممتلكاتهم، ولكن السارق اصبح الآن يحاكم بسرعة ويؤخذ للشنق امام منزل الحاكم. لقد كان مصطفى باشا المدير انذاك حربا على كل سارق وناهب. كان يشنق اللص، ويربط من ينهب امام مدفع ثم يطلق المدفع.

ويستخدم الارقاء فى كل الاعمال التى يقعد الكسل باصحابها عن القيام بها. فهم يسقون الجنائن والحدائق ويرعون الماشية ويبنون المنازل ويقيمون زرائب الشوك، ويقومون بالزراعة، بينما يرقد السيد فى كوخه او يجرع مريسته. وهم فى كل الاعمال الثقيلة هذه يقيدون بالسلاسل الثقيلة ويعاقبون اشد العقاب غير الانسانى على اتفه الاخطاء.

ولنساء كردفان جواريهن مثلما للرجال عبيدهم. وهن لا يقمن الا باعمال يسيرة، ويتجنبن الشمس كى تضحى بشراتهن ذات لون فاتح قليلا بالمقارنة لاولئك اللائى يعملن تحت اشعة الشمس. وفى الحقيقة، فان الوانهن احيانا ناصعة مثل ألوان الداكنات من الاوروبيات، وقاماتهن جميلة.

والاتصال بين الجنسين هنا اكثر حرية منه فى الخرطوم، ولا تختلف النساء فى تصرفاتهن عن فتيات الهوى فى مصر او الخرطوم، اللائى لا يتحرجن عن ابداء محاسنهن للغرباء، الا قليلا. ولذا فان عاصمة كردفان مكان للمتعة للنوبيين الحسيين. أما بالنسبة للاوروبى المتعلم فان الابيض تبدو كما هى فى حقيقتها: اكثر مدن شرق افريقيا مدعاة للسأم، واشقها على النفس.

فى السابع عشر من ابريل فارقنى البارون فون موللر ليتباحث مع مصطفى باشا والسيد باتريك حول احدى الرحلات التى نوينا القيام بها الى تقلى. وبقيت مع احد الخدم المنوط بهم العناية بالطيور والبهائم. وفى المساء تجمعت سحب رعدية فى الافق وسقطت قطرات مطر مبشر بموسم الامطار المقبل. وقد احتفلت بها وحييتها وكانها عزيز قادم من وطنى البعيد، اذ اننى لم ار المطر منذ ان غادرت اوروبا.

وكان البرق المتقطع يضئ سماء الجنوب الداكنة من حين لآخر. كان برقا بعيدا، ومع ذلك سمعنا هزيم الرعد.

وقد عرفت من خطاب وصلنى من البارون فى السادس والعشرين من ابريل ان 23 ابريل صادف عيد الفصح. كنت اجهل ذلك، وكنت يومها مريضا جدا، ولاننى كنت مقطوعا عن اى شىء يذكرنى بعادات وطنى.

فى 2 مايو عاد زميلى البارون، واخذنا نستعد للرحلة المزمعة، على الرغم من انهم صوروا لنا السود فى تقلى بانهم يبغضون البيض، كما حذرونا من عرب البقارة. وكان هؤلاء قد انقضوا بقوة خمسة آلاف رجل على كردفان ونهبوا الناس والقطعان. وتحاول الحكومة ان تعاقبهم وتؤدبهم، وذلك سبب كاف لأن يخافهم المرء. لكننا لم نرد التزحزح عن خطتنا فى ولوج ارض لم يزرها اوروبى من قبل، وقررنا ان نسافر فى حذر شديد. لكن مشروعنا اصطدم بما لم نحسبه فى تقديرنا. لقد كنا فى الابيض لنشترى لوازمنا لهذه الرحلة، وعدنا فى 10 مايو الى " ملبس " لنستأجر الجمال الضرورية للرحلة. وقد وجدنا عددا من العرب اصحاب الجمال، لكنهم رفضوا رغم كل ما وعدناهم من مال ان يسمحوا لنا بأخذ جمالهم الى تقلى. كنا فى حالة من الغضب والاحباط، لكنا رأينا بعد ايام قلائل اننا يجب ان نشكر اهالى كردفان على نجاة كتبت لنا بسبب رفضهم!

منذ اسبوعين تقريبا قامت قافلة تجارية كبيرة الى تقلى، وكنا نود ان نرافقها لو بلغنا تجهيزها. كانت تحت قيادة احد الاشراف، وهو رجل محترم وثرى. وكانت تحمل بضائع يريدها حاكم تلك المنطقة. وقد قيل لنا اننا سنكون فى امان تام تحت قيادة ذلك الرجل. وفى 14 مايو عاد الى كردفان عدد من جمالة القافلة، ورووا ان ملك تقلى قد احسن استقبالهم عند حدود مملكته، فمضوا معه دون ان يرتابوا فى شىء نحو عاصمته. ولكن قبل بلوغها داهمهم جمع من السود القوا بهم ارضا وقيدهم وضربوا حتى اشرفوا على الموت، ونزعت عنهم اسلحتهم ودواب شيلهم، وتركوا دون زاد لقدرهم، وقد عاد ثلاثة من الجمالة الذين كانوا فى جملتهم فوق العشرين عددا، ولم يعرف للآخرين مصير.

هذه الحقيقة وحدها توضح صعوبة السفر فى اماكن جديدة فى افريقيا. ان السود متى عرفوا البيض كرهوهم. واذا عبر المسافر تلك الاراضى التى يعرف اهلوها ان هناك بيضا، فانه سيقع تحت دائرة ثأر السود. وهم سريعو الغضب. فالمسافر الذى يجهل عادات وتقاليد تلك الشعوب نصف المتوحشة يمكن ان يقع ضحية غضبهم السريع لأى سوء تفاهم بسيط. ويمكن ان يندم الاسود على غضبه وفورته فيما بعد، ولكن بعد ان يفقد الرحالة او المستكشف حياته دون معنى.

لا اريد ان اسخر من امكانية الترحال فى افريقيا او استكشاف منابع النيل، لكننى اعتقد ان تحقيق ذلك لا يتم الا بتجهيز حشد من الشبان ذوى الباس والعزيمة بكل ما هو ضرورى، ويقودهم اوروبى تدعمه حكومة اوروبية، مع وضع احتمال ان يفقد خمسين بالمائة من رجاله. ولا يمكن ان تدعم ذلك الا حكومة المانيا او انجلترا، ولا يمكن فى ظنى الا لألمانى او انجليزى ان يقوم بقيادة مثل هذا المشروع وتنفيذه. وهذا موضوع لا اريد الآن ان افصل فيه وجهة نظرى بتعديد ما له وما عليه، او فى عملية السفر والاستكشاف فى اعماق افريقيا.

اضطررنا الى تعجيل عودتنا الى الخرطوم لازدياد دنو موسم الامطار ومرضنا المتواصل وانحسار مالنا. وقد فارقت [ملبس]بكامل عفشى فى 20 مايو متجها نحو الابيض. وفى الخامس والعشرين من مايو شرعنا فى رحلة العودة، فتركنا جمال الشيل تسبقنا، وبقى معنا واحد فقط من القائمين بخدمتنا. وكان له وعل حى لم يبلغ بعد اشده [بقر الخلاء] يريد اخذه معه على جمله. ولم يكن ذلك بالامر السهل كما حسبنا. كان علينا ان نبذل جهدا كبيرا لنضع الوعل على الجمل ونربطه، وكان من رأى العربى الوقح ان الوعل لم يكن بعد قادرا على السير، وقد انزلق الى جانب، وكان شاقا على الجمل وصاحبه احتمال وخزه على الجانبين بقرونه الحادة، واخيرا قررنا واستطعنا ان نلف بقر الخلا هذا فى سجادة بشكل لا يمكنه من الحراك. وغادرنا الابيض مع ولوج الليل.

كنت منذ الثالثة بعد الظهر تحت وقع الحمى، وضعيفا لدرجة لم اقو معها البقاء فوق سرجى. وقد فاجانا الليل ونحن نفارق آخر كوخ للابيض.واضطررنا بسبب ضعفى الذى سببته الحمى ان نعسكر بعد ركوب قصير فى وسط الخلاء. وعندما سطع البدر واصلنا رحلتنا باتجاه جبل الكرباج والذى لم نبلغه حين اسفر الصبح لاننا كنا قد تهنا وسط الخلاء ولا معين. كان ضباب كثيف يخفى ضوء الشمس ويغطى البسيطة. وكانت البوصلة فى المتاع المحمول على جمال الشيل التى تقدمتنا، ولذا ضللنا طريقنا. وقد صادفنا اسودين يجمعان الحطب، فطلبنا منهما ان يهديانا السبيل، فتأبيا علينا. والحاجة لا تعرف حدا، وكنا سنهلك جوعا او عطشا فى الخلاء ان لم نجد هاديا ومرشدا، لذا اجبرنا احد الرجلين على ان يكون مرشدنا وهددناه بالويل والموت ان اضل بنا الطريق، ورغبناه بعطاء جزيل ان هدانا الطريق. وكان رفيقه يناشدنا ان نطلق صديقه الذى قسرناه على خدمتنا، ثم مضى محنقا.

وقادنا رفيقه حتى الجانب الآخر من جبل الكرباج، فكافاناه وتركناه، لكنه رغب فى الركوب معنا الى القرية التالية لينفق راسماله فى المريسة. وقبل ان نبلغ اول قطاطى تلك القرية افلت الوعل وانطلق ساخرا من كل محاولة للامساك به، وما ان ذاق طعم الحرية حتى ابتعد عن ابصارنا فى قفزات واسعة.

كان الوقت ظهرا تقريبا حين نزلنا حلة [توما] الصغيرة، والشمس محرقة، ونحن عطشى متعبون. وقد زاد الماء الحار الذى قدم لنا عطشنا. فدخلنا راكوبة صغيرة لننام ونجدد نشاطنا. وجدنا بها عنقريبا جيدا وراحة. لكن زمجرة غضبى ايقظتنا، فنظرت فى استغراب نحو الباب، ورأيت اسود نصف عار يحمل سيفا مسلولا، ويتجه نحوى صائحا: " تعالوا. هم هنا. الكلاب. تعالوا اقتلوهم " ضربته بمؤخرة بندقيتى فسقط، فايقظت البارون وخادمنا على وكانا داخل القطية الملاصقة للراكوبة. شهرنا سلاحنا منذرين باننا سنطلق النار على من يقترب. وقد سمع على انهم فيما ظن يريدون حرق الكوخ فوق رؤوسنا، ولذا علينا ان نغادره، لكننا كنا مطوقين بخمسين من السود الذين كانت حرابهم على مبعدة نصف قدم من رقابنا، كانت قوتهم لا تسمح لنا بمقاومتهم على الاطلاق، والا كانت العاقبة وخيمة. وقد جهدت لاثنى البارون عن المقاومة، وكان شاهرا مسدسيه. وحتى لو قضينا على ستة او ثمانية منهم، فاننا لا محالة هالكون. وكان امام كل واحد منا اربعة او خمسة من السود بامكانهم ان يغرسوا حرابهم فى صدورنا بأقل حركة من اذرعهم. ولذا كان احكم شىء لمن هو فى موقفنا ان يطلب الرحمة. لكن الصياح الحيوانى الذى كان يصدر منهم ابتلع كلماتنا. فاخذنا نتحرك فى بطء نحو باب الراكوبة حتى نكون فى شئ من الامان. وجاءنا الفرج من حيث لم نتوقعه. لقد هرع الى نجدتنا اعرابى بلحية بيضاء ناصعة. لم

يكن يدرى ما الحاصل، لكن السود فيما يبدو يعرفونه، وقد فرق من لم تخفه بنادقنا بضربات من سوطه، وهدأ روعهم قليلا. ومنه عرفنا لاول مرة سبب كل هذا الغضب والهياج: لقد حسبونا من تجار الرقيق.

كان رفيق الرجل الذى اخذناه عنوة ليكون دليلنا فى الطريق قد هرع الى سيده، وهو شيخ طيب الحال، واخبره ان اثنين من الاتراك ـ هكذا ظننا ـ قد اخذوا احد عبيده بالقوة. وقد جمع رقيقه وحمسهم واغدق عليهم المريسة وسلحهم، واطلقهم لمطاردة وقتل البيض الكلاب. فجاءوا الى الحلة التى نزلناها وهم شبه مخمورين، بعد ان اقتفوا اثر جمالنا وسألوا عن مكاننا، وداهموه بظن ان يجدوا العبد المسروق براكوبتنا. وقام الشيخ الذى جاء لنجدتنا بتفتيش الراكوبة، فلم يجد بها عبدا، فالرجل بعد ان عب مريسته نام فى راكوبة اخرى، ولم يعكر راحته كل هذا الصراخ وتلك الضجة.

وبعد ان اتضح الامر وانجلى وثبتت براءتنا، طلب منا من ثاب الى رشده من اعدائنا ان نصفح عنه، وان نجزل له البقشيش حتى يتمكنوا من شرب المريسة. طردناهم، واتخذنا موقف التهديد، فابتعدوا عنا مسرعين الى جمالهم، واخذوا معهم ذاك الذى كان دليلنا. ويبدو انهم خشوا ثأرنا واعيرتنا النارية، فانطلقوا باسرع ما يمكن لجمالهم. اما نحن فقد تنفسنا الصعداء بعد أن تحررنا من قبضتهم، وقررنا متابعة السفر بعد أن نستجم قليلا ونرتاح من ذلك الموقف العصيب.

قضينا الليل فى قطية منفردة كان صاحبها قد آوى البارون من قبل، واستمتعنا بكرم الضيافة الكردفانى بأوسع مداه ومعانيه.

فى 27 مايو ركبنا راحلين قبل ساعتين من شروق الشمس، وسرنا بين حقول الدخن. كانت طيور النهار نائمة، اما تلك التى تحيا ليلا فقد ظلت تهوم حتى طلع الصباح.

وصلنا قرية [خرسى] Chursi وقت الظهيرة حيث وجدنا عفشنا وخادمنا، ولم نجد جمالا لمواصلة السير. فارسل البارون خادمنا النوبى ادريس الى بارا التى لم تكن بعيدة، ليطلب من صديقه حسين كاشف ان يبحث لنا عن جمال. لكن حسين كاشف اعتذر بكذبة، زاعما ان عليه ان يزود الحكومة بخمسين جمل شيل. والظاهر ان الانجليزى جون باتريك الموجود حاليا ببارا، وكان قد تخاصم مع البارون بسبب احد العاملين قد حرض حسين كاشف على الامتناع عن تقديم اى خدمة او معروف لنا. فاضطررنا الى قضاء ايام عديدة فى قرية [خرسى]. واصابت البارون حمى ارقدته. اما انا فقد كنت ضعيفا لدرجة عدم القدرة على الوقوف. وكنا نتوقع هطول الامطار فى اى لحظة. وكانت الرياح الجنوبية الحارة التى صادفتنا فى ملبس قد اخذت تزداد حرارة يوما بعد يوم. فلزمنا القطية لان الرياح كانت محملة بالغبار. ومن حين لآخر كانت تهب ريح شمالية تحمل بعض البرودة المنعشة للجسد. وقد بلغت درجة الحرارة فى الظل 45 درجة مئوية. وحين كنا نضع الثرمومتر فى الرمل او الشمس كان يسجل ما لا يقل عن 55 درجة مئوية. وكانت اجسامنا تتصبب عرقا ليلا ونهارا.

فى الرابع من يونيو 1848 فارقت البارون لاقابل الانجليزى كى أسوى معه بعض الامور. كان النهار حارا والسماء ملبدة بالغيوم وتنذر بعاصفة اومطر. وقد صارت الغيوم كثيفة فى المساء وبدت السماء سوداء قاتمة. وداهمتنى العاصفة، وكادت تنتزعنى من ظهر الجمل الذى اصبح هائجا. وسرت فى طريق لم اعرفه باسرع ما استطعت. وهبط الليل. ولم يكن حولى اى شىء يدل على قربى من سكنى وناس. وخشيت ان اكون قد ضللت الطريق. فنزلت عن الجمل وربطته وقيدته الى شجرة، ورقدت بجانبه. وباءت كل محاولاتى لايقاد النار بالفشل، اذ

كانت الريح قوية. ولم يكن عندى ما يقينى برد الليل. ومع ذلك غلبنى النوم بسرعة، والعاصفة تعوى وتباريها الذئاب طيلة الليل.

وفى الصباح، وبعد ليلة لم استمتع براحة النوم فيها، خرجت من الرمال التى دفنتنى العاصفة تحتها. وكان الهدوء يخيم، والريح هادئة، وشفق الصباح يلون الافق، والطيور المغردة تصدح للفجر المطل وتحيى الصباح.

ومن ظهر الجمل المرتفع جولت بصرى حتى دلنى بريق بيض النعام الذ يوضع على قمم القطاطى على قرية فى البعيد. وكان ما عندى من ماء قد نفد وكنت جائعا جدا. فاجتمع على الجوع والعطش المحرق. وبعد حين ستغدو الحرارة غير محتملة. واخيرا، وبعد ركوب دام ثمانى ساعات وصلت حقول الدخن ثم القرية الصغيرة وانا احسب انى مت عطشا واستقبلنى شيخ الحلة فى حفاوة، وكرمنى بلبن رائب وخبز من الذرة اسود، وهو كل ما كان عنده من طعام. اما جملى الهجين فقد اخذ يرعى فى نهم فى الدخن الذهبى.

اصبت بالنفاخ والدوسنتاريا، ولعل ذلك كان بسبب البرد فى الليل او الطعام الذى لم آلفه، فلم اطق الركوب الا مكرها. وما كنت استطيع البقاء هنا؛ لذا وبعد ان عرفت الطريق، اتجهت الى قرية [تندار] على الرغم من آلامى الفظيعة.

وكانت المنطقة التى عبرتها تختلف تماما عن اى مكان آخر زرته فى كردفان. كانت هنا سلسلة متصلة من الجبال، تتخللها وديان عديدة مزروعة على افضل وجه، ومأهولة بالسكان. وكانت منحدرة جدا، وفى اسفلها آبار، وحولها قرى. وهناك مزارع الدخن على سفوح الجبال، وفى التلال اشجار السافانا الكثيفة.

عند هبوط الليل اوقفت بعيرى امام قطية منفردة وقررت قضاء الليل. وقد حسبنى صاحبها تركيا ومن ثمة جنديا، فأكد لى قبل كل شئ انه لا يملك لى او لبعيرى ماء او طعاما فى منزله، وان هناك بالقرب منه من

يمكنه ان يقدم لى مرادى، وانه سيقودنى اليه. قبلت ذلك راضيا، وقد سعد صديقى الاسود بابعاد هذه العاصفة عن بابه، وألقى بها على رؤوس جيرته. وبعد خمس دقائق جئنا الى من أبدى استعدادا كبيرا لخدمتى، وقضيت ليلى بالحلة عنده.

6 يونيو..

لم تكن قرية تندار بعيدة من مقامى. وصلتها قبل طلوع الشمس ومن ثمة واصلت رحلتى باتجاه الشمال الشرقى عبر السافانا المجردة من نبات حتى حلة [ام سرور]، واستقبلنى المستر باتريك فى حفاوة وود، واعطانى دواء قرويا ولكنه فعال لما أشكو من الدوسنتاريا. وبقيت عنده عدة ايام، ثم رافقته بعد ان تحسن حالى الى عدد من القرى التى كان يمسحها لمعرفة الحديد فى ما يجاورها.

فى 16 يونيو قابلت البارون فى قرية سروجة Seroega وكان خدمنا قد حملوا العفش وتقدمونا، ولذا غادرنا هذه القرية بعد وصولى مباشرة. وفى 18 يونيو مررنا بحلة [شطيب] وحلة [الله امان] ولكننا لم نجد الرزيقات لنسعد بكرمهم المشهور، لذا حافظنا على طعامنا وطعام حيواننا بكل صرامة.

رأينا ان نرحل بعد طلوع القمر، لكننا لم نجد فى القرية كلها دليلا واحدا. كان كل الرجال قد اختفوا من القرية وكاأنما قد ابتلعتهم الارض لانهم كانوا يفترضون اننا سنجبرهم على خدمتنا. وبعد بحث طويل عن اى شئ رجالى رأى البارون ان نأخذ ثلاثا من النسوة عل الرجال يخرجون الينا لاستردادهن. ولكن يبدو اننا كنا حسنى الظن بالكردفانيين اكثر مما ينبغى فتركنا نساءهم. ولحسن الحظ وجد احد جمالتنا الطريق الصحيح، واخبر به مرشدنا.

كان ليلا من الليالى الرائعة التى تسبق موسم الامطار الاستوائية، ولا يمكن وصفه الا اذا عاشه الانسان بنفسه ليكوِّن فكرة عنه. كانت السحب المبشرة بالمطر تتجمع وتستدير فى الافق وتبعث برقا ينير الآفاق. وكان هزيم الرعد يصلنا خافتا ناعما، ومع ذلك كانت النجوم تضئ فوقنا فى تجليها الابدى. وكان الجو صافيا وصحوا والسماء الجنوبية تبدى كل جمالها.

قضينا قيلولة اليوم التالى تحت اشجار الحراز وكان الجو مشبعا بالحرارة والسماء قليلة السحب، ونشطت ريح خفيفة دافئة اخذت تشتد حرارة وقوة حتى صارت عاصفة. وكان ذلك هو السموم، فاخذت جمالنا تضطرب وتهيج، وداخل الخوف رجالنا. لكن العاصفة لم تدم اكثر من نصف ساعة. كنا محظوظين. وتابعنا سفرنا رغم الارهاق الذى اصابنا.

فى العصر التقينا بعربى كان له جملان ويسير فى بطء. سالناه فى رفق ومودة عن المسافة بيننا و[هلبا]، فقال لنا: واصلوا الركوب، ومع الغروب تشربون من بئرها. وكان قد تركها قبل العصر بقليل.

وكان فرحنا واستبشارنا عظيما بيوم راحة ينشده كل مسافر، وبرمة من المريسة.. فاسرعنا بالهجن نحو الحلة المرتقبة. وكنا قد قطعنا اكثر من نصف المسافة التى دلنا عليها العربى، لكن القرية لم تظهر. ولم نسمع نباح كلاب. ولم يكن يعكر صفو هدوء المساء سوى عواء ذئب منفرد. ولذا فقد لعنا ذلك الاعرابى الذى خدعنا دون اى سبب ندريه.

كان الليل قد اكتمل. وكنا قد ابتعدنا كثيرا عن القافلة، فتوقفنا، وانتظرنا. واوقدنا نارا لتهتدى الينا بضوئها قافلتنا. ولكن قافلة من الضيوف الثقلاء شدها الضوءالينا: هوام وحشرات وعناكب وعقرب بأذناب مرفوعة، كلها انطلقت نحونا واندست حتى فى ابسطتنا وكأنما شدها مغنطيس. وتأودت وفحت متراقصة حية من اخطر الحيات، وقد قضى عليها البارون فى

سرعة وبراعة. وما كنا نستطيع قضاء الليل فى هذا المحيط الخطر، ولكننا قررنا انتظار قدوم عفشنا. وقد وصلتنا الجمال المحملة به فى الصباح الباكر، فواصلنا السفر مع طلوع الشمس، ووصلنا بئر هلبا التى تحيط بها اشجار السنط والحراز فى الظهر. وكان ماؤها عذبا ومنعشا، بالمقارنة على الاقل بالآبار المالحة فى اعالى كردفان. فضربنا خيمتنا تحت الاشجار الظليلة لنرتاح يوما، اذ كانت جمالنا منهكة ولم نكن نحن ورجالنا اقل منها تعبا. وكانت بعض جمالنا قد تقرحت ظهورها فى اماكن، ورجالنا من البدو قد اشتكوا من السير على اقدامهم اياما حتى تقرحت ارجلهم. وكنا نحن نشكو من الحمى التى لا تفارقنا حتى تعود، ولذا فقد كنا جميعا فى حاجة ماسة ليوم نرتاح فيه. غير اننا لم ننعم بذلك.

انه لمن المستحيل ان يرضى الكردفانى ان يؤجرك جمل شيل مهما ضاعفت له الثمن. ان حقدهم القديم على الاتراك، ومن ثمة على كل البيض، الذين احتلوا ارضهم وسلبوهم حريتهم وما زالوا يضطهدونهم، ان هذا الحقد قد اورثوه لابنائهم جيلا بعد جيل، وبنفس الدرجة من العمق والشدة. ولذا يجد المسافر نفسه مرغما على انتزاع ما يريده بالقوة. وكان رجالنا قد اخذوا حمارا بالقوة وصاروا يتناوبون ركوبه. وقد كان لأحد خدمنا من النوبة، وهو رجل مسن يدعى محمد ود جترى، سرج خشبى لحمار، وقد وضعه على ظهر اول حمار وجده، ثم سار مع القافلة دون اى احساس بالذنب او تأنيب للضمير. لكن صاحب الحمير ظهر بعد حين لاسترجاع حقه، ولم يعطه الا بعد ان اتى بحمار آخر، ومع ذلك اضطر لان يعمل معنا حمالا، وبعد انتهاء عمله طالب باجره وبقشيش علاوة عليه، لكن النوبى كان يأمل ان يستخدم الحمار حتى قرية ابو جراد، وهى بالقرب من النيل الابيض، على الرغم من ان صاحب الحمار كان قد سار كل تلك المسافة الطويلة.

وكان اهالى قرية هلبا قد رفضوا ان يؤجروا لنا بعض دواب الشيل التى كنا فى حاجة قصوى اليها. وعدناهم ومنيناهم وهددناهم، ولكن دون جدوى. فاخذنا فى النهاية حمارين بالقوة، وكانا قد وردا البئر للشرب، ولم يرض اهل القرية عن فعلتنا، فاستعادوا حماريهما خلسة فى الليل. ولو لم يلحظهم النوبى لسرقوا ممتلكاتنا ايضا. وقد طاردهم واسترجع منهم الحمارين.

21 يونيو..

مع انبلاج الفجر اتانا مندوبو القرية للمطالبة بحمارهم. طردناهم، ولكنهم عادوا فى اعداد اكبر. واخيرا تجمع قوم كثيرون منهم، مسلحون بالحراب. واخذوا يصيحون بشكل مرعب، ويهددون بالثأر. واقتربوا من خيمتنا. فاقمنا حائطا ساترا بصناديقنا امام باب الخيمة وعبأنا بنادقنا، وانتظمنا للدفاع، وانذرنا الجمع الهادر باننا سنطلق النار ان اقتربوا منا. ويبدو انهم قد احترموا سلاحنا الرهيب.

ولعلنا كنا سنفوز بالحمار لو لم تفاجئنى نوبة من الحمى لم اعد احتمل معها كل تلك الضجة. فطلبت من البارون ان يعطى القوم حمارهم، وينهى تلك الضوضاء. ففعل، فانسحب القوم.

واصلنا السفر عندما صرت قادرا عليه، ولم نتوقف الا فى آخر الليل، فاوقدنا النار، لنعانى من زحام الهوام والحشرات والعقارب والثعابين مثلما عانينا قبل ايام. وفى الصباح اتضح لنا ان صاحب الحمار الذى اخذه محمد النوبى قد انسل تحت جنح الظلام بحماره، واخذ معه ستين قرشا تخص احد الجمالة، ربما كتعويض عن وقته الذى اضاعه معنا او جهوده معنا او لمجرد إلحاق ضرر بنا. وعلى كل فإن البارون قد عوض الرجل عما فقده. وكان ذلك اغلى حمار اجرة صادفنا.

وبعد سفر مضن وممل فى غابة من اشجار الهشاب الميتة والمتباعدة وصلنا حلة ابوجراد، وهى لا تبعد الا بمقدار ثلاثة اميال المانية عن النيل الابيض. وقد طمأننا واثلج قلوبنا ان نرى انعكاس صفحة الماء عبر خضرة الضفة.

23 يونيو..

ركبنا باكرا عابرين منطقة خالية من الاشجار، متربة، متجهين صوب بحر ابيض، والذى رأت عين خادمنا النفاذة اشرعة تلوح منتفخة عليه، كما رأينا السراب الذى يعنى ان الحرارة ستكون شديدة، فاسرعنا جمالنا. لكنى عاودتنى نوبة من الحمى، وقاسيت ما قاسيت من ويلاتها وآلامها. كانت الحرارة عند الظهر لا تحتمل. ومع ارتفاعها اشتدت الحمى على حتى صرت انزل عند كل شجرة تحاشيا لأشعة الشمس المحرقة. وقد توسلت الى البارون وخادمينا ان يتركوا لى بعض قطرات من الماء ويتركونى لقدرى. ولا اذكر اننى كنت تعيسا بتلك الدرجة من قبل. وكنت ارى فى البارون وجيترنيدو حين يعيداننى الى ظهرالجمل ألد اعدائى. ومع ذلك قاما بكل ما فى طاقتهما ليخففا عنى آلامى ومعاناتى. ولا اخالنى استطيع وصف تلك الآلام. ان افقر اوروبى كان سيجد فى مثل هذه الظروف مكانا يقيل تحته او شيئا يرقد فوقه. اما انا فقد كنت تحت رحمة الشمس الافريقية المحرقة، ودمى يغلى تحت وطاة الحمى، وتكاد شرايينى تنفجر. ومع ذلك كان على ان اتشبث فى حالة من اللاوعى بظهر الجمل، واستجمع ما غاض من قواى لابقى حيا. ان الكلمات عاجزة عن وصف حالى.

واخيرا، وبعد خمس ساعات من الجهاد وصلنا بعض الاكواخ، واستطعت ان اتمدد واؤمل ان تخف آلامى. لم اكن فى حال يسمح

بمواصلة السفر على الاطلاق. وقد حاول البارون الحصول على دجاج من اهل المحل ليصنع لى شوربة تعيد لى بعض قواى. لكنهم رفضوا ان يعطوه اى من الدواجن الكثيرة التى كانت تجرى فى الحوش. ولم يبق شىء سوى استخدام القوة. فاطلق الرصاص على اول دجاجة رآها، واعدت وطبخت. ثم جاء صاحبها يطلب حقه، فاعطى.

24 يونيــو..

كان الطريق من مكان اقامتنا ليلا بالامس الى بحر ابيض يمر بخور يرفد النيل الابيض عند موقع يقال له منجرى، وقد ضربت اسر من الحسانية بيوتها الفقيرة فى الغابات. لقد عرفت رجالهم الوسيمين ونساءهم الجميلات وصباياهم من قبل فى بترى Butri. ولصباياهم بشرة فاتحة اللون، ويحسب المرء ان رجالهم بسحناتهم البنية الداكنة من قبيلة تختلف عن نسائهم ذوات اللون البرونزى الاصفر الفاتح. ولم اجد فى اى مكان بافريقيا مثل اهتمام نساء الحسانية للاحتفاظ ببشرة صفراء لا لون بها. وبينما يعمل الرجال تحت الشمس ويرعون ابقارهم، تظل النسوة داخل اكواخهم الظليلة التى تقام دائما تحت اشجار السنط التى تحجب عنهم كل اشعة الشمس. وهن كسولات خاملات، مثلما هن محبات للذائذ الحسية. وقد اشترينا بعض اعمالهن اليدوية الجميلة بالمقايضة، وتابعنا رحيلنا.

وعند الظهيرة هللنا لشاطىء النيل الابيض. وكانت خلفنا ارض جهنمية الطقس كدنا ان نلقى بها حتفنا، ومررنا فيها بساعات شدة عصيبة. نشطنا وارتفعت معنوياتنا ونحن ننظر صفحة النهر التى ارتفعت عاليا. وكان تصفاق الموج مثل موسيقى سماوية بالنسبة لنا. وشربنا لاول مرة منذ اربعة شهور ماء طيبا يذخر به النهر الوهاب،

وضربنا خيمتنا فى ظل حرازة ضخمة، وجلسنا نرقب القردة تتدافع مجموعات الى النهر وتعرض حركاتها وألاعيبها المسلية مجانا.

26 يونيـو..

استاجرنا مركبا كانت قادمة من أليس عبرت بنا الى قرية منجرة الواقعة على الضفة الاخرى الشرقية، ووجدنا عليى الشاطئ حوالى الاربعين من العمال يقومون بتجهيز مراكب للحكومة، كانوا منهمكين فى عملهم، بأدوات عمل سيئة للغاية. كانت هناك بعض القطاطى للحدادين، واخرى لنجارى المراكب، وثالثة لصانعى الحبال. وكان الجو جو عمل، يشبه في الحقيقة حوض بناء سفن. وكان المكان فى الماضى غابة لا تخترق، غير ان وجود كل هؤلاء العمال احاله الى موقع عمل.

فارقنا منجرة فى اول صباح اليوم التالى، وكانت ثمة ريح جنوبية نشطة حملت مركبنا بسرعة اسفل النهر حتى اننا رأينا ماذن عاصمة السودان الشرقي فى بحر من الآل فى اليوم الثامن والعشرين من يونيو، وكان بحر ابيض مغطى بالطيور من كل جنس، مما اغرانا بالصيد. لكن الحنين الى الخرطوم كان قويا عارما. ان مجرد التفكير باننا سنكون بين اوروبيين بعد حرمان طويل من اى مجتمع حضارى كان يملؤنا بالسعادة.

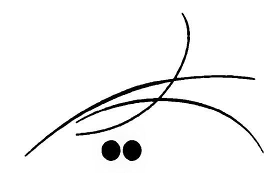
كانت ثمة عاصفة رعدية تتجمع فى الافق عندما تخطينا راس الخرطوم، وقد فارق البارون المركب خشية المطر. اما انا فقد بقيت نصف ساعة اخرى حتى قاربت الذهبية الصف الشمالى الشرقى من منازل المدينة، وربطت هناك، ونزلت اليابسة مع بداية نزول المطر، ودخلت ديوان صديقنا [بينى].

ومن حزمة من الصحف الفرنسية، عرفنا آخر مجريات الامور فى اوروبا.

***

9

فى الخرطوم.. ثم العودة إلى مصر



كانت اغراضنا القليلة التى تركناها فى الخرطوم فى عهدة ورعاية احد النوبيين ويدعى فضل. وقد وجدناها فى احسن حال. حملناها معنا الى منزل كبير يمكن للنعام ان يرعى ويمرح فى حوشه الواسع.

استفدنا من وقت اقامتنا القصيرة فى الخروج للصيد فى حماس، وجمعنا مجموعة غالية فى فصل الامطار الذى كان قد بدأ. 11 يوليو 1848 ..

منذ ايام بدأت الاحتفالات بزواج السنجك طومس اغا، وكانت رائعة. والعروس هى اخت موسى بيه الذى نعرفه، وهو المدير السابق لمديرية دنقلا. وهى زوجته الثالثة. واستمرت الاحتفالات ثمانية ايام. وكانت الصواريخ والالعاب النارية والرصاص الذى يطلقه الارناؤوط فى فرحة وحماس تشق الافق كل مساء. وكما فى رمضان اضيئت المدينة بالفوانيس واوقدت المشاعل العديدة امام الدار. وكانت تنطلق من الدار مقاطع من الاوبرا الاوروبية تعزفها الفرقة الوترية الموسيقية.

وقد لبينا نحن الاوروبيين الدعوة للعشاء، واتينا فى ازهى حللنا المختلفة، يتقدمنا صديقنا (بينى)، ووصلنا فى الرابعة عصرا اليقصر موسى أغا.

وكانت فى الحوش الأمامى لبيت العرس صور زاهية لمختلف سكان العاصمة. كانت فرقة موسيقى الجيش فى صالة الدوان. وقد استقبلنا بعزف مقاطع من المارسليز لا تكاد تسمع. أما غوغاء المدينة فقد كان مجلسها على حصر فرشت على طول الحوش. وكانت أصوات الدربكة ترافق رقص البنات فى الوراء، وكان بينهن جوارى مضيفنا، ولم يعدمن متفرجين. كان بعض الأتراك الصارمين يدخنون فى تأن وهم يتابعون الراقصات، كما أن الشباب قد تحلقوا الراقصات المفرطات فى السمنةوبعضهم يصيح: " ماشاء اله! " فتتحمس الراقصات ويرقصن جذوعهن العليا ويضربن الارض بأرجلهم مثيرات للغبار. وهناك النظرات الطافحة حبا وتلك التى تتمناه.

قادونا الى حوش آخر، ودخلنا من الصالة الى الديوان حيث مضيفنا وبعض الضيوف يدخنون غلايينهم. كانت حجرة مريحة، شبابيكها من زجاج، وهو شىء نادر فى الخرطوم، واطاراتها من الخشب المشغول. وفى وسط الحجرة فسقية صغيرة ترسل ماءها نحو السقف واهنا، فيصب فى قدح واسع ويخلق اثرا لطيفا فى جو الحجرة. وقد زاغت عينا ونتارينى حين دخل الحجرة وراى جمال الديوان وصفا طويلا من زجاجات النبيذ التى وضعت فى الماء لتبريدها.

وبعد ان قدمت لنا القهوة والغليونات انتظرنا فترة حتى اصابنا السأم، ثم ظهرت صينية محيطها اربعة اقدام على الاقل، مجهزة بكل اقداح الكونياك، وعدد لا يحصى من الصحون عليها المزة، ثم دخل علينا بعض الموسيقيين العرب وجلسوا وشرعوا بعد مقدمة مضنية فى العزف على طريقتهم العربية. لكن رتابة معزوفهم لم تؤثر فينا، وحاول كل منا ان يسلى نفسه على هواه. وبعد حين مل الترك انفسهم سماع الغناء

الرتيب، فنادى طومس اغا على الالبان ليؤدوا بعض اغانيهم الوطنية. وكانت ألحانا جميلة. وتأثرنا بالشعور الذى أدوه بها. ولا بد انهم كانوا يتذكرون فى اغانيهم الجبال المغطاة بالثلوج فى وطنهم تحت السماء الايطالية، والدور التى قضوا بها طفولتهم، وربما تذكروا العذراوات اللائى يمثلن بالنسبة لهم الامل والحلم، وربما فكروا بالاب والأم وكل الاعزاء الاحباب البعاد، لان غناءهم كان يزداد رقة ونعومة. كانت آلاتهم صغيرة الحجم، دقيقة، وكان عزفهم جيدا، وما كنا نظن ان قطعة الجلد التى يعزف الواحد منهم بها يمكن ان تبعث كل هذه الانغام العذبة الساحرة. كانت نعومة ورخاوة الالحان السلافية فى انغامهم، كما ان الكلمات كانت تحمل القوة الكامنة فى اللغة التركية. وكان الكورس ومغنو السولو يؤدون بنفس الدرجة من الحذق.

كان واضحا ان مضيفنا يحرص على امتاعنا، اذ بعد ان انهى الالبانيون، بدأ عرض جديد. فى الخارج، امام المصطبة او الصالة الامامية رفع الستار عن منظر عنيف. وكانما انطلقت العفاريت من عقالها. اسرعنا خارجين، يحركنا حب الاستطلاع. كان هناك جمع من البشر المتوحشين تحت ضوء المشاعل الوهاج، يندفعون ويدورون. كان الرجال من ذات يد مضيفنا قد أبوا الا ان يشاركوا برقصاتهم القومية. لم يكونوا بشرا اولئك الراقصون، بل جنا من دجن الليل الحالك. لم يكونوا يرقصون، بل يقفزون ويضربون الارض بارجلهم، ويتحركون دون ايقاع او نظام كارواح شريرة، كجمع من الشياطين المجنونة فى فناء الدار، يهدرون كما الوحوش. ولم ندر ما كانوا يقولون. كانوا يحملون الطرمباج الخطير ويلوحون به، وفى زنودهم وارجلهم خواتم الحديد الرنانة، ووسط كل هذا العويل والضجيج والزفير والضرب بالارجل الذى يقوم به الراقصون او المتعاركون كانت طبول الحرب تدوى.

وقد مضت بضع ساعات منذ قدومنا وبتنا جائعين حقا. ثم جئ بالطعام. وفى البداية دخل خادم يحمل فوطا عديدة فوق ذراعه الايسر، وضع واحدة على حجر كل واحد منا. تبعه آخران يحملان الطست والابريق. وبعد ان غسل الضيوف ايديهم وتمضمضوا، استخدموا الفوط فى التنشيف.

ثم طرح السفرجى بساطا فوق الارض وضع عليه منضدة بارتفاع قدم ونصف، وفرش فوقها فوطة كبيرة. ووضع خادمان آخران صينية عليها. ونهض صاحب الدار من مكانه، ودعا الضيوف ان يتفضلوا ليأخذوا اماكنهم حول المائدة.

كان على حافة الصينية قطع من الخبز الطازج المصنوع من القمح، وملاعق من العاج او الخشب لاستخدام الضيوف. وجئ بالاطعمة المختلفة تباعا وفى سرعة، وكان اولها صحن صغير به حساء جيد الصنع، اقبل عليه المدعوون بعد البسملة ودعوة المضيف لهم. وكان البادئ هو اكثر الحضور وجاهة، وتبعه الآخرون حسب مقامهم. وباشارة من رب الدار اختفى صحن الشوربة. وفى الحال وضع الطبق الثانى، وكان صحن شاورمة، وهو حمل صغير محمر ومجهز بالارز واللوز والزبيب والفستق والبندق والكستناء وما الى ذلك. ودخل السفرجى وشمر عن ساعديه، ومزق الحمل بيديه الى قطع عديدة. ولم تكن هناك شوك او سكاكين. ولذا كان الرجل منهم يستخدم يديه، ويبحث باصابعه الثلاث عن افضل القطع من لحم الظهر. وربما كان مثل هذا الاسلوب فى الاكل منفرا، ولكن كل طاعم كان قد غسل يديه، وكل طاعم يأكل من مكان واحد بالصحن. وقد خدمنا مضيفنا بنفسه، وقطع الشاورمة بيديه. وكان يخرج المحشى فى بطن وصدر الخروف من ارز

وغيره بالملعقة او بيده. واذا اراد المضيف اكرام ضيفه، فانه يكور الارز بيده ويدسه فى فم الضيف العزيز. وقد نالنى هذا ايضا، ولم يجدنى اعتذار، فاضطررت الى ابتلاع ما دس فى فمى.

بعد الشاورمة جئ بالاطباق تباعا. كانت الاطعمة المجهزة باللحم فى صحون صغيرة، واللحم قطع صغيرة. وتتابعت الاطعمة الحلوة وغيرها، وكان الكورس من ثلاثة عشر طبقا. وفى الماضى كان يفترض فى المائدة الفخمة ان تضم مائة طبق.

ويشرب الاتراك الماء اثناء الاكل، اذ يقف من يحمل قلة ماء خلف الضيوف، ويسقى من يريد. وعندما يشبع الضيوف يترك كل مكانه قائلا: " الحمد لله "، فيرد عليه المضيف بقوله: " هنيئا ". ويتم غسل الايدى والافواه فى الديوان، مثلما كان قبل الجلوس الى الاكل. وتختفى المائدة بمثل السرعة التى جيء بها. ويقدم الخدم لكل ضيف غليونا محشوا بافضل انواع التبغ التركى الجبلى، ثم بعد حين يؤتى بالقهوة، ويأخذ الكل فى الانس والحديث فى الديوان، حتى يستأذن الضيوف واحدا تلو الآخر فى الذهاب.

كان خريف هذا العام متأخرا بشكل غير طبيعى. لقد نزل اول مطر شديد فى الرابع من اغسطس، وبعد ايام هطل مطر غزير للمرة الثانية، ودام طول الليل. ثم انتظم هطول الامطار. ولقد شعرنا بعد الضعف الذى اصاب اجسامنا من رحلتنا الى كردفان بتأثير هذا الطقس القاتل علينا. وكانت حمى السودان تعاودنا باستمرار. وكنت محظوظا حقا حين شفيت من الحمى. وقد بدت لنا مصر فردوسا، وكان شوقنا وحنيننا اليها عظيمين.

28 أغسطس..

بلغنا نبأ مفاده ان خالد باشا، حاكم عام السودان آنذاك قد وضع تحت تصرفنا مركبين متجهين الى مصر، وهما من النوع الذى يعرف فى مصر باسم [نقر]، وهما من خشب السنط المتين الذى يدوم طويلا. كانا صغيرين، ويملكهما احد الكبار فى مصر. وقد حملا بخشب بناء السفن. وكانا يفيان بغرضنا، فحملنا عليهما عفشنا والحى من حيواننا فى نفس اليوم، وغطيناهما بخيمة من القصب، وقضينا ليلنا بهما.

وفى اليوم التالى فارقنا عاصمة البلاد مع بداية الصباح. وقرأ الريس وكل الملاحين سورة الفاتحة التى لا يقوم احد بعمل هام دون تلاوتها، سائلا العون والتوفيق من السماء. ونزلت مجاديفنا فى ضربات منسقة ومخر المركب مبتعدا عن صفوف المنازل.

فى المغرب رسونا فى ود [رملى]، حيث قضينا الليل. وقد حاول احد المرافعين [الضباع] الحية التى حملناها معنا ان يستغل فترة الراحة ويخرج من قفصه. لكننا اسرناه صباحا رغم مقاومته المخيفة، واعدناه الى قفصه.

وفى الظهيرة تفرق البحارة فى السوق لشراء ما يحتاجون. وخرجنا نحن للصيد. وكانت ثمة طيور نادرة وثمينة فوق احدى الجزر، وكنا نريدها. وقد وجد البارون جذع شجرة منخوبا حاول استغلاله كقارب، واستعد لركوبه ولم يستمع الى تحذيرى. وقبل ان يبلغ به منتصف النهر انكسر ووجد البارون نفسه فى الماء ومعه سلاحه. فسبح الى الضفة الاخرى، فبعثت بعض الاعراب لمعونته. وقد تحمسوا للبحث عن البندقية بعد ان وعدتهم بمكافاة، ونجحوا.

اجتزنا مصب نهر العطبرة فى الثالث من سبتمبر [تكاسى Takasse] وهو آخر روافد النيل. ورسونا عند المغرب فى بربر المخيرف، والتى

اكدت لنا طلقات مدافع رمضان قربها من قبل. وقد جاءنا كبار اهل المدينة للزيارة عندما بلغناها. وقضينا بها اربعة ايام لينتهى البحارة من كل التجهيزات اللازمة لعبور الشلالات. وقد زاد عدد المسافرين واحدا، هو جندى تركى سابق من يودين بجهة سميرنة، اسمه على. وقد توسل الينا لناخذه معنا الى مصر. وكان قد اصيب فى كوعه الايمن فى احدى المعارك ضد الحبشة ولم يعد صالحا للجندية، وقاسى كثيرا من عدم الرعاية الطبية، ومرض، وشرد من الخدمة دون ان يدفع له رؤساؤه راتبه. وقد داخ فى السودان مريضا ومعدما. وقد وعدنا بان يحسن الخدمة ويستحق مساعدتنا له بأخذه الى مصر. فوجدنا فيه نعم الخادم ونعم المخلص. وقد ساعدنى كثيرا.

12 سبتمبر..

الصحراء تطوق ضفتى النهر. والمنطقة محزنة. وصلنا ابوحمد فى المساء، وهى محطة فى الصحراء النوبية الكبرى. والمكان فقير، يصور تعاسة الصحراء. كانت هناك خيام من البروش ترتفع وسط الرمال الصفراء بين صخور متوهجة سوداء واكواخ تعكس العوز. وكانت الخيام واطئة لا يمكن دخولها الا زحفا. وهناك بعض اكواخ من الجالوص تحت اشجار النخيل ورواكيب، يسكنها الهجانة الذين يحملون البريد بين مصر والخرطوم.

وبعد ابى حمد اسفل النهر يبدأ ما يسمى بالشلال الثالث على النيل، وهو كالشلال الثانى يقع فى اكثر مناطق النوبة محلا وقفرا، ويضم شلالات عديدة حصرها الاهالى واسموها. وملاحة هذه المنطقة خطيرة للغاية، وهى فى اى وقت مغامرة جريئة. وقد عبرنا هذا الشلال الثالث فى سرعة وسلام.

17 سبتمبر..

بعد مغيب الشمس بقليل لمحنا اهرامات نورى. صغيرة هى، وليس بينها ما يرتفع اكثر من ثمانين قدما. وقد بنيت من حجر رملى ردئ، واستخدم طمى النيل عوضا عن المونة. وقد رأينا الاربعة عشر هرما كلها.

وفى وقت القيلولة نزلنا مدينة مروى. وهى مدينة صغيرة بها مصنع قديم متهدم للنيلة ودكاكين سيئة، ومسجد ما زال قائما وان كان اكثره ركام. وقد زارنا الكاشف والقاضى واحد الضباط المسؤولين، وهم وجهاء المدينة. وكانت زيارتهم طويلة ومملة. وبعد ان قضوا معنا ثلاث ساعات اعتذروا بأنهم، لأسفهم، لن يتمكنوا من مواصلة ذلك الحديث الممتع لانهم مثقلون بالاعباء والعمل. فتنفسنا الصعداء حين اوفت تلك الارواح المرهقة وعدها.

قام البارون بزيارة لجبل البركل، لكنه عاد من هناك مخيب الظن، اذ ان الجزء الاكبر من بقايا المعبد القديم الكبير قد اصبح مجرد ركام من الانقاض.

وبين جبل البركل وقرية الطابى عند نهاية الاستدارة الكبيرة الشرقية الغربية للنيل تقع اكثر مناطق النوبة خصوبة. وتمتزج جنائن النخيل بمزارع الذرة وفيرة الانتاج. ويتحرر النيل مرة اخرى من الصخور، وتصبح الملاحة عادية.

وهنا يقطن الشعب الشايقى الشجاع الذى بعد ان افتدى الوطن بابنائه لم يعد شعبا. وفى رقعة فقيرة مزرية منخفضة واجهتنا كورتى على الضفة الغربية للنيل، حيث دفنت النساء فى الماضى جثث اولئك الشجعان الذين مهروا الحرية بموتهم.

وفى الحادى والعشرين من سبتمبر نزلنا فى دنقلا الجديدة. وقد مكثنا بها حتى السادس والعشرين منه لاننا غنمنا صيدا ثمينا.

وفى الثانى من اكتوبر بلغنا شلال دال Dahle بعد ساعتين من شلال عكاشة. وقد حيا الملاحون الولى المدفون الساجى فى قبته، ورموا تمرا فى النهر قربانا ليعينهم على الرحلة الخطرة. وفى العصر عبرنا شلال تنجور وامبقول(امبكول). وعند المغيب كنا قد سافرنا اثنى عشر يوما منذ رحيلنا. وبعد ايام مخرنا شلال (سمى) الصخاب ورسونا مساء فى ابكى حيث وجدنا مراكب حكومية محملة بالسنامكة. وقد وعدنا مراقب الاسطول الصغير عثمان افندى، وهو تركى عرفناه وصادقناه، بان يقدم لنا اكبر مساعدة ممكنة فى رحلتنا فى اليوم التالى عبر شلال وادى حلفا، رغم انه حذرنا الا نركب هذه المجازفة التى لم يسبقنا اليها اوروبى من قبل.

والحقيقة ان شلال وادى حلفا هو اخطر كل الحواجز والعقبات المائية بنهر النيل. ولا يمضى عام دون ان يتحطم عنده عدد من السفن. وكثيرا ما يفقد السباحون النوبيون الجريئون ارواحهم هنا.

وقد حذرنا الكل بان نخشى الله ونعدل عن قرارنا. لكنا بقينا على عزمنا فى عبور شلال وادى حلفا.

وعلى اية حال، كان علينا ان ننقذ ثروتنا من التاريخ الطبيعى من الضياع. فشد بها على التركى الرحال فوق الجمال الى وادى حلفا. ولان بيفين البيروفى لم يكن يعرف السباحة فقد انتزعناه عنوة من بيننا. اما خدمنا من النوبيين فقد خيرناهم بين الطريقين البرى والبحرى، ففارقونا بلا استثناء. وقد رأى البحارة فى اصرارنا نوعا من قوة الرأس والعناد والتهور، ودعوا لنا ان يحرسنا الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، كما دعوا لنا بان يظلنا موسى، راعى البحارة، بعنايته.

رقدنا على الضفة فوق عناقريب متأرجحة، واسدل الليل ستاره فوق الارض. وفى جوف الصخور كان الشلال يدوى ويزأر. وقربنا فاح عبق الميموزا [نبات السنط] ولم نستطع اغماض جفن لتوترنا ونحن نترقب ما سيأتى. وحلمنا فى يقظتنا. ثم دخل علينا عبد الله وهو رواسى عجوز ومرشد للسفن تغطى وجهه الرزين لحية بيضاء ويلف جسده الاسمر قميص من القطن ابيض بسيط وواسع الذراعين. وهو لبس قومى. وفى طلعته ابصرنا كل وقار ومهابة الشرق القديم التى تملأ النفس رهبة وتأسر القلب. وتبدى لنا ثوبه الابيض كثوب القس، وكلماته كأنما هى كلمات رسول. وكان قد جاء ليحذرنا مرة اخرى. وقال فى خطابية اثرت فينا: " يا ابناء الغرباء انظروا. اننى رجل كبير هرم، وقد شعت الشمس سبعين عاما فوق رأسى فاذهبت لونه، وها جلل الشيب رأسى. وقد خارت قواى. انتم بمثابة ابنائى. اذن اصغوا لى يا رجال فرانكن. اصغوا لما اقول.. فإن حديثى نذير صدق خالص النية. انتهوا عن مرادكم هذا. فانتم مجابهون خطرا لا تدرونه، ولا تأبهون. لكننى اعرفه. فلو كنتم قد خبرتم مثلى تلك الصخور المنعقدة فى وجه الامواج تسد امامها الباب، لسمعتم كيف وهى تريد الدخول والعبور مهتاجة، غاضبة، مدوية، تدق بقوة على الصخور الصامدة، فتقتلع الحجارة وترمى بها فى هدير الى القاع، ولعرفتم ان رحمة الله سبحانه وتعالى هى وحدها التى يمكن ان تقود مراكبنا الواهية وترشدها. اسمعوا نصيحتى. فكروا بأمهاتكم، والغم الذى سيحيق بهن لو لم تلحقنا بركة المولى عز وجل. "

لم يكن من السهل علينا ان نتجاهل رجاء هذا الرجل المسن، فاجبناه: «ربنا يهون علينا، فالله كريم».

فاجاب: «والآن امشوا فى بركة الله ورسوله الكريم، وساصلى من اجلكم فى ساعة الخطر».

«امين يا ريس، نشكرك، مع السلامة».

«ليلكم سعيد».

رقدنا لناخذ قسطا من الراحة، ونمنا دون هم طوال الليل.

فى الخامس من اكتوبر. عند المغيب نشطت الحركة فوق سطح المركب الصغير. كان الرواسية الصارمون العارفون للنهر هناك، كما ظهر البحارة اشداء يقظين وعرضوا علينا مساعدتهم. فاختار الربان احسنهم واقواهم. واخيرا جاء بلال، ريسنا الكبير، ليسدى النصح للرجال الشبان. انتحى بهم جانبا. وكان لكل مجداف اكثر من فريقين. وخصص ثلاثة من القواد للدفة. وقام احد البحارة بفك الوتد الذى شد اليه المركب بحبل، مستخدما شاكوشا متينا من الخشب.

«يا رجال وابناء النوبة.. اقرأوا الفاتحة».

وعلى اثر هذا الأمر من بلال شرع الرجال المجتمعون يقرأون فاتحة القرءان بصوت عال..

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. اياك نعبد واياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين انعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

أمين..

وقال بلال: « اشهد الا اله الا الله».

فرد عليه الجميع «ونشهد ان محمدا رسول الله».

وهبطت المجاديف بضربة واحدة فى الماء.

كانت تلك هى الصلاة القصيرة التى تجرى عادة قبل الشروع فى اى رحلة محفوفة بالاخطار، وهى صلاة شعب يجل الله ويعزه. فالكلمات والافعال الدينية عند المسلمين ليست مجرد اشكال مظهرية، انها حقائق عميقة الوقع فى نفوسهم.

ثم صلينا جميعا، داعين الله ان يسدد خطاهم، وان يرشدهم تعالى الى الطريق الصحيح فى هذااليوم.

وقد اثرت فينا تأثيرا عميقا صلاة من يخالفوننا فى العقيدة، ولم يكن الخوف من الخطر هو الذى ملكنا، وانما الرهبة والتقدير لتديُّن هذا الشعب شبه البدائى الذى لا يرفع آلة او يبدأ عملا دون ان ينادى.. " باسم الله الرحمن الرحيم ".. كما امرهم الرسول منذ قرون.

واخذ النهر المحجوز يجرف مركبنا فى بطء، فاعملنا مجاذيفنا عبر مناطق النوبة الممتدة الى متاهة الصخور الممتدة، وبعد رحلة قصيرة بلغنا اول شلال. كانت الامواج تتدافع بقوة مخيفة مروعة فوق الصخور التى لا تكاد المياه تغطيها،والمركب يتخبط فى كل الاتجاهات يئن ويصوت ولا يستطيع حولا. ولم تقدر الدفة على لجم المركب الذى انقذف فى الزبد الفوار الذى يغلى. غمرتنا وبللتنا المياه التى تدفعها الامواج داخل المركب حتى خشينا ان يصطدم المركب ويغرق فى اى لحظة.. وكان هدير الشلال يصم الآذان، ويضيع اوامر الريس فى فوضى اصطخاب الاصوات التى يصدرها. وكانت الصخور المتكاثرة تبدو وكأنها تريد ان تسد كل طريق. فاخذت عيوننا المذعورة تبحث عن فرجة من امل بين صخور الجرانيت العالية السوداء الملتمعة.

وخلال معبر صخرى ضيق تدافعت الامواج وغمرتنا وجرفتنا. وبقلوبنا نوع خاص من الانقباض فى النفس. وفجاة وبلا مقدمات

اصطدم الجميع بالقاع، ألقوا ارضا.. اذ ان المركب قد ارتطم ارتطاما فظيعا بالصخور. وتمخض هذا الحدث المثبط للهمم عن ثقب طفيف. وكانت بالقرب منا صخور عديدة يمكن للمرء ان يلوذ بها لينقذ روحه من غرق. اذن.. فيم الخوف؟

اخذنا نهدئ انفسنا ونتماسك عند كل فرجة تستوجب العبورفى اى لحظة. وكنا نقف على ارتفاع اثنى عشر قدما من مستوى الطرف الآخر من هذا العائق المائى، لكننا عرفنا فى كل لحظة جبروت هذا النهر. كانت الصخور شديدة الانحدار ترتفع على الجانبين منا بشكل عمودى وعلى بعد ثمانية اقدام منا، مما فرض علينا سحب كل المجاذيف. ماذا يحدث ان هشم النهر مركبنا فوق هذه الصخور الضخمة؟

لا اظن ان احدا كان سيستطيع تسلق هذه السفوح شديدة الانحدار. لقد كنا ضائعين وبلا امل فى نجاة وانقاذ. الشجاعة وحدها ما نعول عليه. لكننا ادركنا ان الامواج التى تتهددنا بالدمار هى نفسها منقذتنا، فهى تحيط بالمركب، تلفه، تتسلقه وتجرفه معها فى سرعة طاغية. ومثل سهم منطلق من قوس كانت تلاحقه بين حائط الصخور. وهناك. يا الله.. امامنا مباشرة فى نهاية الشلال، ارتفعت صخرة جبارة برأسها المكايد فوق النهر الذى ارتطم بها فى غضب، والتى بدلا من ان تحطمه اسهمت فى زيادة جبروته. وتناثر الزبد عاليا فوقها، وارتدت المياه متناثرة كما الرذاذ، مجللة كما بالشيب ذاك الرأس الصخرى الهائل. وبذلك ارتطم مركبنا.

" جدفوا بالله، جدفوا يا رجال.. يا شجعان. يا اشداء. ايها البواسل جدفوا.. جدفوا. "

كان ذلك صوت الريس. وامامنا كان المركب الثانى يترنح ويرتج ويميل يسرة ثم يرتفع وترتفع صيحة النصر من البحارة. لقد خرج الى الامان.

"اتبعوا. يالله. اتبعوا اخوانكم يارجال، ايها المتازون.. هيا. تلحلحوا!"

كانت تلك اوامر الريس. لكن. مستحيل. لقد سقطنا دون ان نصطدم على الجانب الآخر. وتبعنا احد المراكب الحكومية، "الذهبية". وقد كان اطول من ان يتم التحكم فيه ودفته سريعا. وها قد انحنت مقدمته ورقد على الصخرة ضحية لهذا الوحش الذى حمله مزهوا فوق رأسه. وعبثا حاول البحارة ان ينزعوه منها، فقد احكم قبضته عليه، واخذ الريس يعتصر يديه ويصرخ، وناشدنا ان نمد اليه عونا، لكننا لم نفقه من قوله شيئا. وكنا تحت رحمة التيار، ولم يكن بمقدورنا ان نمد له يد العون. لكنه سيحرر سفينه، فهو ملك للحكومة. وقد قام احد البحارة بالفعل بمخاطرة العوم من صخرة لصخرة حتى يبلغ اليابسة ويحمل النبأ للبحارة بأبكى، وسيخرجون لتحرير الذهبية من اغلال الصخور حتى وان استدعى ذلك جهدا مضنيا. وكان من الظاهر انهم يحاولون سد الثقب الذى احدثه الارتطام.

ولكن.. اين نحن؟ لماذا يستكشف الرواسية هكذا بين الصخور. كان جليا انه لا مخرج هنا. لقد ضل بنا الطريق واصبحنا فى قلب متاهة. طغى خوف مشل على الجميع ولم يكن احد من البحارة او الرواسية يدرى اين نحن.

وقام بعض البحارة بنزع آخر قطعة تغطيهم ليحاولوا العوم الى الشاطىء اذ لم يعد احد يفكر فى انقاذ المركب. وتخلت الايدى عن المجاديف، والقائد عن الدفة. فاندفع المركب كالمطارد بين الصخور وتدفقت المياه من كل اتجاه، وصار طريقنا المائى اكثر ضحالة.

وفى هذه المحنة العامة دوى صوت بلال ذى السبعين عاما فوق صوت المياه وتذمرات البحارة.

" الى المجاديف ايها الرجال الابطال. هل جننتم يا ابناء الكفرة؟ الى العمل. اعملوا ايها الابطال. ايها الكلاب. ايها الصبيان. ايها الرجال.. ياشجعان.. يا ابطال يا بواسل.. ما شاء الله.. الله كريم. يالله. اعملوا.. "

وقام هوبنفسه بادارة الدفة. وهنا تدفق تيار قوى نحواليسار، فادار بلال السفينة اليه، وتابع مجرى هذاالتيار المائى بيد مقتدرة ثابتة حتى بلغ المجرى الرئيسى. وبذا نجونا من الخطر. وحيت اعيرتنا النارية قرية حلفا التى بدا نخيلها فى الافق. وخر العرب على وجوهم يقرأون الفاتحة كما فى بداية السفر.

بعد نصف ساعة رسونا فى وادى حلفا. وكان يملؤنا شعور بالفرح لاننا اجتزنا كل اخطار هذا السفر الجرئ وخرجنا سالمين. ومع ذلك فاننى لا اريد ان امخر شلال وادى حلفا مرة ثانية بعد ان اظهرنى على الخوف والرعب مرة.

هبط المساء.. اخيرا. وكان البحارة قد حصلوا على خروف، فجلسوا واستلقوا على الضفة تحت النخيل، يحدقون فى النار التى شووا عليها الخروف.

وكان يبدو ان المساء الجميل قد اسرهم، فرنَّ صوت الطمبور بعد حين، وتعالت ألحانه. فنظموا انفسهم فى حلقات للرقص. وفى وقت متأخر من الامسية تعالت ورنت قهقهاتهم وصفقات ايديهم. لقد وجد احدهم مريسة.. وها هم يسعدون!

7 أكتوبر 1848 ..

امس فارقنا وادى حلفا ونزلنا اليوم فى معبد الجبل بابى سمبل. وقد كان الانطباع الذى تركه فى هذا التمثال العظيم اقوى من المرة السابقة حين رأيته للمرة الاولى. وقتها كنت متأثرا بالخلق الاغريقى القديم

المثالى، لكننى الآن قادم من السودان، والآن فقد استطعت ان أوقر واجل الضخامة.

10 أكتوبر..

نزلنا بالقرب من قرية الشلال بجهة اسوان، وكان ريسنا قد ولد بها، ولم يرها منذ خمس وثلاثين سنة. وجاءت نسوة عجائز من كل بيت لاستقباله. وكان قد فارقهن فى شبابهن. وقد بقينا اليوم حتى يتم له الاحتفال بعودته هذه.

وبعد ان فتش رجال الجمارك مراكبنا فارقنا اسوان فى الثانى عشر من اكتوبر، وطلبنا من ريسنا ان يسرع. وواجهتنا ريح شمالية غير مواتية عند معبد كوم امبو على مبعدة ايام من ادفو. ورسونا فى اسنه فى 15 اكتوبر. وكانت الحقول الواقعة خلف المدينة مغطاة بالمياه كبحيرة، وبها آلاف الطيور المائية، تحت قطعان الجاموس التى كانت ترعى هناك. وقمنا بصيد عظيم.

واصلنا رحلتنا ليلا، فوصلنا الاقصر مع طلوع الشمس. وفى 17 اكتوبر كنا فى قنا. فى 28 اكتوبر برزت الاهرامات فى الافق. وكانت بوابة النصر ستفتح لنا اليوم، وقد اعددنا الكمية اللازمة من السلاح والبارود لتحية مدينة الخلفاء متى ظهرت لنا المآذن. ارتفعت قمم اهرامات الجيزة فوق النخيل، ولم تظهر المدينة التى يشدنا اليها الحنين. والآن اخذت المنارات والمآذن تبدومن خلف الضباب، فاطلقنا النار تحية، فدوت طلقاتنا، وقرعنا الكؤوس وشربنا البورغندى العتيق، ونسى الملاحون انفسهم فشربوا من النبيذ الفرنسى الاحمر. لكن كم كانت بطيئة حركة المركب ومخيبة لرغائبنا. ولم نحتمل ذلك، فاخذنا قاربا صغيرا وجدفنا نحو المدينة.

وكانت المحروسة راقدة امامنا فى كل زهوها ومجدها العريق. كيف اصور الانطباع الذى تتركه القاهرة فى الشخص الذى ينظرها ?كيف لى ان اصور مشاعرى وامامى الآن نهاية كل المعاناة والمشاق، وقد نسيت كل المتاعب لانعش نفسى فى احضان الروعة، واعب من كل المتعة التى تقدمها. ولست ممن يقيسون السعادة بالدرجات والموازين، اننى ادركها فى كليتها، واعب فى جرعات كاملة المتعة القصوى للبهجة التى تملا روحى.

ركبنا الحمير فى القاهرة القديمة واسرعنا نحو البوابة القديمة، باب مصر، ففاجأتنا الجلبة والحركة فى شوارع القاهرة اكثر مما شعرنا قبل عام. وكنا مبهورين باختلاط كل شعوب الشمال والجنوب بها.

نزل رفيقى البارون فى فندق الشرق، وهو من افضل الفنادق، وعدت الى المراكب لترتيب امورنا واشيائنا. ثم انتقلنا الى منزل خاص فى بولاق واستمتعنا بالراحة التى حرمنا منها طويلا.

كان البارون قد نوى العودة الى المانيا، ومعه اثنان من خدمنا السوْد، وما جمعناه، بباخرة لويد. اما انا فكان قرارى البقاء فى ارض الفراعنة، على ان اقوم تلبية لرغبة البارون وعلى حسابه برحلة ثانية الى اعماق البلاد بصحبة من يلزمنى من رفقة ومعاونين. وقد تأخرت الباخرة بسبب الريح، وتأخير البريد من الهند الشرقية.

فى 10 فبرائر 1849 تم شحن العفش. وقد آلمنى ان افارق البارون، رفيقى الذى رحلت معه من المانيا وسافرنا معا فى شمال افريقيا حتى بلاد السود، وتقاسمنا الاحزان والافراح عامين، وعشنا تجارب طيبة معا، وتحملنا المشاق سويا، واشتركنا فى الخيمة الواحدة سكنى، والسقف الواحد مبيتا، والاناء الواحد وعاء للشرب من مياه الآبار. ورغم

انه لم يكن احيانا عادلا معى، فقد عشنا على العموم كالاخوين. وها تتفرق بنا السبل، هو للوطن الحبيب الغالى، وانا الى السودان البعيد.

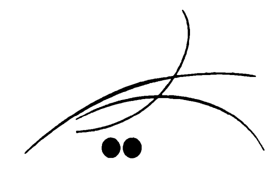
احتضنته، اتمنى له حياة سعيدة، وافترقنا.

***

10

الرحلة الثانية إلى السودان





مرة اخرى اجدنى على وشك السفر الى بلاد السودان على الرغم من طقسها الجهنمى الذى كاد ان يقضى على حياتى فى رحلتى الاولى. وقد بدأت رحلتى بمشاعر مختلطة ولم استطع مداراة بعض المخاوف التى كانت تلح على دائما. كان وضعى كقائد فى الحملة يحتم على واجبات صارمة تجاه رفقائى فى السفر. كان على ان اكون المرشد والناصح لهم وذلك ما اهلتنى له التجارب التى جمعتها من الرحلة السابقة. لم نكن نخشى من الطقس، وكنا حذرين للغاية فى مواجهة المخاطر وسلمنا امرنا للاقدار التى املنا ووثقنا فى طيبتها. وعندما افكر فى الطبيعة فى الغابات الاستوائية واسرارها، واتصور نفسى هناك صائدا محبا للصيد وللطبيعة وما تفتحه من افاق للباحث، فان التوق للسفر يطغى فى نفسى على ما عداه. كانت تحدونا آمال جميلة فى ان نرى بلادا غير معروفة من قبل. كنا نريد زيارة اعالى النيل الابيض ان كان ذلك ممكنا، وان نشق افريقيا. وكانت امامنا فرصة طيبة لان نشارك بنصيب على مذبح البحث العلمى. وكان رفقتى فى السفر مسرورين اكثر بمعايشة الرحلة المزمعة. وما كانوا وقتئذ يعرفون عن المخاطر المتصلة بها الا مما سمعوه من قيل وقال.

وما كان بمقدور احد منهم ان يدرى ان البلاد التى سيرافقنى اليها ستكون مثواه الاخير. لقد مضوا الى السودان يحدوهم امل كبير ولم يعد منهم احد الى موطنه. فمن له القدرة على كشف الحكمة الالهية؟

قبيل مساء 26 فبرائر 1850 أتى رفاقى فى الرحلة فى الموعد الذى ضربناه تماما. وقضينا اليوم التالى فى تحميل الاشياء التى تخص الرحلة. وهبت ريح خفيفة عند المساء حملتنا فقط الى الجزء الاعلى من المدينة. واستمرت الريح فى الايام التالية، فبلغنا المنيا مساء الثانى من مارس. وعندما نزلنا الى اليابسة تقدم الينا محييا مستقبلا المانى من هانوفر هو الترزى شتريب Striebe الذى اقام هنا وله بالاضافة الى محل خياطته محل آخر للتحف والهدايا. ولقد عرفت اثناء اقامتى فى مصر عددا من العمال الألمان.

فى اليوم التالى خمدت الريح، فخرجنا الى الصيد وعدنا بصيد طيب. وقد رأى اوغست تيشندورف August Tischendorf خادمى الجديد، فهدا فى حقول الغلال لكنه لم يطلق عليه النار. اتراه قد ظنه اسدا صغيرا مثلما ظنه الخياط شتريب وقولتز؟.

6 مارس فى أسيوط..

امس مساء وصلنا اسيوط بعد رحلة مملة حاولنا مع ذلك تخفيف ثقلها بالصيد. وتقع المدينة على الضفة اليسرى للنيل، وعلى مبعدة ربع ميل منها تقريبا تقوم مدينة الباشا سيد الصعيد او مصر العليا، وبها 15 جامعا وقرابة 16 الى 20 الف نسمة. واسيوط هى مفترق طرق بالنسبة للقوافل الكبرى التى تغدو وتروح من هنا سنويا الى دارفور. والمسافرون على هذا الدرب يمرون بعدة واحات، ويحطون عند بئر كل ثلاثة اواربعة ايام وتستغرق رحلتهم الى كوبى، عاصمة بلاد الزنج ثلاثين الى خمسة

وثلاثين يوما. وتخرج من هنا ايضا كما من منفلوط قوافل الى واحات وادى الداخلة ووادى الخارجة فى الصحراء الليبية تحمل العسل والفحم.

يمر الطريق الى المدينة بسد بين الحدائق، وجامع تظلله اشجار الدلب ويفضى الى ميدان فسيح تحيط به اشجار الجميز هو فناء مقر الحكومة الجميل. ومن هناك يصل المرء عبر جسر من الحجر بناه محمد على الكبير على القناة، وخلال ازقة جبلية متعرجة، الى السوق. ومما يلفت النظر الحمام الضخم الذى بناه ذلك الطاغية الجبار محمد بيه الدفتردار، وقد اصبح وقفا من اوقاف الجامع الكبير. وقد بنى الكاثوليك كنيسة كبيرة وديرا، وتقوم النمسا بانتداب وكفالة القساوسة.

والحياة فى اسيوط طيبة وغير مكلفة. والمهنة الرئيسية للناس هنا هى الزراعة وصناعة السروج والمصنوعات الصوفية والتى تباع باسعار زهيدة للغاية. ومما يثير الاهتمام ايضا المقابر والتى تشبه مدينة الموتى فى القاهرة، وتقع فى الغرب من المدينة فى الصحراء. وتنعش الزائر أشجار السنط التى تظل المقابر بأنسامها العطرة التى تنبعث من ازهارها الذهبية اللون. وعلى اليسار على سفح الجبل يسارا تقوم مدافن قدماء المصريين، وقد نحتت فى الصخر.

وتبدو اسيوط من النيل افضل حالا من معظم المدن المصرية، اذ ان اشجار النخيل والجميز والسنط والبرتقال والفاكهة الاخرى تغطى كتلة منازل السكنى الى حد كبير، فلا تبرز الا هنا وهناك من خلال الخضرة، كما ان المنائر السامقة فوق النخل والجميز تدل من مسافة بعيدة على المدينة. اما المدن الأخرى فهى على النهر مباشرة ولذا تظهر صفوف مبانيها الخشنة والمتهدمة جزئيا دون اطار يضمها. واسيوط من داخل كما من الخارج مدينة مثيرة جذابة يطيب بها المقام.

فى صباح اليوم التالى واصلنا السفر. كانت الريح مواتية ولكنها ضعيفة.. وقد جاء الخواص بفلاحين لجر الذهبية حتى تشتد الريح. وبذلك وصلنا الى خاو Khau العاصمة القديمة Antaepolis. هناك ينحنى النيل غربا، مما جعل الريح معاكسة لنا. وكان البحارة يريدون تأجيل السفر لما يستلزم جر السفينة تلك المسافة القصيرة. لكن الخواص كان له رأى آخر. فقد حمل البحارة على العمل، ثم استخدم الحزم فى شد الفلاحين الى اللبان لجر السفينة، وشرع هو نفسه فى مساعدتهم فى السحب. وبعد ان عبرنا إلتفافة النهر سارت الامور بالشراع، وابحرنا به طيلة المساء حتى اقتربنا عند منتصف الليل من بلدة [تاختا] التى يشكل الاقباط معظم ساكنيها، حيث رسونا وقضينا الليل.

10 مارس..

تتميز القرى فى هذه المنطقة بأسلوب خاص فى بناء المنازل، والتى تبدو وكانما قصدت لسكنى الحمام لا البشر. فالجزء الاسفل المخصص لسكنى الفلاح وعائلته مبنى من اللبن ودون اى عناية. أما الجزء الاعلى فهو لاعداد هائلة من الحمام. وتظهر العناية به، اذ هو اكثر بياضا واناقة وجمالا من الجزء الذى يأويه الانسان. وهناك خارج القرية ايضا صفوف من الابراج التى بنيت خصيصا للحمام.

ولخفوت الريح خرجنا للصيد قبالة قرية دشنة سيئة السمعة بسبب لصوصية ساكنيها، لكنها هبت مرة اخرى وقرر ريسنا مواصلة السفر خشية اللصوص. وافتقدنا كلبنا الكبير. وطال شكنا اهل القرية. واتضح انه فى محله ايضا، فقد وجدنا كلبنا مقيدا الى احد البيوت، وفككنا اسره مستخدمين السياط. وعدنا الى السفينة ليشرع ريسنا فورا فى السفر. وكان لكل من بالسفينة قصة يرويها عن لصوص

قرية دشنة. كان زعيم العصابة (رجيل) معين، وقد روى لى قصته الريس على النحو التالى:

كان رجيل والدا لخمسة ابناء، هم هريدى وموافى والطيب وحسن وشعبان، انجبهم من زوجه فاطمة، وقد ماتوا كلهم باستثناء واحد منهم فى السجن او على المشنقة. هريدى قتل اثناء محاولة للهرب من سجن اسيوط مطعونا بحراب بنادق الحراس، وشنق الطيب فى قنا، ومات حسن وشعبان فى الحبس من جراء السلاسل الثقيلة التى قيدا بها. اما موافى فما زال حيا ويمارس السرقة ويتزعم عصابة خطيرة. واسلوبه وطريقته فى النهب جديدة مبتكرة. فحين يعوزه المال يبعث احد اتباعه الى احد الشيوخ الميسورين، وبعد تحيته بأدب، يطلب منه مبلغا من المال وخروفا سمينا عن طريق مبعوثه، وان يرسل اردبا او اردبين من القمح الى بيت معلوم.

وخوفا من غضبة اللص فان الشيخ يعطى الرسول كل ما طلب ان تيسر ذلك. ويروى ان موافى قد استولى ذات يوم على مال ثلاثين فلاحا عائدين من السوق بمفرده. والناس على علم ببيته فى قرية سماته بالقرب من دشنة وبيت والدته دون ان يجرؤ احد على التبليغ عنه. ولا يشك من له دراية بجبن الفلاحين فى هذه الرواية.

وكان هريدى قد افزع المنطقة وروعها سنوات، حتى لم يعد المرء يقدر على السفر الا بحراسة. كان يوقف السفن المبحرة على النيل ويأمر القباطنة بالرسو. فاذا خالفوه اطلق النار من الشاطئ على طاقم السفينة، او اشبعهم ضربا ان استولى على السفينة. وقامت الحكومة بكل ما تستطيع للقبض عليه، لكن جهود الجند فى الايقاع به قد اخفقت لأن الصحراء امدته دائما بملاذ فى حالات الخطر. واخيرا سلم نفسه بنفسه

لمحمد على طالبا العفو، ووعد بحسن بالاستقامة، وبالفعل عفا عنه الوالى، وحصل على فرمان وعلى حياته شريطة أن يحرر المنطقة من اللصوص، وان يسلمهم الى السلطات الاعلى. وقد مضى الى الشيوخ الميسورين وابلغهم انه يعلم انهم يأوون عددا من اللصوص تحت حمايتهم، وطالب بتسليمهم والا فانه سيبلغ عنهم هم انفسهم. وقد سعى الشيوخ للتخلص من هذا الخطر بدفع اكثر من مائة قرش. وقد مارس هريدى ذلك فترة طويلة من الزمن، وكان يخدع الحكمومة بأن يسلمها بعض السجناء. ولكن الحكومة عرفت حقيقة الامر فى نهاية المطاف، فابطلت الفرمان وصار هريدى مهددا بالسجن. فلاذ بقبيلة بدوية، غير ان مضيفه اسلمه للسلطات التى كانت قد رصدت جائزة بمقدار الفى قرش لمن يسلمه. واقتيد الى اسيوط. وهناك حصل على ذخيرة، فطعن الحارس وحرر قرابة المائة من المجرمين وفر من السجن، بعد ان سلب الحرس سلاحهم. ومن حسن الحظ ان جرس الخطر قد دق على الفور واستنفرت الحامية التى كانت هناك لمطاردة الهاربين. وكان هريدى قد فقد قوته بسبب طول الحبس ولم يكن فى مقدوره تحمل المطاردة، فأخذ وسارع احد الجنود الى طعنه بالسونكى.

وما زال موافى يهابه الناس، وبسببه يخشى الناس منطقة دشنة او سماته.

«كن سيف افندينا طويل » كما يقول الريس فى ختام قصته.

11 مـــارس..

لم يحدث جديد فى رحلتنا اليوم سوى اننا رأينا تمساحين آخرين. وقد وصلنا قنا مساء وفى موسم الفيضان تدخل السفن النيلية عبر قناة لترسو تحت جدران المدينة. ولكن فى هذا الوقت من السنة يقطع المرء مسافة تستغرق ربع الساعة من المرسى الى المدينة.

ويبلغ تعداد سكان قنا الثمانية آلاف نسمة، وبها ستة جوامع، وسوق [بازار] سئ للغاية، وهى مقر البيه، وعاصمة مديرية قنا. والمهنة الرئيسية هى صنع القلل حيث يتوفر الطين المناسب لصنعها فى المنطقة القريبة بكميات كبيرة. واجرة الفخرانى ضئيلة ولا تتناسب اطلاقا مع العمل. وقنا هى نقطة الانطلاق للسفر الى القصير على البحر الاحمر، ويسلك نفس الطريق الحجاج الى بيت الله الحرام بمكة. وتقدم المدينة خدمات فى شكل المقاهى، كما ان بها حانات وملاهى بفتيات من كل الالوان.

وعلى الضفة اليمنى للنيل بعد نصف ساعة اعلى النهر من قنا ونصف الساعة من الضفة ايضا يقوم معبد دندره الذى بنته قبل مائة سنة قبل الميلاد كليوبترا وابنها من قيصر، واهدته للربة حاتحور او فينوس المصرية.

15 مـــارس..

وصلنا الى اطلال طيبة. وكانت هناك خمس عشرة سفينة محملة باوروبيين معظمهم انجليز او من امريكا الشمالية ترقد فى النيل عند الاقصر. وقد زرنا الآثار الهائلة زيارة خاطفة لمجرد ان نقول اننا قد رأيناها. ولذا لا استطيع ان اقدم وصفا لها. وليتابع القارئ رحلته معى تاركين وراءنا الاقصر والكرنك، ومدينة حابو والمدافن الملكية. وقد رأينا بعض التماسيح المنفردة راقدة فى الضفة الرملية للنيل، واصطدنا ورلا طوله قرابة الستة اقدام من بين شجيرات على ضفة النهر، وكانت بعض الغرانيق تسرع الى مأواها، والسمبر يحلق فى الجو.

17 مـــارس..

توقفنا قليلا فى إسنا، وهى بلدة بها قرابة ستة آلاف نسمة وبها جامعان ومعبد مصرى قديم وكانت فيما مضى منفى للغانيات من القاهرة، ويقمن فى حى خاص بهن، حيث الحياة المرحة احيانا عندما

يأتى اغنياء الانجليز للمتعة. وقد تم العفو عن الفتيات وعدن الى القاهرة. ومنظر اسنا من النيل يترك انطباعا محزنا فى النفس، اذ تقع المدينة على تل اجرد ليس به من الزرع غير بعض الحدائق وبيوت اللهو فى اطرافه.

فى المساء بلغنا ادفو دون ان ننزل بها. وتوقفنا عند وقت العشاء فى احدى القرى الصغيرة.

20 مارس..

بلغت الحرارة 37 درجة فى الشمس، و25 درجة فى الداخل. فأخذ رفاق السفر يتذمرون، خاصة والجو خانق، دون هبوب ريح. فحاولت ان اخفف عنهم بأننا سنواجه حرارة اشد من هذه مرة ونصف. حتى البحارة انفسهم وجدوا هذا اليوم العشرين من مارس حارا. وكانت اسراب السمبر والاوز تحلق متجهة شمالا باعداد هائلة تبلغ الآلاف..

كان جبل الزلزلة باديا للعين فى البعيد. مرت ايام والريح خامدة، ثم اشتدت واصبحت عاصفة دفعت سفينتنا بقوة لتنغرس فى الضفة الرملية. وباءت كل جهود البحارة لتعويم الذهبية بالفشل. فسارع احمد اغا الى حمل قرابة العشرين من الفلاحين للقيام بتعويم السفينة. ولم يسمعوا كلمة شكر واحدة من البحارة بعد ان اتموا عملهم وطفت الذهبية.

28 مارس..

تحولت عاصفة الامس الى ريح مواتية للسفر. وحوالى الساعة التاسعة صباحا عبرنا مضيق النهر بين جبل الزلزلة ورسونا فى كوم امبو عند الحادية عشرة لمشاهدة المعبدين. وكان هناك تمساح كبير راقدا فوق احدى الجزر الرملية فى وسط النيل واظنه ذاك الذى

رأيته فى 16اكتوبر 1847. بعد فترة عاودنا السفر وواتتنا الريح، فوصلنا الى جزيرة ألفنتاين فى الخامسة مساء، ورسونا فى اسوان مع المغيب.

وبعد ان تم انزال امتعتنا واغراضنا، فارقنا الذهبية ونصبنا خيمة فى غابة النخيل. واتانا فى صباح يوم 25 مارس بعض الاعراب ومعهم ستة عشر جملا لحمل عفشنا الى قرية الشلال حيث استؤجرت سفينتان صغيرتان لمواصلة السفر من هناك. ووصلنا قرية الشلال مع الغروب على ظهور الحمير.

والمنطقة المحيطة بقرية الشلال مثلها مثل كل نقطة فى الشلال جميلة بصورة رومانسية. وفى مكان مرسى مراكبنا كان النيل محاطا بكتل صخرية هائلة حتى بدا كبحيرة اكثر منه نهرا. ويكاد التيار ينعدم هنا.

قضينا الليل فى العراء تحت ضوء القمر الرائع. كان الليل صافيا وضيئا، مما مكن رفاقى من كتابة يومياتهم تحت ضوء القمر. وكانت الريح الشمالية الغربية الرخوة تحمل لنا من حين لآخر هدير الشلال. وكان تابعونا جالسين على الشاطىء يدخنون، وعلى اغا يغنى اغان حماسية تركية. وكان الكلبان يقومان بالحراسة فى الخارج، ولكنها لم تكن ضرورية فى هذه القرية النوبية الآمنة.

26 مارس..

بعد الظهر وزعنا امتعتنا على المركبين، وكان احدهما للدكتور فيرتالر وعلى اغا، والآخر لأمتعة اخى وامتعتى واوغسطس الخادم الالمانى والطباخ النوبى محمد. وبعد صلاة العصر بدأنا السفر، وبلغنا اطلال فيلة مع غروب الشمس.

يوم الاحد 31 مارس..

كان اليوم هو يوم عيد الفصح. واتتنا الريح حتى بلغنا كورسكو، وقد عرفنا ذلك المكان البائس فى الرحلة الاولى. وقد رفعنا اعلامنا الكبيرة على المركبين احتفاء بالعيد، واطلق على اغا مسدسه تحية وابتهاجا، فالتركى لا تتم بهجته ان لم يطلق الرصاص.

جلسنا على الشاطى على سجاد تحت النخيل ودخنا. وكانت تحيط بنا اشجار السنط المزهرة ويعبق المكان بأريجها البلسمى، فكان بمثابة البخور الذى تبثه الطبيعة فى هذا اليوم المقدس.

اما العرب فقد وصلتهم المريسة، واخذوا يمرحون، ويرقصون رقصة خاصة بهم تشبه الرقص الكردفانى. ودخل احدهم الحلبة اثناء غنائهم ذى الوتيرة النغمية الواحدة المصحوبة بالتصفيق بالايدى والارزام بالاقدام واخذ يرقص وعصاه فى يده رقصة حاول فيها بكل الحركات والتصرفات التعبير عن رغائبه. وكثيرا ما دخل واحد ليتخذ دور الفتاة فى الرقص.

ان اغانى النوبيين، وهى ذات اصل عربى، رائعة فى الغالب، اى انها ذات قيمة حقيقية من جهة النظم الشعرى. فالشعر بالنسبة للعرب يسرى فى الحياة.. وبهم قدرة غير عادية على ارتجال الشعر. وكثيرا ما رأيت اثنين يتبادلان الحديث شعرا لمدة نصف الساعة، مثلما يتحدث رواة الحكايات الشعبية بالشعر فقط.

كانت اعداد كبيرة من الجمال ترقد فى كورسكو بعد مجيئها من ابى حمد. واخذنا نماطل جريا وراء اجر ارخص، اذ انها ستعود الى ابى حمد بلا حمولة لتعبر بنا الصحراء النوبية.. لكن شيخ الجمالة وضع اسعارا جعلتنا نغير رأينا ونختار الطريق عبر وادى حلفا، ومن هناك اردنا

مواصلة السفر بالجمال. وطلب شيخ الجمالة حتى دنقلا العرضى خمسة وثلاثين قرشا للجمل، وهو السعر المألوف الذى فرضته الحكومة. اما التجار والمسافرون الذين لا يحملون فرمانا فيدفعون ضعف هذا المبلغ. ويقع الطريق فى اثنين وعشرين محطة او خمسة وثلاثين الى اربعين ميلا. ولسوء الطريق ووعورته فانه يقطع فى عشرة الى اثنى عشر يوما. وعادة ما يختار الناس الضفة اليسرى للنيل مع ان الطريق على الضفة الاخرى يختصر عطفة فى النهر ويوفر بذلك يوما او يومين.

أثناء إقامتنا رأينا نسورا ضخمة تحلق فى السماء الزرقاء. وقررنا ان نجتذبها، فاشترينا حمارا نافقا، سممناه وألقينا به فى ساحة خلف مكان اقامتنا. لم تظهر النسور، بل جاء بدلا منها عديد من الضباع كل ليلة. فقررنا صيدها. وكان المكان داكن الظلمة، فلم نتمكن من التأكد من اصابة اى منها. وقد وجدنا صباحا آثار دماء تبعناها ساعة فى الصحراء دون ان نجد ضبعا ميتا. وهذه الحيوانات ذات سبعة ارواح ولذا فان من الصعب اصابتها وقتلها. وهى فى هذه المنطقة بلا خطر يخشى.

كانت ريح الخماسين القوية تعذبنا كل يوم، فهى تثير سحبا من الغبار، تدفعها الى صالات مكان اقامتنا. فنصبنا خيمة، لكن الريح هدتها ليلا فوق رؤوسنا. فكان افضل شئ لنا ان ننام فى حمى احد الجدران، بعد ان اقمنا عليه خيمة تشبه خيام البدو.

18 أبريل..

أمس قدمت جمال اخترت من بينها ثلاثة من الهجن، ثم اخترت افضلها ليسرج لأخى. وحوالى التاسعة صباحا فارقنا وادى حلفا، وعسكرنا بالقرب من أبكه تحت اشجار النخيل حيث تناولنا وجبة الغداء. وكان ادريس احد خدمنا النوبيين قد مضى الى جزيرتهم الصغيرة

وضرب اهله دون اى سبب. وقد اشتكوه لنا، ووعدناهم بانه سيلقى جزاءه. وكان ان جلدته بالسوط.

فى الرابعة بعد الظهر ركبنا وبلغت واخى النيل مرة أخرى عند العشاء، حيث عسكرنا واوقدنا نارا. ولم يظهر جمل الشيل الذى يحمل الدكتور الا بعد اكثر من مضى ساعة، اذ كان قد تعثر فى الطريق لضعفه وكان لا بد من تفريغ حمولته.

بعد ركوب لعدد من الساعات هذا الصباح فى غابات نخيل متصلة، بلغنا اطلال معبد من زمن الفراعنة، كان اسمه غير معروف لدى وطرقنا دربا صحراويا مفارقين دار السكوت. وقد وصلنا قرية كوة فى ارض المحس بعد الظهيرة. وقد انتظرنا جمال الشيل التى وصلت بعد ساعتين. وكان اخى الذى لا يكل من جمع الجعارين يريد الخروج مرة اخرى للجمع. وقد طلبت من اهل القرية كلهم ان يعينوه، ووعدت بدفع مبلغ معين مقابل عدد منها أريتهم نوعا منها. فاندفع الصبية والرجال والفتيات للبحث عن الجعارين.

25 أبريل..

بدأنا سفرنا مع أول تباشير الصباح، ووصلنا فى السابعة صباحا قرية توقفنا بها وقتا قصيرا لنعد الافطار. وفى فترة الانتظار قمنا باستغلال الزمن الغالى فى جمع الجعارين فى المنطقة المحيطة بنا. فأخذنا ذلك الى جزء من القرية تنبعث من احد بيوته صرخات عويل ونحيب. كانت قرابة العشرين من نسوة صغيرات جالسات على الارض بكيات نائحات. وكانت ثلاث من النسوة المسنات عاريات حتى الكفل قد شبكن الايدى وصرن يسرن جيئة وذهابا ويصدرن صرخات نواح ويرفعن الاذرع عاليا فى الهواء ويحثثن التراب فوق الرؤوس. وقد جلس

الرجال بعيدا على الارض يتحدثون فى هدوء. وكان كل قادم جيد يحيى اقارب الميت ببكاء وعويل لم ار مثله فى السودانيين من قبل.

نباتات هذه المنطقة تقترب شيئا فشيئا من طبيعة المنطقة المدارية. وتغطى غابات الميموزا الجميلة الارض المنبسطة. وكانت فى موسم إزهارها، ويفوح الشذى منها معطرا الجو. والارض هنا خصبة وتسهل زراعتها، ولكن لا تتوفر الايدى التى تخرج الكنوز التى تخبئها الارض فى رحمها. ان سكان هذه المنطقة المعافاة لم يعودوا الى اعدادهم السابقة منذ ان استولى الاتراك على ارض النوبيين. فى ما مضى كان بجزيرة ارقو التى يرقد طرفها الادنى قبالتنا ألف ساقية، ولكن ربع ذلك العدد يعمل الآن. وكان ملك ارقو شخصا وجيها هاما، لكن شيخ الجزيرة اليوم مجرد عبد تحت القهر المصرى وان كان حر المولد.

26 أبريــل..

اضطرتنا ريح الخماسين اليوم الى عدم مواصلة السفر الا فى وقت قريب من غروب الشمس. وتوقفنا فى العاشرة لتناول القهوة. لكننا لم نجد الماء. وقال ادريس فى سذاجة تامة موضحا انه لم يأخذ معه اى ماء. فذكرته بتعليماتى له بالتحديد قبل السفر بأن يملأ الزمزميات. فقال ببساطة انه نسيها. ولماذا؟ اجاب باننى كان بمقدورى ان اقوم بذلك بنفسى. واوضحت له ما كان يمكن ان يحدث لو انه نسى ان يحمل الماء اثناء رحلة عبر الصحراء. وبدلا من ان يلزم الصمت صار فظا وازداد فظاظة، فلم اجد امام هذه الوقاحة غير المحتملة غير استخدام الشىء الوحيد الذى يعيده الى الانضباط.. السوط. وعندما انطلقنا من جديد كان قد اختفى تماما، فقد غافلنا وامتطى جمله مبتعدا.

واصلنا السير طيلة الليل فبلغنا دنقلا العرضى بسويعات قبل شروق الشمس. وكان جماعتنا قد نزلوا فى بيت احد اليهود الايطاليين هوالسيد موربيرجو، من الاسكندرية. وارشدنا الناس الى هناك. وكان مضيفنا شابا ودودا بشوشا. وفى ما بعد الظهر بعث الى مدير محافظة دنقلا، شريم بيه، يدعونى الى ديوانه وتدخين الغليون معه. وقد استقبلنى فى ود، وفوجئت فى النهاية بان خادمى ادريس قد شكانى الى البيه لسوء معاملته. وطلب منى ان اروى له حقيقة ما جرى. واستمع الى بعمق، ثم قال:

"لقد ارتكبت خطا كبيرا يا خليل افندى. لقد جلدت الصبى تأديبا له، ولكنك تساهلت معه. يجب ان ازيده عقابا. "

وباءت كل محاولاتى لاثناء البيه عن قراره. فجئ بالنوبى وامر بضربه مائة وخمسين فلقة فى قدميه. ثم امر ادريس الذى لم يكن يقوى على المشى بأن يطلب الصفح منى، وقد صفحت عنه، كما اجبته الى طلبه بان يترك خدمتى فورا، لاننى كنت اعرف سوء طويته.

طابت لنا الاقامة فى دنقلا العرضى بفضل لطف وجهاء المدينة. استقبلنا كل تركى عالى المقام هنا، ورددنا له الزيارة كما لبينا دعوات عديدة. وفى 29 أبريل أقام صاحب دارنا حفلا أمّه الحاكم وحاشيته، وكذلك السنجك عابدين بيه، الذى كان عائدا من بربر الى مصر. وقدمت الخمر، ورقص الناس.

فى الثانى من مايو زرنا رئيس الفرسان الالبان الاربعمائة غير النظاميين فى معسكره فى كابتوت، وهى قرية من قرى مدينة دنقلا، تغطيها اشجار النخيل. كان عابدين بيه يقيم فى خيمة كبيرة جميلة مضروبة تحت ظلال نخل كثيف. وبجوارها خيمتان لاثنين من حريمه.

وقد احسن استقبالنا واكرمنا بكل الطيبات، ولم يتركنا نعود حتى المساء. وقد ارانا الخيول الثمانية عشرة التى اشتراها للوالى من افضل الخيول الدنقلاوية. كانت كبيرة وجميلة ومتينة البناء، ذات ألوان داكنة، جسورة ولكنها لطيفة وهادئة مثل كل الخيول العربية الاصيلة. وكان البيه يرجو ان يدخل البهجة بهذه الهدية الغالية على قلب مستقبلها.

فى الخامس من مايو كنا معزومين لدى خليل افندى، مساعد البيه لاحتفال شم النسيم، وكان المحافظ قد دعى ايضا. وقضينا وقتا طيبا، وغنمنا الكثير من الجعارين، كما استخدمنا كلابا نافقة للايقاع بنسور. وكان صيدنا يزداد يوما بعد يوم، وبه كنا سعداء.. ولكن من يستطيع ان يعتمد طويلا على ابنة الاقدار.

فى يوم 8 مايو1850 فى الاربعاء السابق ليوم صعود المسيح الى السماء اتفقت واخى ان نستحم فى النيل.وكان هناك خليج هادىء يتصل بالنهر فى طرفه الاسفل، وبجزيرة رملية ضخمة خالية من التماسيح. وبه الماء رائق كانه بحيرة. وقد اردنا الذهاب اليه. هناك لحظات فى حياتنا يخيل الينا ان صوتا محذرا ومنذرا فى داخلنا يفصح عن ما يقوله القدر.وقد خطرت لى اثناء ما بعد ظهيرة اليوم ودون اى سبب اغنية: فلق الصباح، يا فلق الصباح.. اضئ لى الطريق الى موت مبكر! وقد غنيت بصوت عال متوجها الى اخى:

الآن بوجنتين كالذهب والارجوان تزهو..

آه لكن.. كل الزهور تذوى.

وقد مضينا الى الاستحمام دون هم. وكان اوسكار قد نزل مرارا فى ذلك الخليج، ولكنه كان ضحلا فى تلك الناحية مما جعل ماءه حارا بصورة غير مستحبة. فبحثنا عن بقعة اعمق. وهنا هرب اللون من وجه

اخى وقال: يا الاهى.. اترانى سأغرق! اننى احس بخوف داخلى لا استطيع دفعه. فانا لا اعرف السباحة.

كان على ان احجم واعزف عن الاستحمام، او على الاقل ان انصح اخى بعدم المضى.

دخلت الماء وتحسست العمق، وتأكدت منه. ثم اخبرت اخى ان الشاطئ ليس منحدرا او مائلا، وأريته المسافة التى يمكنه دخولها دون خطر عليه، ثم سبحت الى منتصف الخليج حيث عمت فى مائه البارد كما اشتهى. وكنت انظر مرارا ناحية اخى فأراه دائما بمنأى عن اى خطر واقفا فى الماء. وكنت فى طريقى للعودة حين سمعت فجاة الصبى الابكم الاصم الذى طالما احسنا اليه يطلق صرخة نكراء، ويشير بحركاته وتصرفه صوب الماء مما ايقظ فى نفسى أسوأ المخاوف. وايقنت ان خطبا جسيما قد وقع، لكن عقلى لم يشأ ولم يستطع ان يستوعب الحقيقة الفظيعة المرعبة. سبحت باقصى سرعة وقوة حتى وصلت الشط، فوجدته قفرا! اخى! اوسكار! اوسكار! ولا من مجيب. اين يمكن ان يكون ?هناك كان حذاؤه. وفجاة رأيت افظع ما يمكن. وكان الفتى الاصم قد جذب الناس، وحاولت ان اغوص فى الاعماق، لكن اعضائى كانت مشلولة فلم اقدر. كررت المحاولة دون توفيق. فتركت ذلك للنوبيين الذين قدموا، وجلست على الشط وكأننى فاقد الروح والجسد، ترتجف اعضائى، ولا ارى سوى فوضى امامى. كنت عاجزا عن كل شئ. عنفت نفسى أمر التعنيف ولمتها اشد اللوم لانى تركته وحده واننى لم انقذه. وما كانت بى قدرة على النطق.

كان الشاطئ قد امتلأ بالناس، وكان خمسة عشر او عشرون نوبيا يغطسون فى الماء، وكان الدكتور وعلى اغا وخادمى الالمانى وصاحب

نزلنا كلهم هناك يحثون الناس ويشجعونهم. وقد جئ بمركب استخدمت فى الغوص حتى انتشل الجثمان اخيرا، ورفع على ظهر المركب وحمل الى غرفتنا. وقد حملنى الناس انا ايضا.

اسجينا الجسد الذى لا حياة فيه وشرعنا نحكه باقمشة صوفية. وفتح الدكتور شريانا فى يده اليمنى اولا، فلم يخرج اى دم. ثم كرر ذلك على يسراه.. فسقطت قطرات قليلة. فلم ييأس، بل جهز وقام بكل ما يمكن لطبيب ان يقوم به. واخيرا فتح القصبة الهوائية لينفخ هواء فى الرئتين. ولكن الأوان قد فات! كنا نبكى ميتا. وقد مات باعتقاد الدكتور فيرتالر بجلطة فى الدماغ.

اخذ الناس يواسوننى، ويبكون. ولم استطع ان امسك دموعى، وقد حاولت ان اتجلد فلم اقدر على ذلك. ولم يغمض لى جفن تلك الليلة. كانت اكثر ليالى عمرى طولا وحزنا. وكنت وانا انظر ومضات الضوء الذى ترك بجانب الميت العزيز ارى كل ومضة من امل تحاول ان تنبعث فى داخلى تسود وتخبو. وعندما اتانى على اغا ذلك التركى الوفى ورأيت الدمع فى لحيته الرمادية انفجر البكاء بداخلى من جديد، وبكيت فى مرارة.

فى اليوم التالى اعد مضيفنا وخليل افندى مساعد المدير كل لوازم ألدفن. وقد اعد تابوت من خشب صندوقين من صناديقنا وضع فيه جثمان اخى عند الظهر. وكان الدكتور قد اشرف على غسله ولفه فى ثوب ابيض. وكان شريم بيه قد بعث الى ليس فقط بنجارين لتجهيز التابوت وانما بمساعديه ليقوما باعداد كل ما يلزم لجناز رائع.. وبعد حين جاء جندى من الكوماندو ليرافق موكب الجناز.

وفى العصر غطينا التابوت بوضع العلم النمساوى عليه، والذى كنا تحت رعايته وحمايته، كما وضعنا فوقه غصنين من نخلة كنا نجلس

تحتها معا، ثم حملنا النعش يتقدمنا الكوماندو وبرفقة مساعدى الديوان، وتوجهنا الى المدافن القبطية. وقد رافق النعش على اغا ومضيفنا والتاجر حنا سابواى وعمال المنزل وعدد من المسيحيين الاقباط. وتوجهنا غربا فى الصحراء. وكان العمل فى حفر القبر لا يزال جاريا لانه كان يحفر فى الصخر. وكان المدير قد رتب هذا ايضا. وقد صرح بمئات من الطوب المحروق المخصص لبناء الجامع لتؤخذ الى فناء الكنيسة ليقام بها قبر رجل مسيحى.

تم بناء القبر، وشيع الآباء الاقباط الميت وصلوا عليه. كما صلينا نحن. وشاركنا الاتراك فى الصلاة.

لقد كان لاشتراك رجال من خمس فرق دينية فى تشييع اخى اثر كبير فى نفسى..مثلما امتلأ قلبى بالراحة وانا اسمع الصلاة عليه تقام باربع لغات. وليعرف القارئ الذى يحكم على الاتراك والمسلمين بانهم متعصبون خطأه، ويعيد حكمه، وليسأل نفسه ان كان سيصلى على قبر اغريقى او قبطى او مسلم او يهودى.. مثلما فعل هؤلاء.

ثم انزلنا التابوت فى القبر.. وكعادة بلدنا نثرنا فوقه قبضة من التراب، ثم بكينا.

وهكذا يرقد جسد اخى اوسكار فى قبر بسيط فى الصحراء غرب دنقلا بحوالى الف خطوة منها. لقد كان انسانا نبيلا، محبا للخير، واسع المعرفة، متواضعا، متحمسا. وهو متجرد ومحب للعمل. وقد عاجله الموت فى الثامنة والعشرين من عمره. وبموته فقدت افضل صديق وأعز معاون واخلص مرافق. وكان موته اثقل ضربة ينزلها بى القدر.

فى مساء العاشر من مايو زارنى المدير شيريم بيه للتعزية، وقد واسانى بكلماته على الطريقة الشرقية:

ارفع رأسك يا خليل افندى ولا تعترض على قضاء الله وقدره. تعرف ان الموت يدركنا طال الزمان ام قصر.. ليفتح الله لنا ابواب جناته. لا تترك الحزن والكمد يطغى عليك، فكلنا هنا فى الغربة ولسنا فى مواطننا وبين اهلينا. فكر باحبابك فى بلدك، فهذا افضل، حتى لا يثقل الكمد.. "

تلك كانت كلمات مؤمن محمدى وقد قالها مواساة لمسيحى غريب عليه.

ومع ذلك.. كان كل شيء يبدو لى كحلم ثقيل. وكان الامر بالنسبة لى كأن اخى كان عائدا من رحلة صيد. لقد حفر موته فى نفسى اثرا عميقا مؤلما. كنت اريد العودة الى المانيا لو استطعت الاتصال بالبارون.

فى 13 مايو.. قمت والدكتور فيرتالر بزيارة أخرى لقبر فقيدنا العزيز، قبيل المساء، والشمس ترسل اشعتها الاخيرة قبالتنا، والصحراء هادئة. كان ذلك الذى قبل ايام قلائل يتمتع بالشباب الفتى ويجول بيننا، يرقد الآن تحت احجار القبر. وكان كل منا حزينا وغارقا فى تأملاته الخاصة. وعدنا فى صمت الى المدينة. وكنا نريد مواصلة سفرنا فى اليوم التالى.

14 مايو.. غادرنا دنقلا شاكرين كل من قدم لنا العون والمساعدة والصداقة فى ذلك الوقت العصيب. وبعد رحلة اسغرقت تسعة ايام وصلنا امبكول. ومع غروب الشمس وصلنا الى خيام البدو. وكانت هناك فرس من اصل دنقلاوى مربوطة من قدمها اليسرى الخلفية امام الخيمة الرئيسية. وكلاب كردفانية، نبحتنا. وعلى اشجار الميموزا القريبة من الخيام كانت الرخم تتقاسم هذا الهدوء الامن مع دجاج البدو.

بشرنا الخبير بأن ننتظر قافلة قدمت بعد ساعة. ثم واصلنا السير. كان الوقت ليلا. وحداة الابل يغنون خلف ابلهم، وعلى اغا يغنى اغانى وطنه. وكانت الكلمات الجميلة المعبرةعن لغة قوية وغنائية تغمر هدوء الليل الرائع والصحراء. وبعد حين توقفنا عن السير.

30 مايــو..

مـع اننـا كنـا نريـد استـغلال بـرودة الصـباح ونـواصل السـير تحت ضوء القمر لم نتحرك الا قبل ساعة من بداية اليوم، اسرعنا بجمالنا ثم توقفنا للراحة بعد بضع ساعات لنجهز لانفسنا قهوة. وقد استغل جملي هذه الفرصة ليتجول ويرعى من بعض اشجار الميموزا مع انها على بعد ربع الميل منا. وبعد جهد جهيد استمر اكثر من ساعة تمكنا من ارجاعه، ثم واصلنا الركوب، وبلغنا احد الخيران بعد حين كان محفوفا باشجار الميموزا وبه تكثر الطيور. كان مسيرنا اليوم باتجاه الجنوب الشرقى الى جبل اجرد داكن اللون اسماه الخبير جبل شينكاوى. وكان يتوقع ان يجد به ماء من الامطار التى هطلت فى يوم 23 مايو، يمكننا ان نملأ منه مواعيننا لكى لا تضطرنا الحرارة الطاغية الفظيعة لفقدان الماء الذى يفنى انعدامه كل شئ. حوالى العاشرة صباحا تفيأنا ظل شجرة او شجيرة كثيرة الشوك لا اعرف لها اسما، وظللنا هناك بانتظار القافلة.

وطال انتظارنا دون جدوى. لم نكن قد اخذنا معنا اى طعام او ماء للشرب وشعرنا بجوع طاغ. حاولنا بادئ الامر ان نسده بالثمار الحمراء شبيهة التوت التى بالشجرة التى استظللنا بها، ولكن البطن كانت بحاجة الى ما هو اقوى، فمضى الدكتور بحثا عن صيد من الطير الذى كان يكثر بالموقع، وخرجت انا بحثا عن الماء اذ حسبنا اننا واجدوه من المطر الذى هطل هنا. بعد نصف ساعة من البحث وجدته وملأت منه زمزمياتنا. وعاد الدكتور بعدد من الطيور، نظفناها وسلقناها فى عدة القهوة. ووجدنا الماء فى بركة طينية، وكان طعمه افضل من ماء القرب التى معنا على الرغم من اختلاطه بالطين.

31 مايــو..

انـطلـقت القافـلة بعد طلـوع القمـر مباشـرة وتابـعناهم بـعد ان اصبح الصـبح باتجاه الجنوب الـشرقى وبين جبل الـسهنكاوى الـصغير والاخر الكبير، وهمـا جبلان مخروطيا الشكل يقفـان منعزلين. وكان امامنا ثلاثة جبال اخـرى تـفـصل بيـنـهـا مسـافـات متـسـاويـة، واسم ذلك الواقع فى جنـوبها الشرقى سنى. وفى ارض مستوية معـشبة يمر بها طريقنا كانت اربـعة جمـال ترعى وهى فى اتم صـحة. واقتـربت منا وكـانها تـريد تحية مطـايانا. وفى التـاسعة صـباحا لحـقنا بـالقافـلة وقطعـنا معـها خورا يقع امـامنـا ويـسمى هـنا وادى ابـو روى. وكانـت ثلاث قمم لجـبال بـادية فى الـبعيد، يسمى احدهـا جبل ابو صاموت والآخران يتـبعان جبل البيوضة. كانت الحرارة شديـدة مما اضطرنا الى التـوقف تحت اشجار الميموزا فى واد بـالقـرب من جبل الـتومات. ولم نـتحـرك الا فى الـرابعـة عصـرا حين سمحت لنا الشمس الغاربة بمواصلة الرحيل.

وكـانت امراة مـن البدو الـقاطـنين عـند بـئر الـبيـوضة قد انـضمت الى قـافلتـنا فى امبـكول، يصـحبهـا ابنهـا الصـغـير الذى لم يـبلغ السـنة عمرا. كـانت تمـشى بالقـرب من الجمـال، تحمل الولـد حينـا، وحيـنا تـناوله احد رجالى يـردفه عـلى الجمل. ولم اسـمـعه قط يصـرخ او يـبكى.وقـد تـحمل حرارة الـشمس الفظـيعة وتأرجح سيـر الجمل بنفس الـقدر. ما الذى كان طفل من اطفالنا سـيفعله؟ إن الأطفال الصـغار هنا اكثر تفهما واكثر تقدما مـن اطفـالـنـا وذلك لـسـبب بـسـيط هو انـهم لا يـلـقـون سـوى الـقلـيل من المسـاعدة. ان العربية ترقـد ابنها عاريا فوق جلـد معزة وتؤدى عملها، ولا وقت لديـها لتنشـغل به كثيرا. وحين يـبلغ العام والنـصف من عمره يحبو فى الرمـال ويـشرع فى الـلعب مع اخـوته. ويـؤخذ الـطفل فى كل تـرحال

الطويلة.

عندما فارقنا المكان الذى تخذناه للراحة هالنى ان وجدت مقياس الحرارة الخاص بى مكسورا. وكانت تلك خسارة باهظة اذ لم يكن من الممكن استبداله. كانت وجهتنا مرة اخرى الى الجنوب الشرقى. كانت الارض مسطحة رملية صلبة مغطاة بحجارة صغيرة رمادية مستديرة مجوفة بها حديد وبحجم قذيفة المدفع زنة ثلاثة ارطال. وصلنا بئر البيوضة بعد ثلاث ساعات وهناك اقمنا تحت شجرة ميموزا هى نفسها التى اظلتنى قبل سنتين. ووصلت القافلة بعد هبوط الليل.

كانت عل البئر امراتان من العرب تردان الماء. وكانت احداهما آية فى الجمال، ورحبت بى ترحابا حسنا " مرحبا بك عشرة " صاحتا بى كلتاهما وانا اقترب من البئر. طلبت ماء.. وكما فعلت ربيكا عند البئر، كذلك اليوم سقتنى الصغرى بقرعة ماء سائغا وقالت: " اشرب وسوف تسقى جمالك ايضا. " وكانت كما علمت لاحقا، ابنة المرأة التى قدمت معنا.

وبعد ان ملأت النسوة مواعينهن، رمين بالحبل الفارغ مرة اخرى فى البئر التى يرقد الماء فيها فى عمق تسع قامات، واخذن يجذبن حتى خرجت بنت لا يزيد عمرها عن ثمانى سنوات، كانت قد جمعت الماء فى ما يشبه النفق. واخذت الطفلة الحبل وشرعت تتسلق بقدميها على جنبات البئر. كان وجهها صبوحا، رائع الجمال، بلونه الاسمر الفاتح. وكان شعرها يتدلى فى مئات الضفائر الصغيرة. وكانت تنوى الذهاب مع اختيها الى الخيمة المنصوبة بعيدا عندما جاءت القافلة وبها امها. فاسرعن صارخات فى فرحة يرحبن بالقادمة وباخيهم الصغير بقبلات صادقة. وكان الخبير من اقرباء هذه الاسرة، فاقبل لتحية الفتاتين.

طلبت حليبا فاتونى به بعد حين فى سعن. كان لبن ماعز طازج، دفعت ثمنه، واعطيت الصغيرة خيطا من الخرز الزجاجى سُرَّت به كثيرا.

2 يونيــو..

كانت الخرزات الزجاجية القليلة التى اهديتها بالأمس قد جذبت اليوم الكثير من الاعرابيات وبناتهن الى معسكرنا ومعهن اللبن والاقداح المصنوعة من الخشب وجلود الغزلان واشياء اخرى لمقايضتها بالخرز. واسعدنى ان ألبى لهن مرادهن.

الاعرابيات فى منطقة البئر لهن شعور جميلة ناعمة وطويلة، مضفورة ومدهونة بصورة مختلفة عن الطريقة التى لنساء البرابرة. وكنت اتمنى ان احصل على ضفيرتين من هذا الشعر الذى يسيل منه الدهن. ولكننى اصطدمت بمشاكل لم اكن اتوقعها. ان نساء بعض القبائل البدوية يقدرن شعرهن تقديرا فائقا. وقد سادت عادة من قديم الزمان تدعم هذا الحرص على الشعر وهى ان يشترط عند الزواج ان يقوم اهل الزوج بدفع ناقة عن كل شعرة ينزعها عنوة، وذلك تكفيرا عما حدث. وبعد ترج وهدايا سمحت تلك الفتاة ان انزع واحدة من ضفائرها.

رحلنا قبل غروب الشمس وركبنا حين حل الظلام بمحاذاة القافلة. وكان الحداة يغنون وراء جمالهم. كان واحدهم يغنى ويدخل الآخرون بعد كل مقطع مرددين: " شوقى الرسول يا اخوان. " .

ان من خبر المعاناة فى الرحلة الصحراوية الشاقة حين يفكر فى هولاء الابالة وكيف ان الواحد منهم يحمل جمله فى الصباح الباكر ثم يظل اليوم كله ماشيا خلفه فى الحر الفظيع دون ان ينعم باى طعام حتى يحل المساء او عند الظهيرة فى موسم الحر الشديد، وما يتناوله نطعمه نحن فى بلادنا للخنازير، فلا بد ان يستغرب المرء ان يكون مثل هذا

الانسان فرحا وقادرا على الغناء. كانت اقدام الجمالة قد احترقت من جراء الشمس الحارقة والرمال. حتى كلبنا لم يستطع المشى فحملناه على ظهر جمل. وكان االعرق يغطيهم اثناء السير ويسيل مختلطا بالغبار الذى يغطى اجسادهم. واحيانا فقط يبللون اللسان ببضع قطرات من ماء القرب الحار النتن الرائحة. وذاك كل ما لهم من غذاء طيلة الرحلة، وهو نفسه الذى يقدم غير مطبوخ للجمال. وهم لا يتناولون اكثر من وجبتين ابدا. وعادة ما ياكلون فى الظهيرة ثم لا يتناولون شيئا حتى ظهر اليوم التالى. والحق ان المرء لا يحس بالجوع فى الحر الشديد، بل يظمأ.. يظمأ.. يظمأ. ولا ادرى كيف يمكن للمرء ان يجمع بين مشقة سفر هؤلاء القوم راجلين وقدرتهم على الاحتمال، ناهيك عن مقاساة الجوع وذلك التعب اللاإنسانى.. ومع ذلك تجدهم يهشون ويبشون. وعندما تميل الشمس للغروب تبدو اعضاؤهم وكانها تنشط من جديد، وتقوى عزيمتهم وقدرتهم على الاحتمال. وعندما يهبط الليل بجوه البارد ويسحر كل الاحياء بجماله الذى لا يوصف تتفجر الفرحة والغبطة فى قلوب الناس، ولا بد لها من ان تعبر عن نفسها بالغناء. ويهيج الخيال وينشط ويرسم للراحلين فى الصحراء تصاوير خلابة منشطة.. من آبار باردة فى وسط اشجار النخيل، وتظللها اشجار الميموزا وبها خيام بدو من قبائل غير معادية او هى لاقارب واصدقاء معروفين..

5 يونيــو..

مازال الليل يرخى سدوله على الصحراء، فامتطينا رواحلنا ووجدنا انفسنا فى القوز، وهو عبارة عن منطقة كالتلال متماوجة ورمالها عميقة وان كانت خفيفة، وليس بها اشجار او اى نباتات. وكثيرا ماغاصت الجمال بمقدار القدم فى هذه الرقعة الجافة ولم تخرج الا ببطء.

مع شروق الشمس احسسنا بالرطوبة اللزجة وضرورة البحث عن مكان للراحة. كانت جمال الشيل قد ضمرت وتساقط كثير منها تحت وطاة حمله، الامر الذى استدعى تخفيف الحمل عليها. وقد سقط جمل بحمولته من ماء الشرب. وكنا نتوقع هبوب السموم وصرنا ننظر الايام العشرة القادمة فى هم شديد. وكان يلزمنا ان نبلغ النيل سريعا. ولذا غيرنا اتجاهنا من جنوب جنوب شرق الى جنوب شرق. وكان لا بد من ان استبدل جملى الركوب بآخر. واكد لنا الخبير اننا سوف نصل صباح الغد الى قرية ود بشارى الواقعة على النيل.

6 يونيو..

كانت السماء مغطاة بضباب كالأمس. وما كنا لنستطيع ان نرى خطوة امامنا، ولم نر الشمس الا بعد ان ارتفعت فى السماء، وبدت لنا اصغر من القمر. ولم نر من قافلتنا شيئا ولا حتى آثارها على الرمال. وسار بنا الخبير يمنة ويسرة كما تبين لى من البوصلة لانه لم يستطع فى الضباب الجاف ان يتبين اى دليل على اتجاه. وظننت انه كان يتجه شرقا اكثر مما ينبغى. ولكننى فى هذا الموقف لم اشأ ان اثق فى بوصلة جيبى اكثر منه، اذ لا بد لنا من الاعتماد على معرفته هو بالمكان. واشتدت الريح، وكانت الحرارة عالية حارقة، مما زاد من عطشنا بدرجة لا تحتمل، فنحن لم نذق قطرة ماء منذ عصر يوم امس. مضغنا سيقان العشب لتظل افواهنا رطبة،، ولكننا احسسنا بطغيان الصداع الحاد فى رؤوسنا. ولم تكن افكارنا منشغلة بغير الماء.

سرنا هكذا حتى منتصف النهار بقدر استطاعة الحيوانات على السير فى شبه الصحراء، ودون ان نتقدم، اذ كنا ندور فى نفس الاماكن. واحسست ان الخبير قائدنا لم يكن يدرى اين كنا. ولحسن الحظ صادفنا

شجرة كانت عائلة بدوية قد علقت عليها حوائجها، وكانت هناك ايضا قربة ماء نصف مملوءة. ولا استطيع ان اصف الفرحة التى غمرتنا. لقد شعرنا باننا لن نحتمل العطش اكثر من ذلك واننا كنا سنأخذ تلك القربة بقوة السلاح ونفتديها بحياتنا لو منعنا من الشرب. ولكن لم يكن فى المكان اى شخص. كان الماء قد جلبه الرعاة الذين كثيرا ما يأتون الى هذه الناحية بقطعانهم. كان حارا وغير مستساغ، لكنه لشفاهنا الظمئى كان غاليا. ولم ننس كلبنا المسكين.

وقد اكد لنا الخبير اننا سنبلغ النهر عما قريب ولذلك لم يأخذ من ذلك الماء، وقال اننا ان ملأنا منه زمزمياتنا سوف نعرض صاحب القربة لخطر عظيم.

ركبنا مسرعين، وعبرنا واحدا من سلسلة التلال امامنا لنرى جبال النيل. ولكن اعيننا لم تقع الا على مساحات شاسعة. وكانت قطعان من الضأن والماعز ترعى دون راع تحت شجيرات الميموزا.

بعد ساعتين من الركوب وصلنا الى شجرة اخرى كان تحتها اناس نيام. وقد ايقظت اناخة جمالنا صبية ذات وجه بلون الشوكلاته، وجه ناعم التقاطيع، واضحها، وشفاه حمراء واسنان مستقيمة بيضاء وعيون ترقد فيها السماء كلها. والحقيقة ليس اجمل من العيون السود للاعرابيات. عيون نساء الشمال ناعمة جدا فى العادة، اما عيون السمراوات او البيضاوات العربيات فهى تجمع بين نظرة الغزال البريئة والتوقد الحار فى عين الصقر.

لم تكن الطفلة قد خطت فوق العاشرة، ولكن دفء وضوء وهواء الجنوب اكمل برعما سوف يتفتح وردة بعد بضعة اشهر. اهديتها خرزا زجاجيا.

حصلنا على ماء ولبن، ثم تحركنا بعد راحة دامت نصف الساعة. ولم نكد نخطو ثلاثمائة خطوة فى شمس النهار النوبى المحرقة حتى لحقت بنا الصغيرة عدوا ورجت الدكتور الذى كان فى مؤخرة الركب ان يردفها معه، وقالت انها تريد اللحاق بوالديها اللذين يقيمان بقرية قريبة ضربوا فيها خيمتهم، واشارت الى الطريق المؤدى الى هناك.. وقد وصلنا القرية بعد حين، فوجدنا عشرة الى اثنتى عشرة خيمة من شعر الماعز، نصبت متجاورات، وهى نواة القرية. وهناك اكواخ تحت ظلال اشجار الميموزا الكثيفة، وقد اسموا مكانهم ابو ريا، ورحبوا بنا واخذونا الى شجرة خالية فى وسط القرية، وكانت ظليلة. وجاءونا بماء قربة طغت رائحته بعد ان ظل اربعة ايام. كان دافئا وماسخا، لكننا شربناه بنهم. ثم استيقظ فينا الجوع، اذ لم نأكل منذ مساء يوم امس. وكان العطش قد طغى على كل احساس عداه. وطلبنا من البدو شيئا نطعمه، ولم يكن لديهم سوى كسرة من الذرة، كانت سميكة وسوداء وحامضة ومليئة بالرماد وغبار الفحم. وقد احس الدكتور بتقزز حاد ولم يستطع ان يأكل شيئا، اما انا فقد طغت معدتى وما تتطلبه على كل اعتبار آخر، وحاولت جهدى ان اركز على كونى فى افريقيا، واغمضت عينى واكلت. وبالمثل فعل اوغست تيشندورف وكان وجهه ينم عما يكابده من امتعاض.

اتضح لنا ان كلبنا لم يكن هناك. فبعثت الخبير للبحث عنه، لكنه عاد دون ان يجده. وعلى الرغم من كل احساس بالشفقة والتعاطف لم يكن امامنا الا مواصلة الرحيل، اذ لم يكن لدينا الماء او الطعام. وقد وعدت من يجد الكلب ويعيده لى حيا جائزة هى عبارة عن دولار نمساوى كامل.

11 يونيــو..

اعتلى على اغا هـجينه فى وقـت مبكر لـلغايـة الى قرية الـسروراب التى كان فى حامـيتها مـن قبل. كان فى ابهى ملابـسه وقد قام بـتنظيف سلاحه قبل ايـام. تبعناه فـيما بعـد، ووصلنا الـقرية الكبـيرة فى الظهـيرة، وكان بها قرابـة المائة والـخمسـين كوخا، خصص بعـضـها لايواء اربعـمائة من القوات الموجودة بها. وكان اليوم يوم سوق، لكن لم يكن به غير ضروريات الـحياة.

فى صباح الـيوم التـالى تابعـنا الرحـيل، ووصلنـا كررى، وبذلك دخـلنا بالفعل بلاد السودان. وقد توقفنا قبل القرية فى غابة صغيرة للراحة ولكى ترعى جمـالنا.. كـانت هناك اكواخ مـنفردة مـتناثـرة تحت الاشجار وعـليها اعشـاش طيور الـلقلق / السـمبر / الـسودانيـة. طلبت من مـخدومى مكلى ان يـأتينى من بـيضـهـا. وقـد وجد فـى كل عش ثلاث او اربع بـيضـات، فـعاد بالكثير مـنها. وما ان رأى الاعـراب ذلك حتى اطلـقوا صرخات مـدوية لاننا ازعجنا الطائر المقدس، وصبوا اللعنات على موكلى، مما اغضبه واياسه.

واصلنـا الـسفـر حـوالى الـثـالـثة عـصـرا، فابـصـرنا مـئذنة عـاصـمة السودان الشرقى عـند المغيب. وبعد نصف ساعة كنا تحت شجرة مالوفة بـالـنسبـة لى من اشـجار الـنـيل الازرق. واجـتذبت الـنـار التى اوقـدنـاها حشدنا من العقارب والعناكب وحشرات أخرى.

13 يونيــو..

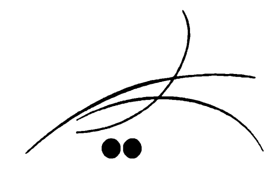
اسـتيقظنا مع ريح جنـوبية شديدة عند بـداية اليوم، ورأيت تمساحا يـبرز رأسه من المـاء، ثم آخر.. وصـرنا نـرى تمـساحا كل خمس دقائق وهو يسبح فـى النهر. وكانت ذات اطوال مختلفة، ويعتبرها سكان قرية «أم درمان »بالغة الخطورة..

وعند الظهيرة عبرنا إلى الخرطوم.

11

أربعة أشهر فى السودان





كـان السـراب يلف عاصـمة الـسودان الشـرقى فى غلالة من الـضباب عندمـا اقتربنا من اسوارها. كـنا فى قمة الارهاق بسـبب الـحرارة الفظيعة ذلك الـنـهار، فـتوجهـنا الـيى بازار ودخـلـنـاه لنجـدد نشـاطنـا بفـنجان من القهوة، ثم قـمنا بعدد من الزيارات. وكـان اول من زرنا اعضـاء الارسـالية الكاثوليكيـة، واحسنوا استقبالنا. وكانوا اثناء غيبتى قد قاموا بأول رحلة لـهم على الـنيل الابيض وبلغوا حتى خط عـرض9ش4 شـمالا. وقد اتـحفنا الدكتور امانويل بديمونتى بحكايات وروايات عن الصيد فى تلك الرحلة، وأمدنى بملاحظات شـائقة عن طبيعة النباتات فى تلك الاصـقاع.

وتـوجهـنا من هـناك الى فـندق الـخـرطوم حـيث صديـقى الـقـديم بينى " Penny " فدخلـنـا ديوان صـاحب النزل وحـيينا الـحـاضـرين. وكان بيـنى على عهده وعادته، فأصـر على استضـافتنا وعرض عـلينا مسكنا فى بيته بحرارة لم نستطع معها الا ان نقبل.

وسرعان ما ذاع خـبر وصـولنا بين الاوروبـيين فى الـخـرطوم. فجاءوا كـلـهم لـتحيـتنـا ومشـاركتـنا تجاربـهم وآخر مـا جد من امـور. فعـرفنا ان نـيكولا اولـيفى مـوجود فى كـردفـان بغـرض شراء الـصمغ وان بـاتريك Patherik الإنجليزى قـد تـحول من بمباشـى الى تاجر منذ شـهور وانه فـى

السنة الماضية كان فى الخرطوم يتاجر فى الرقيق وان لافارك La Farque قد سافر الى سنار، وان ابنة نيكولا اوليفى، جينوفيفا Genoveva قد عادت الى الخرطوم مرة اخرى.

وكان الحاكم العام الجديد بالنسبة لهم جميعا حجر عثرة. فقد اعلن ان اى اوروبى لا يتقيد بعادات امته التى يعرفها تماما سيعامل بالطريقة التركية اى انه اذا فشل فى تنفيذ اوامره يجلد 500 سوط ويقيد بالسلاسل ويقتاد الى القنصل المعنى فى القاهرة. وهو عارف بالاوروبيين وقوانينهم وعاداتهم. وهو يحترم فهمهم، لكنه يكرههم كاشخاص. وقد تحدث عن حياة الاوروبيين فى الخرطوم بطريقة جد منتقدة ومبخسة لهم، ووبخهم ـ وبحق ـ على افعالهم الشائنة، وخاصة كثرة الزوجات، وكلهم يشترك فى تلك العادة.

وكنت متطلعا لمقابلته والتعرف اليه. وقمت باول زيارة له فى 15 يونية، واستقبلنى بأدب جم بعد ان اخذ فرمانى واطلع عليه. وقدمت لنا القهوة، وحادثنى الباشا باللغة الايطالية، وادار الحديث بعد حين عن النيل الابيض الذى كنت انوى زيارته. وفى اثناء ذلك اطلق افكارا غريبة عن الابحار فى النيل الابيض بأمل بلوغ منابعه، وغرائب اخرى. فقد قال مثلا ان هناك جبلا فى منطقة اعالى النهر يهتز من حين لآخر، وانه تحركه رياح عتية، ولا بد انه كما يعتقد قائم على ارضية من الرمال المتحركة. ولكنه كان متزنا وعاقلا فى آرائه الاخرى.

وعبد اللطيف باشا رجل وسيم تخطى الاربعين بسنوات، وله وجه جذاب ولحية سوداء كثيفة ومنسقة جدا، وحاجبان كثيفان بارزان. وقد ولد فى شركسية وبيع فى صباه كعبد فى استنبول، ووصل الى يد محمد على الذى اعتقه ومنحه منصبا فى البحرية. وقد ترقى بسرعة،

لكنه عاد الى الخدمة فى اليابسة وحظى برتبة بيه(بك) واصبح حاكما لمديرية اسيوط فى صعيد مصر ومن هناك، وبرتبة باشا او جنرال، اصبح حاكما عاما للسودان، وبعث الى الخرطوم.

ولطيف باشا رجل متعلم الى حد بعيد. فهم يتحدث بجانب اللغة العربية التركية والايطالية، لغته الام، بطلاقة، وقد اخذ طرفا من بعض العلوم، وكان بوسعه ان يتعلم اكثر لوسنحت له الفرصة. ويختلف الناس فى الحكم على شخصيته. وقد عرفت فيه رجلا نبيلا، صريحا، وشجاعا، ولكنني وجدت فيه ايضا حبا للسلطة والصرامة والاندفاع للثأر. وكثيرا ما كان لطيفا كاسمه. وكان فيما يحب من ملذات لا يخرج عن حدود تعاليم رسوله كثيرا. فهو يرى كما يقول لوثر: " من لا يحب الخمر والنساء والغناء، يحيا حياته كلها وهوعبيط. " .

وعادة ما يتناول قاضى الخرطوم طعامه معه، ثم يأتى الاوروبيون ويعزمهم ويشرب معهم الخمر او الشمبانيا. وفى اثناء ذلك يردد الرجل الورع القاضى: "اعوذ بالله من الشيطان الرجيم!" متعوذا من الآخرين. ويكثر لطيف باشا مداعبة القاضى. ومرة قال له: " ايها القاضى العزيز عندما تنطلق الى السماء، ساتعلق بقفطانك حتى استطيع دخول الجنة قبل ان تغلق ابوابها. "

وهو فى ادارته للحكم صارم، فهو لا يحتمل اى معارضة، ويفعل ما يريد. وقد اجبر الذين لم يسددوا ما عليهم للديوان منذ سنوات ان يوفوا بما عليهم. وهناك حادثة العربى حسن مسمار الذى استولى على بعض الاحتكارات لسنوات عديدة، فوجد مذنبا، وانه استحوذ بطريقة غير قانونية على ستة آلاف كيس. وكان هذا الرجل يعامل السودانيين المساكين بقسوة ودهاء، ويحملهم على دفع ثلاثة اضعاف ما لا يستحق

غير واحد منها. وقد امر لطيف باشا بمراجعة دفاتر حساباته واجبره على دفع المبالغ التى استولى عليه دون وجه حق، ولم يكترث لان الرجل اضطر الى بيع بيته وعبيده وجواريه. وقد كان حسن مسمار محظوظا اذ نجا بجلده. وحتى خالد باشا الذى خلف لطيف باشا لم يؤذن له بالسفر الى مصر رغما عن اوامر الخديوى الصريحة الا بعد ان سدد 800 كيس للخزانة كان مدينا بها لها.

وقال لى لطيف: " عباس باشا هو ممثل السلطان فى مصر، وانا ممثله فى شرق السودان، وامتثل لاوامر الباب العالى دون ان اكترث للخديوى. فقد حملت من السلطان فرمانا يأمرنى بان افعل ما هو حق، ووالله انا اخلص الظلم من الظالمين. "

ويهابه مرؤوسوه، ويرتجفون امامه، لكن الشعب يقدره ويجله ويعتز به. والويل لمن يضرب نوبيا دون وجه حق، او يضطهده او يظلمه باى صورة. وديوانه مفتوح لكل صاحب شكوى.

وقد استحدث بعض التدابير الضرورية. فقد جعل العملة فى السودان مماثلة للعملة فى مصر، وهو ما لم يكن احد يعتبره امرا ممكنا. وقد كان المرء يفقد بانتظام 10% او12% من قيمة الاموال التى يدخلها من مصر، ويواجه باجراءات كثيرة عليه ان يتغلب عليها.

والقانون الآخر الذى استنه يتعلق بسوء استخدام الإماء بعرضهن للدعارة العامة، وقد منع لطيف باشا ذلك وحدد عقوبة قاسية لمن يقوم بذلك. وقد اصدر اوامر صارمة بالتبليغ عن ذلك الجرم، وهدد كل من يتستر على ذلك بالجلد ألف سوط. كما ان الامة فى هذه الحالة تباع الى شخص اكثر استقامة، ويصير المال الى الحكومة كعقوبة اخرى. ولكن اذا كانت الأمة تمارس الدعارة دون علم او اذن مالكها، فانها تباع وتنفى

من البلاد الى القاهرة او غيرها، ولكن صاحبها يتسلم المتحصل عن بيعها.

واستن قانونا يحظر النواح والعويل المصاحب لدفن ميت، وحظر ختان البنات التقليدى، وامر بالعودة الى التقيد بالختان الشرعى الاسلامى.

ومن كل هذا يمكن للمرء ان يدرك اى رجل كان يحكم السودان. وستتاح لى فرص عديدة لاذكر شيئا عنه. وبالرغم من انه لم يصرح لى بعدم احترامه للاوروبيين المقيمين فى السودان، الا انه وفر لى خدمات جليلة، نفعتنى كثيرا.

وفى 28 يونيو.. جاءتنى خطابات من الوطن ومن البارون موللر. وكانت بخطاب الاخير اهانات قاسية جعلتنى اصمم على انهاء علاقتى به، خاصة وقد اعلن تنصله منا، وانه مستقبلا لن يرسل اى مال. وهو لا يكترث ان كان بايقافه المال عنا سيضعنا فى عوز وحاجة شديدة. وكتبت له على الفور باننى من الآن فصاعدا اعتبر كل علاقة وارتباط به فى حكم المنتهى، حتى موعد وصوله، والذى قال آخر مرة فى مكتوب انه سيكون فى منتصف يوليو، واننى ساقوم بما على. وطالبته بان يرسل لى المال اللازم لسفرى عائدا الى بلادى، وهى رحلة اكثر من سته الاف ميل المانى.

وفى تلك الليلة هبت اول عاصفة رعدية. ولم يكن الرعد نفسه قويا. وفى الصباح التالى كانت الطبيعة وكأنما ولدت من جديد. كان الطقس باردا ولطيفا، والاشجار فى الحديقة اكثر نضرة عن ذى قبل.

ومنذ ايام ارتفع منسوب النهرين بشكل ملحوظ ومنتظم، وخاصة النيل الازرق، اذ كان ماؤه قد غدا اسمر، بينما ظل ماء النيل الابيض غير معتكر.

11 يوليــو..

احتفل الناس ببداية شهر الصيام، رمضان. وقد اجتمع فى الميدان الفسيح امام المديرية فى الخرطوم حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر جمع من الدهماء حول كتيبة من الجنود خرجوا فى عرض عسكرى.

26 يوليــو..

بدأ موسم الامطار بشكل جدى، وصار المطر يهطل بعد كل ثلاثة او اربعة ايام بعد زوابع رعدية.

قبل ايام عاد برو روليه /من ساردينيا/من رحلته الى كردفان، حيث كان فى عمل تجارى، وكان يرافقه المسمى فوتى Vaute الذى كان قد سافر الى هناك برفقة ابن لينانت بيه Linnant-bei وهو خلاسى، وذلك بغرض شراء الصمغ العربى. وروليه اب لخمسة او ستة ابناء من ثلاث إماء، يعشن الآن فى وثام.. لتربية الاطفال.

1 أغسطس..

عيد الفطر. وكبار الاتراك والمصريين فى اغلى حللهم فى كل الشوارع، وزينات فى كل مكان. واطلقت 21 طلقة كالعادة. فى تلك الليلة عصفت زوبعة رعدية عاتية، صاحبها مطر كثيف اغرق الخرطوم كلها بالماء.

كنت منذ وقت طويل قد حاولت تنظيم رحلة صيد فى النيل الازرق.. ولم تمكننى قلة المال والتى اصبحت الآن مشكلة حادة، من القيام بها. ولم اجد من نفسى مطاوعة لطلب المال سلفة من الاوروبيين لاننى كنت مقتنعا بانهم سيعتذرون او يرفضون صراحة. ولاننى كنت على صلة وثيقة بتركى اسمه حسن اغا، رئيس فرقة الفرسان غير النظامية، فقد

شرحت له وضعي المالي الحرج، وقد قدم لي دون اطالة ألفي قرش. وبهذا المبلغ استطعت ان اقدم على ما انتويت.

وبعد ان قمنا بصيد ناجح في النيل الازرق والابيض، ارتحلت في مركب صغير وبائس ولا يغطيه غير برش من السعف من الخرطوم في يوم 9 سبتمبر. وقد قرر الدكتور فيرتالر Vierthaler البقاء في العاصمة، ولذا لم يكن معي في هذه الرحلة غير خادمي الالماني تيشندورف Tischendorf وصياد نوبي هو تومبولدو Tomboldo وطباخ وسلاخين والخادم القديم فيترنيدو وصديقي الوفي علي اغا.. وكنا نتوقع ان تداهمنا الحمى الاقليمية في الغابات ولذا يجب على العالم الطبيعي الا يسأل متى سيقع عليه عبء جديد. وكنت قبل سفري قد استأجرت منزلا اكبر، وفيه أقام الدكتور.

كانت بداية الرحلة تنذر بأنها ستكون بطيئة..فالريح كانت ضدنا، وكان النهر في فيضانه، مما يفرض بذل الوقت والقوة لتحريك المركب ضد التيار العاتي. وفي المواضع التي كانت الغابة تصل حتى النهر كان البحارة يحملون حبلا في افواههم لكي يعوموا في الماء الذي تظلله اشجار الميموزا الشوكية، بحثا عن موضع قدم على اليابسة ليسحبوا منه المركب. كنا نقطع الميل الالماني الواحد في يوم كامل، ولكنه لم يكن وقتا مهدرا عبثا اذ وجدنا صيدا وافرا في الغابات، مما جنبا اضاعة الوقت. وفي رحلتي الثانية هذه لن ارهق القارىء الذي يصحبني في الغابات بوصف الرحلة اذ لن اصف النتائج العلمية واركز فقط على بعض التجارب المصاحبة لها.

17 سبتمبر..

وصلنا الكاملين امس الاول، وهي بلدة لا اهمية لها، وربما كان الشئ الوحيد الجدير بالذكر فيها هو مصنع الخمور، اذ انه الوحيد في كل السودان الشرقي. ولكن بالنسبة لنا كانت وفرة الصيد بها هي الأهم.

امس اصطاد تومبولدو صقرين اوروبيين نادرين Aquila Bonelli واثنى عشر من طائر الابيس المقدس (Ibis أبو منجل) وقال ان هذه لا توجد الا نادرا. وهناك مكان معين به طيور نادرة كثيرة يسهل اصطيادها، لكن مثل تلك الفرصة لا تلوح الا نادرا، ولذا بقينا هنا ذاك اليوم. وخرجت فى الصباح الباكر الى النهر مع تومبولدو.. الى ذاك المكان المعين، ورقدت بين الاعشاب الطويلة واصطدت بعد وقت قصير واحدا من تلك الطيور المقدسة. وعندما وصل صائد الاسود ساعدنى فى وضع الطائر بعدد من الاعواد الخشبية فى هيئته الطبيعية، واخذت انتظر قدوم غيره. وجاءت افواج من الطيور من الضفة الاخرى بحثا عن الجراد بين الاعشاب، وهو الآن غذاؤها الوحيد. وكل فوج جاء كان يحلق فى الجو ويحوم حول الطائر الذى اصطدته، فاستطعت ان اصطاد خمسة عشر منها، ورمى تومبولدو ستة اخرى. وقد استغربت لوجود هذا العدد الهائل من هذا الطائر الذى عادة ما يتفرد بالوحدة.. ولكن عجبى زال حين عرفت ان بركة فى الغابة لا يمكن الوصول اليها على الضفة الاخرى هى موطن تكاثره.

وكان امامنا عمل كثير فى العصر، هو تحضير هذا العدد الكبير من الطيور للحفظ. فسرنا فى بطء. وتجمعت فى العصر سحب رعدية واسودت السماء وقبيل غروب الشمس هبت العاصفة وجرفت مركبنا وسط النهر. وكانت الصواعق امامنا وخلفنا ويميننا ويسارنا فى النهر او الغابة على كلتا الضفتين. وكان ارتطام الاشجار وهى تهوى، وعواء الذئاب المذعورة وتدافع الامواج وهزيم الرعد فوق زئير العاصفة يمثل مشهدا جليلا ومروعا وجميلا. واندفعت مركبنا مع العاصفة وكانها باخرة، وتقاذفتها الامواج كالكرة، وامتلات بالماء الذى دفعته الامواج الى

قاعها، ولكن لحسن حظنا قذف التيار بالمركب على الشط الايمن مسافة بعيدة، فلم تعد الامواج الضارية تحدث بها اى ضرر. لكن المطر اخذ الآن يهطل، ولا يمكن لاحد لم يخبر الزوابع الرعدية الاستوائية ان يتصور مداه..فهو كما يقول السودانيون يرمى بقطراته وكانها قذائف من الرصاص. وفى وقت قصير ارتفع الماء فى المركب بمقدار قدم، وكنا مبتلين حتى عظامنا، وقد جهدت كثيرا لحماية الطيور التى كنا قد جهزناها والتى كانت تملأ كل الصناديق.. من البلل.

لم يستمر المطر غير وقت قصير، ولكننا مع ذلك كنا فى وضع مؤسف. كنا نرتجف فى كل مفاصلنا من الصقيع، وشعرنا بعدم الراحة الشديد فى المركب. وهناك لمحنا قرية قريبة، فاندفعنا اليها ما عدا اصحاب المركب. وقد انتاب الخوف سكانها لدى رؤية اناس مسلحين، ففر الرجال على الفور الى الغابة، لكنهم عادوا حالما عرفوا اننا لا نبغى غير مكان جاف ودافئ لقضاء الليلة. واعدوا لنا تكلا (عشة) واشعلوا نارا هائلة ادفأنا بها اوصالنا المتجمدة وصنعنا لنا قهوة قوية. وقد اقض مضجعنا بجانب عواء المرافعين عاصفة اخرى، وهى وان لم تحدث اضرارا بالقرية الا انها جرت المخاطر على مركبنا من جديد.

24 سبتمبر..

مساء امس ايضا هطلت امطار غزيرة. وقد بلغنا ظهر اليوم على الضفة اليمنى من النيل الازرق قرية ابو حراز حيث كنت اريد التوقف لكثرة الغابات بها والتى تمتد على مدى البصر على الجانبين. ونزلنا فى معسكر مهجور للجنود الالبان، وحملت اليه اغراضنا بعد ان نظفت ثلاث غرف كبيرة من القمامة والقذارة الشديدة التى كانت بها. وكانت حجرات يمكن الاقامة بها نوعا ما.

وفى الايام التاليات.. قمنا علاوة الى خروجنا للصيد ببعض الزيارات للكاشف المقيم هنا والذى كان قد ارسل الينا وفقا للعادة التركية عددا من الخراف لمطعمنا. وكان طبيعيا ومفهوما انه يتوقع هدية منا على اكرامه لنا، وكان يبغى مشروبات روحية كما فهمنا منه بوضوح. فحملنا اليه بعض زجاجات البراندى، وبذا كسبنا صداقته وخطبنا وده المقيم.

3 سبتمبر..

فى احدى المرات التى خرجنا للصيد فى الغابات على الضفة الاخرى بمعديتين اضافة لمركبنا.. ما كدنا نمضى بضع مئات من الخطوات داخل الغابة حتى ظهر لنا تمساح طوله ثمانية امتار، كان امامنا. واختفى فى اجمة قريبة.

وبعد ساعة قضيتها فى الصيد وملاحقة مختلف انواع الطيور وصلت الى ظاهر الغابة وضللت الطريق هناك ولم اعد الا عصرا الى النهر وانا اتصبب عرقا. كنت مرهقا حتى السقوط وفى اشد حالة من العطش. ودون تفكير اندفعت الى الماء لاشرب. وحتى لو كان الموت ينظرنى فى عينى كنت ساحرص ان ابلل لسانى بذلك الماء. فهنا فى مجاهل افريقيا لا يستطيع المرء بعد كل ذلك العذاب الذى عاناه بسبب العطش ان يتردد لحظة امام الماء.

وبعد ان شربت شعرت بتحسن كبير وفزعت من اوخم العواقب والتى كانت فى الواقع محتملة. وهويت فى تعبى ذلك عند شجرة ظليلة بعد ان حاولت ان ابرد جسمى قليلا بالمشى البطئ. وهنا وجدنى ناسى وانا فى شبه اغماء واخذونى الى مكان سكننا. وقد اخذ النيل الازرق ينحسر الآن بانتظام وبمعدل تسع بوصات فى بعض الايام. مع اننا ما زلنا فى جو من المطر والعواصف الرعدية. وفى الواقع كان موسم الامطار ينتهى منذ وقت

بعيد، لا يذكر كبار السن هنا ان موسم الامطار قد امتد هكذا ابدا من قبل. وكان القش فى السهول بطول ستة او ثمانية اقدام، والذرة تبشر بمحصول كبير بشكل غير مألوف. وكان الناس فى القرى المجاورة قد زرعوا مساحات كبيرة جدا بالذرة. وكان لطيف باشا قد اصدر امرا حكيما بان يقوم الجيش بزراعة حقول تخصص له. وكان الجنود من حامية ود مدنى قد زرعوا مساحة لا يمكن اجتيازها فى يوم واحد باكمله.

1 أكتوبر..

لقد اصبح بيتنا مستشفى. فمنذ اسبوع وانا راقد بالحمى الاقليمية، يعذبنى وجع الرأس ليلا ونهارا. وقد مرض اربعة من خدامى العرب، وحتى تيشندورف نفسه قد سقط مريضا بالحمى. وكان يطغى عليه الهذيان لدرجة اضطررنا معها الى ربطه بالسرير لانه كان فى ذروة الحمى يغادر البيت هائما على وجهه قريبا من النهر ليلا. وبالطبع ما كانت بنا جميعا قدرة على العمل إذ أن القليلين الذين كانوا اصحاء كانوا يقومون بخدمة المرضى ورعايتهم.

وكان كثير من الناس فى قريتنا مرضى. وكانت الحمى طاغية فى ود مدنى حتى ان متوسط الوفيات اليومية كان خمسة عشر شخصا فى اليوم. وقد اكد لى كثيرون ان هذا الشهر بالذات هو أسوأ شهور المرض. واستمرت الامطار تهطل والزوابع الرعدية تتكرر.

وقد أتانى الناس بتلك الحية الكبيرة التى تسمى "الاصلة "، وقد صرعها احد الاعراب بهراوة. وهى غير سامة، وتؤكل.

14 أكتوبر..

اشتد المرض بتيشندورف، وأخذ يهذى الليل كله. وقد اصابت الحمى ايضا على اغا التركى العجوز. ولم يبق منا صحيحا معافى غير منصور

الطباخ. وكان يريحنى من وجع الرأس مرات عديدة بشئ خاص جدا، وهو ان يعصر فى كوب ليمونا وملحا، ويجردنى من ملابسى حتى الوسط ويمسحنى بذلك المزيج وهو يتلو الفاتحة وجملة من الادعية.. منها " بسم الله الرحمن الرحيم " التى يكررها كثيرا، ثم يمسد اسلافى حتى الجبهة ويطرد، كما قال، الشمس من جبهتى، لأن مرضى هو من ضربة الشمس كما يرى. وهنا يجمع الجلد الذى على جبهتى ويمطه من الرأس، وبذا تختفى الآلام لمدة طويلة. وما زلت لا ادرى كيف تخف تلك الآلام. وقد يظن المرء ان الامر كله مدعاة للضحك.. ولكن المريض لا يهتم بما يخفف عنه ألمه.

وكان علينا ان نبقى فى اب حراز اسبوعا آخر دون ان يخف مرضنا. وفى 21 أكتوبر توفر لنا ان نستأجر مركبا تعود بنا. فحملناها اشياءنا وابحرنا مساء. وفى الليل الذى قضيته دون نوم سمعت صراخا من عدة آلاف كما ظننت من الغرانيق. ولكننى وجدتها فى صباح اليوم التالى هادئة فى جزيرة رملية.

26 أكتوبر..

نزلنا فى الخرطوم. ولم اكن فى حالة تبلغنى منزلى وذلك بسبب الحمى التى هدت قواى. وقد فزع الدكتور من منظرى. وقد عصفت بى نوبة اخرى من الحمى الشديدة عصر ذلك اليوم.

كانت علاقاتنا تزداد سوء، ولم نجد جوابات او ردودا من اوروبا، وباءت كل محاولاتى للحصول على مال فى الخرطوم بالخيبة. واخيرا وجدتنى مضطرا الى اللجوء الى نيكولا اوليفى قبل ان يخرج فى رحلته الى النيل الابيض. وقد ارسلت اليه كونترينى كوسيط، ولم يدهشنى اطلاقا حين احاطنى علما بان نيكولا ابدى استعدادا ليمدنى بمبلغ ليس

بالقليل. فذهبت اليه مع صديقي الوفي على اغا، ودخلنا عليه في ديوانه، واستقبلني نيكولا بحفاوة بالغة.

" تريد مني مالا يا سيدي المفضال.. وانا على استعداد لاحقق لك مرادك. ولكنني تاجر، ولن تستغرب اذا قلت لك انني لا اقرض المال الا مقابل نسبة من الفائدة، كما انني اعتقد انه من صالحك ان تستخدم مركبي في رحلتك المزمعة، وساؤجره لك بسبعمائة قرش في الشهر. كم يلزمك من القروش؟ " .

حددت له مبلغ ثلاثة الاف قرش، وطلب نيكولا فائدة بمقدار 5% شهريا. وكان ايجار مركبه اعلى بـ 60%. كنت اغلي داخلي ولكن ما كان امامي سبيل آخرللحصول على المال غير ان ادعه يؤجر لي مركبه وبذلك يغشني في 1200 قرشا، وان اوافق على دفع فائدة 60% على المبلغ كله، اي ايضا على الالفي قرش التي هي ايجار المركب، وبذا يكون ربحه 280 تالر بروسي. وكنت مضطرا الى قبول ذلك. وكما يمسك الغريق بقشة، امسكت بهذه الفرصة الأخيرة للنجاء ولن اصف لأي كان ما كان يدور بداخلي، وكنت ارى انهياري وانهيارنا جميعا يحدث امام عيني وشعرت كما لوكنت في قبضة اداس الى الحضيض، ولكن كان على ان اداري شعوري عن معذبي. وحسبنا المبلغ كله على اساس عملة معينة هي التي سأحول اليها ما اخذت. وهنا ايضا حاول نيكولا مرة اخرى ان يبتز مني 20%. فطفح الكيل. لم اعد قادرا على تملك اعصابي. وطغى على غضب هائج، فامسكت بهذا النذل بيد قوية من ذقنه الطويلة، وجلدته بسوطي بقدر ما استطعت ان احرك يدي. ودام ذلك وقتا طويلا. وكان على اغا يحرس الباب بمسدس في يده حتى لا يتمكن خدم نيكولا من الدخول.. وقد كان يصرخ طالبا نجدتهم. واخيرا تخلص من قبضتي وجرى الى حريمه صائحا " والآن.. لنر ان كنت ستجد من يوفر لك المال. "

ودون ان انبس بكلمة خرجت من ديوانه.

وبعد ان هدأ غضبي عدت افكر في موقفنا. ولم اجد سبيلا للخروج من ازمتنا المالية. ثم راودتني فكرة ان اطلب مالا من الباشا. فكتبت مسودة طلب اوضحت فيه وضعي، وشرحت سوء الاوروبيين وشرهم، واستعطفته ان يقرضني لمدة اربعة اشهر مبلغ خمسة الاف قرش. وكنت اؤمل حتى ذلك الوقت ان يصلني مال من بلادي.. واسدد ذلك الدين. وبعد ان تم لي الحصول على ترجمة عربية لطلبي بعثته بواسطة علي اغا الى الباشا. وجاءني الرد في اليوم نفسه. ووفقا للعادة التركية كتب الباشا على ظهر طلبي الى مدير الخزانة، وكان فيها هذه الكلمات:

" صدقنا على طلب الالماني خليل افندي ونأمرك بصرف خمسة آلاف قرش له دون اي فوائد لمدة اربعة اشهر، وتحصل منه على وصل بالاستلام. واذا كان بعد اربعة اشهر في وضع لا يمكنه من تسديد المبلغ لخزينة الحكومة، سجل المبلغ على حسابنا.. ".

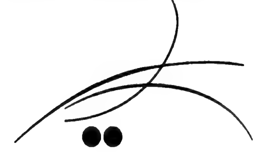
ولا يحتاج تصرف الباشا المملوكي هذا لأي تعليق. مضيت اليه لاشكره، فاستقبلني بكلمات فيها نبرة عتاب: "لقد اخطات يا خليل افندي حين لم تخبرني بوضعك وحاجتك في وقت مبكر اذ كنت سأضع لذلك حدا. فانا ايضا في الغربة.".

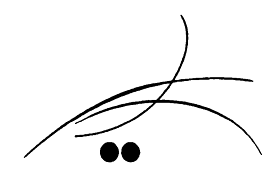
وبفرح حقيقي جهزت نفسي للرحلة الى اعالي النيل الازرق. وبدلا من ان ادفع سبعمائة قرش لمركب نيكولا، دفعت ثلاثمائة قرش لمركب آخر كان مجهزا بخيمة من الحصير تفي بغرضنا، وهو اكبر من ذهبية نيكولا حجما. وبعد ايام كنا متأهبين للسفر. وكان اصحاب المركب اكثر استعدادا وطواعية للخدمة من القائمين بالخدمة تحت ذلك النذل.

***

12

رحلة صيد فى الغابات الاستوائية بالنيل الأزرق





تضم الصفحات التالية قصاصات من مذكراتى اليومية اثناء رحلتنا الى الروصيرص. وساجهد نفسى لاقدم اهم ما بها. وهذه اليوميات مليئة باسماء الطيور والملاحظات حول حياة الحيوانات وملاحظات اخرى كنت قد بثثت مقتطفات منها فى الفصول السابقة. وساحاول ان اقتصر على تجاربنا بقدر المستطاع وألقى نظرة على غابات الضفتين من حين لآخر.

23 نوفمبر..

بدأنا رحلتنا فى الميقات المعتاد للخروج. وكانت مجموعتنا تضم ثلاثة عشر شخصا: الدكتور فيرتالر وشخصى الضعيف كقادة للرحلة، وخدامنا الالمان، وعلى اغا والطباخ والصياد تومبولدو، والعمال محمد ومقللى والريس واربعة بحارة. وكنت قد داهمتنى نوبة حادة من الحمى صباحا، ولكننى نهضت للرحلة لاننى توقعت ان اتماثل للشفاء فى الغابات بفضل الحركة والعمل اكثر مما لو بقيت فى الخرطوم. وحيينا ديوان الباشا باعلام مرفرفة وثلاث قذائف، واجابوا تحيتنا على الفور. ثم حملتنا ريح مواتية ضد التيار.

ان ساعات الصباح والمساء يجب ان تخصص تحت كل الظروف للصيد، وفيها غنمنا ما ابقانا فى الاوقات الاخرى مشغولين تماما. وما

زلت حتى اليوم اذكر فى شئ من النشوة تلك الرحلة التى تمثل اجمل رحلاتى. لم يعكر صفو رحلتنا شئ. ولم نعدم ابدا الصيد الطيب والعمل والحديث. وتتالت افراح الصيد مع مغامراته.

فى يوم 27 نوفمبر..

اصطدنا فى احدى الغابات التى تكاد لا تخترق بالقرب من قرية الكاملين. وقد اخبرنا بعض العرب عن آثار اسود، وحدثونا بانها قتلت قبل ثلاثة ايام حمارا والتهمت بعضا منه، مما افزع سكان بعض العشش ففروا الى الضفة الاخرى. وبعد تحريات وجدنا ان الامر يتعلق بفهود. وسرينا عن العرب بأن وعدنا باصطياد تلك الحيوانات فقابلوا ذلك بان اخذنا احدهم الى بقعة عارية عبر ممر فى الغابة الكثيفة لا يمكن الا لعين عربى ان تراه. وكانت اشجار الميموزا السامقة تقوم وسط عشب تزينه الزهور. وكان يمكن لهذه البقعة ان تكون فردوسا لولا وجود الجراد الذى نذر نفسه لافناء الغابة بحشوده الهائلة.

3 ديسمبر..

رأينا اول افراس النهر، كان فى الماء نهارا وحوله صغاره يلاعبهم فيما يبدو. وفى وقت لاحق رأينا الآثار العميقة الضخمة التى تركها اثناء رعيه ليلا.

ودخلنا مدينة المسلمية الواقعة على مسافة ميل تقريبا من النهر، وبها تجارة واسعة، وهى محطة للتجار المسافرين الى الحبشة. وبعد يومين وصلنا إلى ود مدنى، عاصمة المديرية، وكانت بها انذاك كتيبتان من الجنود السود. والمدينة فى معظمها مكونة من ثكنات بنيت بالطين.. لا يعدم المرء ان يرى بينها هنا وهناك عششا. وكانت كلها فيما سبق من

العشش حتى حمل موسى بيه، مدير الخرطوم، اهل المدينة على البناء باللبن لكثرة الحرائق عندما كانت المدينة مبنية من القش. ولكن نسبة لأن الناس تختزن قصب الذرة لعلف جمالها، فان النيران تشب كعادتها.

وفى الليل سمع تيشندورف زئير الاسود لاول مرة فى الغابة الواقعة على الضفة المقابلة، وقد اضطر الى العودة سريعا الى المركب بسبب وجود مرفعين ـ ضبع.

وفى ود مدنى ينحنى النيل الازرق الى الشرق ويعود مرة اخرى الى اتجاه الغرب ثم الى اتجاهه القديم الجنوبى الشمالى. ولذا تقوم شبه جزيرة يسميها الناس جزيرة الفيل. ويقال انه قبل عشر سنوات فقط كانت بهذه الغابات الواسعة بالجزيرة قطعان كبيرة من الافيال. ولكننا لم نجد بها غير القردة والطيور.

15 ديسمبر..

نحن الآن على مقربة من مدينة سنار. وقد رأينا من قرية وادى عباس الكبيرة التى اشترينا منها امس موادا غذائية سلسلة من الجبال الواقعة على بعد اميال الى الجنوب من عاصمة الفونج. وتكثر تعرجات النهر مما حرمنا الاستفادة من الريح الشمالية الا لمسافات قصار، واضطررنا الى قطع المسافة الباقية بسحب المراكب(باللبان) ولم نضع وقتا اثناء القيام بهذه المهمة البطيئة، فقد كانت الضفتان تتباريان فى تقديم صيد وفير. وكانت النباتات المتسلقة فى الغابة تزداد كثرة وطولا وقوة، وتكثر بها الزهور. وكانت التربة هنا خصبة بشكل غير عادى. وهى داكنة بلون الفحم، وتنبت نباتات غزيرة. ولكن الاراضى على ضفتى النهر لا تبدو صالحة للزراعة.. تشقها الخيران والاخاديد.

فى العصر وصلنا جزيرة فى النهر تغطيها طيور بصورة تامة. وقد طارت عندما اطلقنا اول طلقة فى الغابة الواقعة فى الضفة اليمنى. وتبعتها، واكتشفت بعد مسيرة دقيقة بركة ضيقة طولها اكثر من 600 خطوة، وبها مئات من طيور المستنقعات. ولفت نظرى بين هذا الجمع الملون طائران من فصيلة السمبر، كبيرا الحجم، لا يظهر منهما عندما يطيران غير اللونين الرئيسين وهما الابيض والاسود، ولكن عندما يحطان على الارض لا يظهر منهما اى شيىء. وعرفت فيما بعد انهما سمبر السرج. وفى احدى غابات السنط رأيت ما يشبه الصقر المائى، لم ار مثله من قبل. وكانت الاشجار العالية تنتصب آحادا فى بساط من العشب خال من الاشواك وتكون قبة من الاوراق بافرعها الممتدة. وكنت فعلا فى الغابة. وكانت الببغاوات ترطن فى قمم الاشجار ولكنها كانت تختفى عن الانظار بفضل ألوانها التى تماثل لونها، فلم استطع فى الضوء الخافت ان ارى اى واحد. ولم اظفر الا بالصقر المائى صيدا.

وفى تلك الاثناء كان الدكتور فيرتالر وتومبولدو قد صعدا اليابسة وراء ال Marabus الذى يقضى الليل فى رفقة الطائر الذى لا يشبع وقد اجفلت من اول طلقات نارية فلم يعد من الممكن صيدها. وقد ازعجها ذلك فظلت طيلة المساء تصدر صرخات واصوات. وسمعنا زئير الفهد من بعيد، كما ان فرسا نيليا ارتفع رأسه من الماء بجانب مركبنا واصدر صوته المنكر الذى صم آذاننا. وفى الثلث الاخير من الليل سمع الناس فى الغابة زئير ملك الغابة. فى صباح اليوم التالى كانت المركب على الضفة اليسرى للنهر، وهى الضفة التى تقوم عليها غابة استوائية كثيفة. وكنا فى سنار. ومرة اخرى سمعنا اصوات الفهود، مما زاد املنا فى مواجهة مرتقبة معها. ولذا نزلنا فى 17 ديسمبر على تلك الضفة المواجهة

للمدينة، وبذا ضربنا عصفورين بحجر واحد: الصيد القريب وقرب المريسة التى لا يستطيع عمالى البعد عنها، وان كانوا دائمى النشاط فى العمل. ولم تكن المدينة البائسة لتقدم لنا نحن الالمان اى شئ، وذلك على العكس من الغابة!

وسنار عاصمة مملكة دار الفونج التى دمرها الاتراك قد تأسست فى رواية بروس Bruce على يد الشلك فى القرن السادس عشر. وكانت فى الماضى كرسى السلطة والثقافة فى السودان الشرقى. اما الآن فهى بقعة مزرية تماما، ولا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة بما فى ذلك قوة مكونة من الفى جندى من الزنوج، بينما كان يعيش بها فى زمن ملوك الفونج خمسة وعشرون الف نسمة. وسنار فى كل اجزائها افقر واقذر من ود مدنى، وبها عوضا عن البازار حوانيت صغيرة بائسة تبيع الاغراض اليومية التى يحتاج اليها الاتراك. ويقام سوق مرتين فى الاسبوع لسد حاجة المواطنين، يأتى اليه سكان المناطق المحيطة كلهم.. مشاة او على حميرهم او جمالهم. وعلى العكس من المدن الأخرى فى البلاد فان حياة الليل الصاخبة تنتهى هنا فى وقت مبكر لأن الذئاب تملأ شوارع المدينة قبل منتصف الليل.

وعلى الضفة الرملية الواسعة التى نزلنا بها كانت اعداد من التماسيح ترقد تحت الشمس فى ساعات الظهيرة وبانتظام. وقد صرعت واحدا منها ما كان بالغ النمو، اما الآخر الكبير الذى اطلقت النار عليه وجرحته جرح الموت، فقد اسرع واختفى فى ماء النهر العكر قبل ان اتمكن من اصابته فى مقتل بطلقة اخرى. وقد قتل تومبلدو اصلة فى غابة قريبة بعد ان اطلق عليها طلقتين. وكانت تزن خمسة عشر رطلا. وقد طبخنا قطعة من لحمها، ولونه ابيض كالثلج، ولكن تعذر علينا مضغه، وطعمه مثل لحم الدجاج.

واكتشف تومبولدو فولة [بركة ماء] كبيرة بالقرب من مكان نزولنا، فحدسنا ان يكون بها عدد كبير من طيور الماء. وقد وجدنا ممرا ضيقا متعرجا يصعد من الضفة استطعنا عبره ان نخترق الغابة الكثيفة، ووجدنا الطيور هناك مثل تلك التى سبق ان رأيناها فى برك الامطار، ولم يلفت نظرنا غير زوجين من سمبر السرج الزاهية، واستطعت اخيرا ان اصطاد الذكر منها. وقد فرحنا كثيرا بغنم هذا الطائر الثمين. وقسنا الطائر الضخم وسط صيحات العجب.

فارقنا سنار فى 22 ديسمبر، ووصلنا بعد رحلة يومين غابة كبيرة للغاية. وضفاف النيل الازرق مغطاة بالغابات الكثيفة. وفى صباح يوم 24 ديسمبر صعدنا عبر خور شقته الامطار الى الضفة العالية، وسرنا عبر ارض منبسطة واسعة نحوغابة لم نجد لامتدادها حدا. وكانت مغطاة بعشب زكى الرائحة، لكنها فقيرة من ناحية وجود الطيور. فقط السمان الالمانى الذى يقضى الشتاء هنا كان يطير تحت ارجلنا مرارا، وقد حاولت ان اجد مصايد فاتجهت اكثر بعدا عن النهر، ودون ان ادرى كنت قد ضللت الاتجاه وبعد حين من السير وسط اعشاب بطول قامة الانسان وجدت معبرا قادنى الى مكان اقامة الرحل. وكالعادة استقبلنى لدى اقترابى منه نباح الكلاب. فقامت بضع نساء كبيرات فى السن بابعاد الكلاب المتوثبة للعض، وامن لى طريق الدخول فى الزريبة المحيطة بالمعسكر. وكنت ظمآن بصورة فظيعة. فطلبت ماء، لكنهن قدمن لى لبنا رائبا، اذ لم يكن فى المنطقة كلها نقطة ماء. وفيما بعد فقط ظهرت بعض الفتيات يحملن ماء فى اخراج، فشربت من ذلك الماء النقى القادم من النيل، واروني الاتجاه الصحيح لعودتى.

ان العالم العجيب الذى فتحته لنا الغابات الاستوائية قد اسكت فينا اى حنين للبلاد المتحضرة والحياة الاجتماعية. ولكن الامر كان مختلفا

هذا المساء. فقد جهزنا بعد العشاء شرابا، وحاولنا بطرق الصحون ان نطرد الافكار التى تشدنا اليوم الى اوطاننا ما وسعتنا لذلك الحيلة، ولم نستطع، ففى بلادنا يحتفل الناس اليوم بليلة العيد الاكبر للمسيح. وكان من الطبيعى ان نتذكر احبابنا، ونكثر التفكير بهم. لم يوقد لنا احد شجرة الكريسماس، ولكن الغابة فيما يبدو ارادت ان تحيى معنا هذا العيد. ففى الضفة الاخرى ورد قطيع من الافيال الى النهر، فرفعت اصواتها وكانها تبثنا التحية. وكانما كانت بذلك تصدر اشارة متفقا عليها، فقد ارتفعت اصوات حيوانات الغابة مدوية، ودبت الحياة فيها بعد ان كان الليل راكدا. ثم صعد رأس فرس نيلى من النهر وزأر وكانما كان يحاول تقليد زئير الاسد. ومن الضفة الرملية رن صوت [ابو مقص] ونعب البوم فى الغابة، وعوت الذئاب. تلك كانت موسيقى الغابة فى الليلة المقدسة. وكانت فرحتنا بأن نسمع صوت الافيال هذه الليلة بالذات هى بالنسبة لنا هدية عيد الميلاد.

27 ديسمبر..

لو حدثت خبيرا بأنواع الطيور بالطيور التى وجدتها فى دائرة نصف ميل من الفولة التى سبق ذكرها، وعددتها له، وحدثته بأن لكل نوع من الانواع المختلفة مئات منه، فانه ان صدقنى على الاطلاق سيتعجب من الثروة التى تذخز بها الادغال. ففى اوروبا يستحيل ان تجتمع مثل هذه المجموعات من الطيور فى مكان صغير كهذا. وقد سجلت فى يومياتى اسماء اكثر من سبعين نوعا من انواع الطيور التى وجدناها هنا ورسمتها، ولا ادرى كم من الانواع الأخرى فات اعيننا ان تلحظها. ان فقر غابات ألمانيا لا يسمح لنا باجراء مقارنة بين حياة الحيوان بها وفى الغابات الاستوائية. وحيثما اجتمع الماء والاشجار فى شمال شرق

افريقيا يتمكن المرء دائما من ان يرى عدة الاف من المخلوقات الحية مجتمعة.

وبالاضافة الى الطيور لاحظنا وجود كثير من الثعابين. امس زحفت الافعى Brilenschlange الخطرة للغاية على مبعدة قدم ونصف من اقدام الدكتور واختفت فى الاعشاب العالية. ولا ادرى ان كانت هذه الحية التى يخشاها السودانيون خشية الموت هى من نفس نوع الحية المصرية الكوبرا Uraeus Haja أو من نوع آخر، ولدغها مثل لدغ الحية المصرية يؤدى دائما الى الموت. وهناك ثعابين كثيرة من طول نصف قدم الى قدمين، وكلما احسسنا بحركة الضب هنا وهى كثيرة رفعنا اسلحتنا استعدادا لاطلاق النار. وقد قتلنا كل ثعبان استطعنا ان نراه لاننا لم نكن ندرى ان كان ساما ام غير سام.

وفى الصيد الذى قمنا به هذا الصباح اصطدنا ظبية بحجم الوعل Rehe وهى من نوع Madoqua أو Saltiana وهى ليست من النوع المألوف هنا، وكان لحمها طيبا للغاية بالمقارنة للغزلان العادية.

كان الطقس الآن حسنا وجميلا بصورة منتظمة. فهناك باستمرار الريح الشمالية التى كانت فى صالح سفرنا بالمركب. ولكننا كنا نؤجله بقصد، لنخرج الى الغابات للصيد. وكان غذاؤنا من لحم الحيوانات التى نصطاد ومن الخضر الجاف الذى حملناه معنا من الخرطوم (الارز والعدس والبازلاء والفاصوليا ... إلخ.) اما الخضار الطازج فهو نادر للغاية. ويحجب الاهالى عنا كل المواد الغذائية حتى عندما نبدى استعدادنا لشرائها بضعف السعر المتعارف. فهم تملؤهم الريبة ويحسبوننا من الجنود الاتراك، والذين يندر ان يدفعوا سعر ما يشترون، اذ ان القاعدة هى ان يستولوا على ما يريدون بالقوة. وقد

اضطرنا الناس هنا الى اتباع هذه العادة الرذيلة. وكان على اغا يسطو على ما نحتاجه من دجاج وخراف، ثم يدفع بعد ذلك لصاحبه، او يقتاد شيخ القرية الى المركب، ويملى عليه ما يريد. وللافراج عن كبيرهم، يندفع اهل القرية الينا ويرجون الافراج عنه، ويعدون بتلبية ما نريد، ويأتوننا بالخراف والدجاج والبيض والسمن وما شابه ذلك، وبكميات وفيرة، ويستغربون كثيرا اننا ندفع اثمان كل ما ناخذ منها. ويغادر شيخهم المركب بعد اتمام البيع، وبيده ما اعطيناه من بقشيش، وبفمه دعوات لنا برحلة طيبة، ويقول لقومه بصوت خفيت: هذا النوع من الناس مجنون. يدفعون ثمن ما قد سرقوه. والله هذا عجيب!

عند الظهر فارقنا تلك الغابة الغنية بالصيد، وواصلنا رحلتنا على النيل الازرق. وبلغنا قرية تريرى مساء، وبالمنطقة المحيطة بها حسب ما قال تومبولدو الكثير من حيوان الصيد. وقد مضى ذلك النوبى الى القرية وعاد بنبأ اقتراب البدو الرحل بقطعانهم الى النهر امس، وان الاسود التى كانت تتابع القطعان قد وردت معهم. وكانت اعداد كبيرة من الفيلة قد ظهرت فى حقول الاهالى قبل ايام، واحدثت اضرارا كبيرة بها. ولكن الفقيه(الفكى) الورع قد كتب حجبا قوية وعلقت فى عواميد عالية فى الحقول، وكان لها اثرها.. وعادت الافيال ادراجها. وقد اكد لى تومبولدو ان هذه الوسيلة مجربة جدا.

وفى طريقنا قابلتنا تسعة اطواف مصنوعة من الاعمدة. وكانت قد فارقت الخرطوم منذ خمسة اشهر، وجمعوا الاعواد والاعمدة بعد جهد شاق فى الغابات وحزموها جيدا ضد كل مخاطر الارض والماء لكى يقوموا ببيعها لدى عودتهم الى الخرطوم بما يقارب خمسة عشر او ثلاثين ابو عشرين.

28 ديسمبر..

سافرنا الى القرية الواقعة قبالتنا وهى قرية تاخيلى Tachele وكان الاهالى حريصين على ان ياخذونى فى وضح النهار الى اسد قوى اثار الرعب بينهم، وقتل عددا من الابقار. وكان ليلة امس فقط قد قتل جملا.. ويرقد الآن للراحة تحت شجيرات ظليلة. وقد اكدوا لى اننى سأكون فى مأمن حتى ابلغه، وقبل ان يتنبه للصائد. ولحماسى للصيد فاتحت رفقائى وخدامى بما اعتزمت، ليستعدوا لهذا التحدى. وطلبت منهم القيام بحمايتى ومساندتى. ولم يتردد فى الاشتراك سوى الدكتور والخدام. ولحسرتى فقد بددت هذه الفرصة الجميلة والخروج لصيد الاسد بمفردى باعتبار ذلك نوعا من الطيش او الاندفاع.

فى اليوم التالى وصلنا الى اكواخ احد الفقهاء (الفقرا) التى تقوم فى وسط الغابة. وكانت كل ثروته هى بعض المزارع الواقعة بالقرب من هناك. وعلى مقربة من تلك الحقول وجدنا جمعا من اكلة النحل، وبالقرب منها كان يرقد تمساح ضخم فكرت فى اصطياده. فقمت باستدارة واسعة لكى اقترب منه دون ان يرانى، وزحفت فى حرص خلال الشجيرات التى كانت تغطينى، ورقدت على طرف الضفة بانتظار قتله. ولكن المكان الذى ابصرته فيه كان خاليا، ورأيته يسبح فى دعة فى النهر، ورأسه مرفوع دون ان يدرى بعدوه. وكنت ارتجف بالرغبة فى الصيد والقتل. فخضت فى الماء نحوه ولم اضع وقتا فى اسكان طلقة فى يافوخه، فارتفعت الموجات وضرب التمساح الماء بذنبه وانطلق كالمجنون على سطح الماء ثم فتح فمه الملئ بالاسنان واطلق صرخة، وغطس فى النهر. وكان ذلك اجمل صيد للتمساح قمت به. وهنا تكثر التماسيح، اذ نعد منها بضع وعشرين فى اليوم الواحد اثناء رحلتنا.

قضينا الليل بالقرب من اكواخ الفكى وخرجنا مع شروق الشمس راجلين الى الغابة القريبة من هناك بقصد الصيد. وكانت حتى دخولنا غير قابلة للاختراق الا عن طرق معينة، وكلها مع تفرقها فى كل اتجاه فى الغابة تلتقى عند ضفة النهر. ورأينا درب الفيل، عرفناه من نفاياته لكبر حجمها.وعند الضفة الطينية استطعنا ان نميز بين آثار الافيال وافراس النهر والجاموس بوضوح تام. ورأينا على كل الاشجار ما تركه الحيوان الذى طعم منها. اما الحيوانات نفسها فلم نر منها شيئا.. رغم تأكدنا من وجودها، لجدة آثارها. وكانت هناك بعض حقول للقطن البرى، وكانت مدمرة تماما.

والسكان فى النيل الازرق لايفيدون من العاج. اما زنوج بحر ابيض الذين اعتبرهم فى بعض الامور اكثر السودانيين تدبيرا فيحفرون حفرا عميقة للايقاع بالافيال. ثم يقتلونها بحرابهم الطويلة الحادة ويخرجونها من الحفر، فيأكلون لحمها، ويستخلصون العاج من مواضعه بالنار. وكان بمقدورنا لو كانت معنا الطلقات المناسبة ان نقتل الافيال بسهولة تامة فى غابتنا. ولكن كان يعوقنا ان طلقاتنا من النوع الصغير.

وكان على عدد من الجزر الرملية جمع من التماسيح الكبيرة، وكانت ثلاثة من افراس النهر تعبث فى الماء، اذ كانت تغطس وتطلق الماء كالحيتان. ويبدو ان طلقاتى لم تكن ذات اثر عليها، واشك فى كونها قد اخترقت جلد رأسها السميك. وعندما تؤلمها طلقة كانت تصدر صوتا مزمجرا غضبا كخوار الثور وان كان اقوى منه كثيرا، وتغطس فى الماء فترة اطول من عادتها.

كان اليوم حارا للغاية ولم يبرد الجو الا مساء. فنزلنا على الضفة اليمنى للنهر واوقدنا مع حلول الليل نارا كبيرة. وسرعان ما فضح بريقها ذئبا يقف علىى الضفة العالية، حدق فينا واخذ يعوى.

وانفجرت مجموعتنا كلها فى ضحك رنان دون تفكير فى اطلاق رصاصة على الذئب. والذئاب شائعة فاشية هنا، نسمعها كل ليلة. وما ان يعوى احدهم حتى يشاركه قطيع منهم. ولم يخطر ببال احد منا ان يخشاها.

3 ينايـر 1851 ..

منذ عصر امس وعاصفة قوية تهب علينا من الشمال، اضطرتنا الى ملازمة مكاننا، ولم نستطع مواصلة الرحلة الا قبيل مساء اليوم. بعد تحركنا بوقت قصير رأينا على الشط بعض الصقور والرخم جاثمة فوق جثة. وقد طردها احد الرجال من الجثة، والتى ما ان رآها حتى انخرط فى بكاء صارخ. وعرفنا بعد سؤاله انه فقد احب ابقاره اليه منذ ظهر اليوم، ووجدها الآن ميتة على الشط. فقد انتزع تمساح رأسها، وهى البالغة العامين.

- شوف الملعون يا اخونا.. قال تومبولدو.

وكانت الصامولة التى تمسك المفتاحين فى سلاحى قد انكسرت، واصبح الموقف خطرا الآن. ولحسن الحظ وجدت صامولة مماثلة فى صندوق معداتنا، وخرطتها واصلحت بذلك سلاح صيدى.

وبعد ايام وصلنا كركوج، وهى بقعة تجارية بها سوق، وتقع على الضفة اليمنى للنهر. وعلى الضفة الأخرى قرية سيرو التى خربها الدينكا. وكانت اهم ما قدمته لنا كركوج هو وجود الزراف طليقا. وقد زارنا هذا الحيوان الجميل المطمئن اول ما وصلنا بالمركب، وتناول الخبز والذرة من ايدينا وعاملنا بود وكأننا اصدقاء قدامى له.

وهنا قضينا الليل لأن الاحباش الذين نادرا ما كان الاتراك على سلام معهم قد هجموا على المنطقة التركية. وقد وصلت التعليمات للميجور

صالح افندى قائد الكتيبة فى سنار بالخروج لمنازلتهم. ولم يكن سكان اعالى النيل الازرق يتمتعون باية حماية من الاتراك كما قد يظن المرء. فالاحباش يغيرون عليهم من الشرق، وقبائل النيل الابيض من الغرب. والاحباش او المكاده كما يعرفون هنا عادة يخشاهم الناس اذ ان قسوتهم وفظاعتهم تفوق قدرتهم القتالية العالية. ولأنهم ينتزعون قطعا من لحم الحيوان وهو حى، من الفخذ، ليأكلوه نيئا، او كما يروون، يجهزونه طريا، فإن الناس فى بعض المناطق يعتبرونهم اكلة لحوم البشر. وهم يواجهون الموت دون خوف، فهم يرفعون دروعهم فى وجه رصاص وحراب بنادق الجنود الاتراك ويصمدون دون تراجع امام نار السلاح المميت. وسلاحهم فى الهجوم عادة هو العصى المقوسة والقوس والسهام، ويندر ان يكون لديهم سلاح نارى ذو عيار كبير، يحشونه بقطع مطحونة من الحديد. ولكنهم مع ذلك اعداء لا يستهان بهم بالنسبة للحكومة التركية والتى يهاجمون قواتها فى كل مواسم السنة.

6 ينايـــر 1851 ..

اصطدت تمساحا كبيرا، لكنه فر منى ايضا بالرغم من انه ظل راقدا فترة طويلة بلا حراك على الشاطئ.

ليست الملابس التركية التى كنا نرتديها مألوفة هنا، ولذا فان الحيوانات نفسها كانت تميزنا. امس اقتربت من قطيع من الماشية، ورأيت القطيع كله والثيران برؤوسها المطاطئة واذيالها المنتصبة وهى تندفع تهاجمنى. ولم اتخلص منها الا باطلاق رصاصات فى الهواء.

صحونا على ضجة عالية فى منتصف الليل.كان كوخ يحترق وتنتشر منه النيران فى سرعة مذهلة حتى ان خمسا وعشرين من القطاطى استحالت رمادا فى زمن وجيز لا يتعدى نصف الساعة.

وكانت جذوة النار تعلو عن الاربعين قدما فى ارتفاعها وتشع حرارة عالية جعلتنا نخشى على مركبنا، فسحبناه بضع مئات من الخطوات داخل النهر.

وكانت صرخات النساء الفزعات تشق الفضاء، ولم تكن لدى الرجال ادنى فكرة عن امكانية اطفاء الحريق، وبالرغم عن قرب النهر لم يفكر احد فى جلب الماء منه. وكان همهم هو قطع الطريق على النار.

اما عدا ذلك فلم يحرك احد ساكنا.

وكانت ألسنة النيران تلتهم كل ما هو قابل للاشتعال والاحتراق وبسرعة فائقة، وتنطلق كالحيات فوق الحيشان (الجدران المبنية من القصب)، وزرائب الشوك التى تساج بها القطاطى عادة. وكان الخشب يحترق ويتطاير حاملا النار الى الاكواخ البعيدة، ويقضى عليها. ان خمس دقائق لكافية لاحالة الكوخ الى رماد. وكان اغلب ساكنى القرية يحدقون فى الحريق صامتين، قانطين. لكن قليلا منهم كانوا يعملون وهم يحملون دروعا جلدية وحصائر لتحميهم من اللظى، بينما بعض آخر يحاولون حماية الماشية، وبعض ثالث يبعد المواعين الجلدية [السعون] المليئة بالسمسم لانها يمكن ان تطعم النار لزمن طويل. كما قام فريق رابع بابعاد العناقريب والادوات المنزلية الأخرى. اما النساء، فقد وقفن حاسرات الرؤوس، باكيات، مولولات.

كان حظنا من الصيد مثمرا جدا. فالغابة تذخر بدجاج الوادى، وقد اصطدنا من هذا الطائر اللذيذ الطعم ما يلزم مطبخنا، كما اصطدنا تيتلا. وكنا حتى ذلك الحين راضين عما اثمرت عنه رحلتنا، اذ جهزنا ثمانمائة طائر منذ رحيلنا من الخرطوم، وهى طيور مختلفة الانواع. وقد وجدت اليوم جزيرة رملية ليست بالكبيرة، يعمرها عدد من الرهو يبلغ

خمسمائة وتسعين، اما طيور الفرنوق فهي اكثر عددا، وتغطي بمعنى الكلمة ضفافا رملية باكملها، وتجتمع منها مئات عديدة بل آلاف عديدة. وفي مثل هذه الظروف يصبح الصيد متعة. ولحسن الحظ احتفظنا جميعنا بصحتنا وعافيتنا ما عدا تيشندورف الذي كانت الحمى تعاوده بشكل او آخر.

بعد ان عبرنا في يوم 18 يناير شلالا (جندلا) لا يميزه شيء ومع ذلك خاف منه بحارتنا الجبناء، بلغنا في الحادي والعشرين بركة مطرية، لكننا لم نمكث بها الا بضع ساعات لان الريس وعد بان ياخذنا الى بركة أخرى اكبر منها كثيرا بلغناها بعد يومين. وكانت فولة كبيرة مليئة بالماء وجديرة بان تسمى بركة. وكانت على بعد دقائق من ضفة النهر تأوي عددا من افراس النهر. وبدت لي البركة كمقام هادئ ومريح يناسب افراس النهر وكانما خلقت لها. وحولها من كل الجهات حقول خصيبة يمكن لهذه الحيوانات ان تجد بها غذاءها دون كبير عناء. وهنا وجدنا الى جانب الطيور التي اصبحت معروفة لنا، طائر الثعبان او حبيب بلاع الدبيب الموجود في شمال افريقيا باعداد كبيرة. لكن المشكلة ان مراقبته اسهل من صيده، اذ كان علينا قبل ان نطلق عليه رصاصة ان نخوض في الماء حتى الصدر. ويتوقف كل شئ على حظنا في ان تجد طلقة واحدة سبيلها الى الشئ الوحيد الذي يبرز منه فوق سطح الماء الا وهو رقبته التي تشبه الثعبان. وعلى الرغم من كل مصاعب صيد هذا الطائر تمكنا من ثلاثة طيور جميلة منه، كما جرحنا عدا كبيرا منها. وقد فرت الجريحة منا لقدرتها الفائقة على السباحة، كما ان طائرا رابعا صرعه تومبولدو فر منا وضاع ايضا وكان باستطاعة النوبي ان يأتي بالطائر الميت الطافح فوق الماء لولا ان صاح به اعرابي على الشاطئ ان يسرع الى الشاطئ لان

احد افراس النهر كان يسبح باتجاهه. فاستدار تومبولدو وابصر الحيوان الهائج يندفع نحوه. وكان فرس النيل قد وجد ارضا تحت اقدامه واستدار ليتقض على الرجل، لكنه لاذ بالفرار وحالفه الحظ اذ بلغ الغابة قبل ان يخرج عدوه من البركة. وقد طارده حتى ضفة النهر، وبعد ان دخل تومبلدو الغابة، احس بالامان، لان الخرطوش الذى كان بيده لا يستحق اسم سلاح امام هذا الحيوان الجبار.

والراجح ان الرصاص المتساقط حرك غضب الفرس فطارد صيادنا الممتاز، وكان يمكن ان يسحقه لو بلغه، لان المشهور عن فرس النهر انه ينقض على غريمه المسالم فى غضب اعمى ليسحقه. ويروى روبل ان فرسا منها قد سحق اربعة ثيران مربوطة الى وتد دون اى سبب ظاهر.

وبعد ان مكثنا يومين فى هذه البقعة واصلنا سفرنا. وقد لفت رجالنا نظرنا الى اشجار الابنوس التى تأخذ فى النمو ابتداء من هذا المكان. وفى النيل الابيض الى الشمال من هنا يلحظها المرء بسهولة. اما التى رأيتها هنا فقد كانت شجيرات لم تكن اكثر من ثلاثين قدما فى ارتفاعها. وخشب الابنوس ليس ممتازا، لكنه مطلوب هنا، وها هوملقى ويابس يهترئا دونما استفادة منه.

فى السابع والعشرين من ينائر وصلنا قرب منتصف النهار فريقا كبيرا لعرب للبقارة. وكانوا قد اتوا بالامس للاقامة هنا، فضربوا خيامهم التى تسمح بتهوية قصوى تحت اشجار السنط الظليلة فى الغابة على الضفة اليمنيى للنهر. وبعد وصولنا مباشرة تجمع عدد من الرجال بالقرب من المركب واخذوا ينظرون الطيور المحشوة بالقش، وانضم اليهم آخرون. حتى النساء اتين بعد حين، وبذا صار نصف سكان الفريق حولنا.

وكانت النساء يتحلين بقلائد من حجارة الكهرمان التى يبلغ قطر الواحد منها حوالى نصف البوصة، كما كن يلبسن الودع والخرز حول رؤوسهن واعناقهن وارجلهن وشعورهن. وكان بعضهن يتحلين بخواتم من النحاس الاصفر فى الشعر او يلبسنها كالزمام فى انوفهن. وقد بزتهن واحدة بان لبست حلية خاصة بها اثنتا عشرة كستبانة من النحاس الاصفر فى شعرها، وكانت تميل برأسها فى تيه اوروبى حتى ترن زينتها فى انسجام محسوب منتظم.

وكانت الصبايا والنسوة يأتزرن قطعة من القماش مشدودة حول اردافهن، اما بقية اجسادهن فقد كانت عارية للعيان. وقد كن دون استثناء يتمتعن بقامات ممشوقة لا عيب بها، ويكشفن عن اسنان منتظمة وجميلة وناصعة تحسدهن عليها بعض الاوروبيات.

وبمثل جمال اسنانهن كانت اعينهن السوداء الجميلة، ولا تقل عن ذاك جمالا عند الصغار سنا منهن نهودهن الجميلة القائمة كانما قدت من قوالب. وكان لبس الصبايا يتكون من خرق ممزعة. اما الصبيان فقد كانوا فى عرى تام.

فى البداية اخرجت الخرز للنساء ينظرنه، فاعجبهن. لكنه كان قابلا للكسر السريع. ثم اخرجت واحدة من المرايا التى تخصنى. فاصدرت النساء صرخة ابتهاج لا ينتهى. وتنقلت المرءاة من يد لأخرى بين النساء ومنهن الى الرجال، ثم كرة اخرى الى النساء. وكانت متعة قصوى للجميع. ولم استرجعها الا بعد ان جربت النساء كل جمالهن وحتى تعابير اوجههن كلها فى المرءاة مرات ومرات. وقامت الحسناوات منهن بمسح اجسادهن بالزبدة من جديد مثلما يفعلن كل يوم حماية لبشرتهن. وقد اضاف بعضهن مسحوق الكركم الاصفر الناعم الى الزبد حتى بدت

وجوههن بلون الزعفران. وكان جليا انهن لن يتعبن من النظر فى المرءاة والاعجاب بالزينة والاستمتاع بها، تماما مثل بعض نساء بلادى اللائى يصبغن خدودهن الناعمة بحمرة فن التجميل..

قرب المساء تركنا هؤلاء القوم السعداء، وبعد ساعات من السفر وصلنا الى الروصيرص الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الازرق على مسيرة ربع ساعة وعلى بضع دقائق الى الجنوب من خط عرض 12 درجة شمال. وهى العاصمة السابقة لملكة الفونج. وهناك غابة كثيفة لا تخترق من اشجار الدوم بينها والنهر، وتحدها من الجوانب الأخرى الثلاثة سافانا كثيرة الشجر. لكن المدينة ما عادت تستحق هذا الاسم، فهى فى الوقت الحاضر تتكون من مجموعة من القرى المنفصلة بالمزارع واشجار السافانا، ولكل منها اسمها الخاص بها. اما الحوانيت فلم تعد ذات قيمة بعد ان نقلت الحامية الى فازوغلى وقيسان، وتجارتها غير ذات خطر كبير، ولا تقع العين الا على التكول. والتى بنيت على مبعدة من بعضها تجنبا للحرائق، مما جعل المدينة تبدو اكبر مما هى عليه حقا. ويمكن ان يكون تعدادها الفى نسمة. وموقعها سئ، اذ انها تقوم على عدد من التلال، وتعانى من شح فى المياه. وتخرج النساء بالحمير كل مساء فى مواكب طويلة متجهة الى النهر لجلب الماء الضرورى للشرب. والروصيرص مدينة ميتة وغير ودودة.

مكثنا بالروصيرص حتى الرابع من فبرائر ولم يكن من الممكن مواصلة رحلتنا نحوالجنوب لأن النهر كان قد انحسر كثيرا وكان ريسنا يخشى ان تجنح المركب ان مكثنا طويلا ونزل النهر اكثر. وكان عائد الصيد كبيرا للغاية، وكان من الممكن ان يكون افضل لو قمنا به فى الغابة المواجهة لنا، ولكن ما كان لنا ان ندخلها لان التابى كانوا يتقاتلون.

وكنا نسمع زئير الاسد كل ليلة. وقيل لنا ان الافيال كثيرة فى تلك الغابة. ولا اود تكرار ذكر الذئاب وافراس النهر لانه الاستثناء ان لم نرهم او نسمعهم كل يوم.

20 فبرايـــر..

فى الأيام الأخيرة خرجنا موفقين لصيد الغرانيق، ويبدو أنها تتجمع الآن للرحيل. وقد رأينا فى بعض الجزر أسرابا كثيرة منها يمكن القول بأنها تقدر بأكثر من ستة آلاف. وهى الآن فى أبهى أزيائها.

هبت أول امس صباحا ريح شمالية قوية وشديدة البرودة، أبقتنا تحت أغطيتنا فلم نخرج الا بعد ساعات طويلة من شروق الشمس لشدة البرد. وعند الظهيرة وصلنا الى غابة أضر بها الجراد، واصطدن عددا من الصقور التى تقتات على الحشرات.

أضحيالنهر ضحلا للغاية ويمكن أن يقطع خوضا فى بعض المواقع، وكان عرضه مسيرة ربع ساعة، ولكن لا يمكن مقارنة مائه الآن بمائه فى الخريف. وكان ريسنا كثيرة الشكوى من قلة مائه وضحالته، واكد ان النيل الازرق الآن لم يعد صالحا للملاحة. ومررنا ليلا بمنطقة من النهر عميقة للغاية تطبق عليها الصخور العالية تسمى بركة الموت.

فى صباح اليوم التالى توقفنا عند ساقية لنشترى خضارا طازجا، وافادنا سودانى يعمل هناك بأن المرء لا يأمن فى اى ليلة من هجوم اسد ولبوته، وان ذلك كثيرا ما يحدث نهارا حين يخرج الاسد من الغابة الكثيفة.

قبيل المساء مررنا بمصب نهر الدندر، احد روافد النيل الازرق القادمة من الجبال الاثيوبية.. وفيضانه فى زمن الامطار، لكنه الآن لا يحمل من الماء اكثر مما يحمله نهر ألستر فى المانيا. وهنا ودعنا ملكة النخيل [الدليب]، إذ تنعدم شمالاً.

آن لنا ان نعود. وقد نفدت ذخيرتنا، ولم نعد نجد مكانا للطيور المحشوة فى الصناديق، فوضعناها فى خيمة القصب. وكنا قد حشونا اكثر من اربعمائة جلد، وكنا راضين بعائد الرحلة. والآن سيعم السكون فى الغابات، وحتى عالم الحيوان قد اخذ يشعر بدنو الموسم المميت من السنة، واخذت اوراق الاشجار تتساقط، وزوار الليل اللائذون بها يرحلون جنوبا الى مناطق اكثر مياها. واصبح الصيد اقل عائدا.

25 فبراير 1851 ..

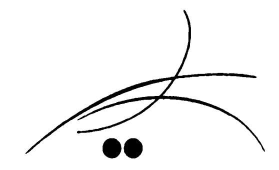
فى وقت العصر اصطدت واحدا من سبعة تماسيح كانت نائمة، بطلقة واحدة. فمات فى مكانه. وكانت به اكثر من ثلاثين بيضة شبه مستوية فى جسمه. ولم أر منها سوى 26 بيضة لأن البحارة سارعوا إلى أكل باقيها، وكانوا فى البداية مستعدين لاكل التمساح نفسه، لكنهم قرروا اخيرا ان يبيعوه فى سوق ود مدني. ولذا اكتفوا باكل ذنبه فقط. وقد استمتعوا به. اما نحن الاوروبيين فقد اصبنا بصدمة من جراء الرائحة التى فاحت منه بعد طبخه، فلم نستطع ان ننعم بلقمة واحدة منه. ولأن لحم التمساح مطلوب جدا عند السودانيين فقد ربح بحارتنا من ورائه فى ود مدنى، واشتروا بعائده مريسة وأولموا مرة أخرى من التمساح والمريسة.. ورن صوت الطمبور.

وصلنا الخرطوم فى السادس من مارس.

وجدت خطابا من أبوى. اما بخصوص الرحلة الثالثة المزعومة للهر فون موللر، فلم تكن هناك خطابات بشأنها قد وصلت.

***

13
أفراح وأشجان فى الإقامة الأخيرة بالخرطوم



8 مـــارس 1851 ..

أتانى كونتارينى اليوم بوجه يقول الكثير: «جد أمر مثير يا سنيور!».

وجهدنا طويلا دون طائل ان ننتزع منه سره، ولم يفصح عنه الا بعد ان اثار فضولنا الى اقصى حد. وقال " ثلاثة انجليز. بلحمهم ودمهم.. اتوا الى هنا. اتصدقون؟! ثلاثة انجليز! "

ثم شرع بأسلوبه الهزلى يقلد وجوههم ونظاراتهم وسلاسل ساعاتهم وقبعاتهم وألبسة ارجلهم، وسرابيلهم، وحركاتهم وسلوكهم. ثم شرب ما قدمنا له من شراب واختفى ليوزع سره على آخرين.

ولم يكن الانجليز الثلاثة يشبهون الصورة الهزلية التى قدمها عنهم كونتارينى. كانوا اشخاصا ودودين، قضينا معهم ساعات ممتعة. وكان اكبرهم سنا قد زار كل بلاد الله، وكان يجيد الالمانية، وهو عالم نبات، وانسان واسع المعرفة والتعليم. وكان الآخران يعملان فى اسطول شركة الهند الشرقية ويقومان برحلة فى اجازتيهما من بومباى وعبر القاهرة الى الخرطوم! اما وصولهم الى هنا فقد كان محض صدفة. فقد قصدوا زيارة صعيد مصر، فصاروا ينتقلون من مدينة لأخرى حتى بلغوا الخرطوم. ولا يستغربن احد ان يحدث ذلك للانجليز.

ولكنهم اكتشفوا هنا انهم بلا مال كاف لعودتهم. وكان حرجهم كبيرا. وقد ضمنتهم واخذت باسمى المال الذى يلزمهم من نيكولاى اوليفى. وبفضل ما لقنته اياه من درس بضربى له سابقا استطعنا ان نحصل على تخفيض منه للفائدة. واصبحنا فى وقت وجيز خير اصدقاء.

18 مارس 1851 ..

غادرت الخرطوم مرافقا الانجليز بالباخرة لاقضى معهم فترة اطول. وكانت "الذهبية" تسير بستة مجاذيف، وتسرع جدا مع التيار. وقد اراد اولئك الفتيان الخروج للصيد فى النيل الابيض قبل ان يغادروا السودان، ولذلك ابحرنا الى راس الخرطوم وصعدنا النيل الابيض حيث قضينا فى مكان على مبعدة ميلين تقريبا من الخرطوم الليل وجزء كبيرا من اليوم التالى.. ثم عدنا ونزلنا فى القرية التى كانت معروفة لدينا: الحلفاية.

20 مارس..

كان تقدمنا بطيئا مع الريح المعاكسة. وقبيل المساء رأينا وراء التلال القريبة من قرية السروراب سفينة عليها علم نمساوى. وكانت مبحرة بسرعة كبيرة ومرت قريبا منا جدا الى الضفة الرملية الكبيرة. وحييناها بطلقاتنا ثم ناديناها. وطرقت اسماعنا كلمات ألمانية..واخذتنا الذهبية الى القنصل النمساوى الذى طالما اشتقنا اليه، صديقنا الدكتور قنسطنطين رايتز. وكان برفقته رجل وسيم طويل قدمه الينا كتاجر من سنت بيترزبيرج اسمه باور هيرست. وبعد التحية القلبية سألته عن البارون موللر، ولم تكن اجابة القنصل مطمئنة، وقد اكدت لى ما راج فى الخرطوم منذ مدة من ان البارون قد افلس تماما. ولم يكن الدكتور رايتز يحمل الينا مالا منه بل مجرد خطاب كله تأكيدات لبراءته وشكوى

وتبريرات ومواساة. وهكذا تبخر آخر امل. واسقط فى يدى كيف اقطع
مئات الاميال التى تفصلنى عن ارض الوطن. وحتى لو بعت كل ما املك،
ما عدا المجموعة التى حصلت عليها بشق الانفس فلن يفى ذلك بتكاليف
الرحلة الى القاهرة. وبكلمات قلائل كنت مهجورا ومغدورا به فى وسط
افريقيا. تلك هى الورطة التى اوقعنا فيها البارون موللر. ولولا اننا
وجدنا رجالا شرفاء فى الخرطوم لجعنا او على الاقل اصبنا بامراض
السودان الشرقى التى اودت بحياة كثير من معارفى، كالحمى التى
قضت على الدكتور فيرتاللر الذى بقى طوعا فى السودان مدة اطول
منى، والدوسنتاريا التى اصابت رايتز فى توكا [دوكا] فى شرق سنار.
ولا اود ان اضيف الكثير على الطريقة التى عاملنا

بها البارون، فهى تنطق بما لا اجد له من الكلمات ما يطابقه.

بقينا مع الانجليز حتى صباح اليوم التالى، وكان الفراق مؤلما لى
ولهم. وقد طوقنى ليكس Lakes وضمنى مرات عديدة وفى عينيه دموع.
وتمنيت له رحلة سعيد وطيبة الى القاهرة، وتمنى لى مثل ذلك.. وظل
ممسكا منديله الى عينيه، يلوح به لى مودعا حتى اختفى ..

وبعد 14 يوما ووری جسده الثرى فى فناء كنيسة بربر!

عدنا الى الخرطوم بعد ظهر ذلك اليوم، وذهبت الى الباشا لأزف اليه
نبأ وصول القنصل النمساوى الى الخرطوم.

22 مارس 1851 ..

زيارة رسمية كبرى للباشا.. القنصل فى بذلة سهرة وبرفقة كل
الاوروبيين، وعلى اغا يسير فى المقدمة. وقد جهد الباشا ان يطرح جانبا
كل المباهج التى قدمت له ذلك اليوم، وكان مهذبا ولبقا للغاية.

30 مــارس..

تجهيز شعار القنصلية بصورة احتفالية للحفل الذى دعى اليه كل الاوروبيين. ألقى القنصل كلمة باللغة الايطالية اكد فيها طبيعة واهمية القنصلية الاوروبية، ودعاهم جميعا ضيوفا عنده فى النهاية. وقبيل المساء جاء الباشا ايضا مع كبار موظفيه، واطلقنا 21 طلقة.

وبعد يومين اقام نيكولا اوليفى مأدبة فخمة تكريما للقنصل لم احضرها لاننى كنت صريع الحمى. وقد روى لى كونتارينى باخلاص كل شئ.

كان وضعنا بسبب الحرج المالى يزداد تعقدا وحرجا. وافترق عنا الدكتور فيرتالر، اذ اصبح كل واحد يفكر بأنه يجب عليه ان يجد لنفسه مكانا يقيم فيه. وقد ذهب الى صديقه بالجامعة، القنصل، الذى اشترى بيت التاجر روليت Rolletوحسنه وجعل منه مبنى القنصلية. اما انا فقد بقيت فى مسكننا. وودت لو سرحت خادمنا، لكننى كنت افقر من ان ادفع له ما لديه علينا من ديون راتبه، كما انه لا يفرق كثيرا فى الخرطوم ان كان للمرء خادمان او ستة من النوبيين تحت سقفه. ولكن بالاضافة الى ذلك فاننى بفضل عونهم قد ازدادت مجموعتى. اننى اعمل باستمرار لأنى اريد استهلاك ما اشتريناه من مواد من اجل المجموعة، او لاننى عن طريق العمل استطيع ان احتمل وضعى لأن الطبيعة وهبتنى بسخاء ما استطيع به نسيان فقر وضعى المنزلى. وكانت المهام الواجب القيام بها للمجموعة مقدمة على كل شيئ آخر. وقد قايضت ماسورة فضية بثمانية ارطال من البارود. وقد بعت ملابس وسلاحا، وكتبا وصناديق وملاءات، والقليل الذى كان معى من زينة. لقد بعت كل ما يمكننى شراؤه. وكان قلبى مثقلا بالهموم، وشيطان الحمى ان نزل عنى بضع ساعات، اجدنى

اخرج وسلاحى فوق كتفى الى الطبيعة الحرة لاتزود بالطاقة والقوة من جديد.

يمكننى ان اسمى صديقا، وقد صار معروفا لدينا اكثر، هو من افاضل الناس فى السودان كله. انه الحاكم العام لطيف باشا. فالاشهر الاربعة التى كنت قد وعدته بالإيفاء بدينى له قد انصرمت، وقد اطلعت الباشا على اوضاعى السيئة واعتذرت بأنى لن استطيع الوفاء بما وعدت. فاجابنى اجابة بسيطة قصيرة: " بينى وبينك ما فيش تكليف " ولكن هذه الكلمات القلائل كانت تكشف عن كنز من النبل والشهامة والكرم. وذاك ما لا يفهمه الناس فى ألمانيا، وقد يسئ المرء فهمه هناك. ولذلك أود ان ابين المعنى الحقيقى لذلك. فكل كلمة مما قال كانت فى هذا السياق: «يا خليل افندى.. لقد كنت فى ضيق وكان بمقدورى، بحمد الله، ان اساعدك. وبذلك اصبحت مرتبطا بى. ولكننى لا اريد ان اخلق لك مشكلة جديدة، بل اقول لك.. ليس بينى وبينك اى تكليف..».

طلبت من الباشا ان كان ذلك ممكنا ان يمدنى ببعض البارود، فامر باعطائى ستة آلاف قطعة خرطوش وبالسعر الرسمى. وبالطبع كان البارود رديئا، ولكن الرطل منه لم يكلفنى سوى خمسة قروش. اما الرصاص فقد كان بالمجان.

ماذا أسمى سلوك هذا الرجل؟

لا يمكننى ان اصفه بأنه تركى، اذ ان معظم قرائى سيحسبونه قاسيا. ام اصفه بأنه مسيحى؟وبالمقارنة الى تصرف مسيحيى الخرطوم فإن وصف تصرفه بالمسيحى فيه اهدار لتلك الفضائل التى لا تتوفر حتى فىَّ انا نفسى. ولكن كيف لتركى ومسلم ان يقوم باعمال مسيحية؟ إننى اترك لقرائى ان يجدوا لانفسهم وصفا. فقط يجب الا يستغرب الناس ان

كنت احترم الاتراك واحبهم. لقد اجبرونى على ذلك باعمالهم الكثيرة الشهمة وبانسانيتهم وتعاطفهم الانسانى وتراحمهم. وانى اكرر القول ان المسيحيين فى السودان الشرقى باستثناء قلة منهم الذين عرفناهم معرفة طيبة وبامانة كانوا فيما لو استطاعوا ليتركونى اموت جوعا، لا بل ان يسممونى ويرقصوا فرحين باشتراكهم فى محنتى. لقد اورثونى غما عميقا، وكذبوا على وخدعونى وسرقونى وأشانوا سمعتى. اما الاتراك فقد اهتموا بأمرى وتخذونى اخا وصديقا وابنا، وعاملونى كأخ وصديق وابن.. فلهم حبى ولهم احترامى.

ان قائمة اصدقائى لم تقفل بعد، فاننى اسمى باخلاص على اغا واذكر خدمى السمر الذين ظلوا اوفياء كالذهب وتقاسموا معى السراء والضراء.

والحق.. ليس لى ان أجار بالشكوى. فقد بقى لى مع كل فقرى الكثير الكثير. وكان لى فى فناء بيتى عالمى الصغير الخاص بى. ما اكثر السعادة التى منحتنيها طيور ابو منجل الداجنة، والحيوانات الكبيرة الحية. وكم داعبتنى القردة بخيتة ولكن لم يكن لى مال. وكثيرا ما تساءلت ماذا نأكل غدا، وكثيرا ما امتصت حيوتى وشجاعتى وروحى المعنوية تلك الحمى الراجعة.

ثم أى حنق عميق ومرير كان بى ضد معظم الناس الذين وثق بهم اتصالى فكذبونى وخدعونى وكادوا ان يسرقونى عطفى الانسانى.. اما الآن وعندما اظهر فى دوائرهم فى هدوء ودون مشاركة، اجدنى مدفوعا لان اضحك من افكارى السابقة. اننى واحد منهم. وحتى اليوم اجدها مفهومة. فى ما مضى كنت كثيرا ما ادخل ديوان باورهيرست لأروح النفس، ازيح عن الصدر الافكار الداكنة، او ان احادثه. وقد نختلف

ونتشاجر، لكن الصفاء يعود بيننا. ولساعات طويلة ألهو مع بخيتة.. وقد كسبت ودها، فصارت افضل اصدقائي. وفي شخصيتها يجد المرء امتزاج الوضوح والاخلاص وطيبة المعشر.

ولكن.. من هي بخيته ؟ بالطبع الاسم اسم فتاة، وهو من اصل فارسي، ويعني موفورة الحظ. وبذلك يمكن للقارئ ان يتصور ان حب امراة قد واساني. لكن بخيتة لم تكن امراة، رغم انها انثى. فهي باختصار لبوة صغيرة اوكلني صديقي باورهيرست بتربيتها. وقد جاءته هدية من لطيف باشا. وكان عمرها نصف عام حين جاءتنا. وقد ألفت الناس وألفوها، وتركت طليقة. وكانت قد تعلقت به وصارت تتبعني كالكلب. وكثيرا ما كان صاحبها الاول يزورها فتعرفه سواء أتى راكبا أو رجلا متى ما اقترب من بيتنا. وكانت تقضي الليل احيانا كثيرة معي. وكانت اكثر ألفة من كلب وحسنة السلوك. فقط حين اصبحت اكبر كان لا بد من ترويضها بضع مرات بسبب توحشها. كانت تلعب مع القرود البابون التي كانت بحوزتنا، ولكنها تجنبتها خوفا منها. وقد اكلت ذات مرة قردا صغيرا. وفي مرة اخرى قتلت خروفا كانت تلاعبه بضربة من ذراعها القوي. وعندما كنا نقسو عليها بالضرب لترويضها كانت تهم بالهجوم علينا في غضب ولكن سرعان ما كانت تهدأ. ولكم قضينا ساعات ممتعة.

وهكذا عشت صيف عام 1851 اياما كثيرة سيئة، وبعض ايام طيبة.

كان باورهيرست قد انهى اعماله في الخرطوم، ووجد انه لم يبق له غير القليل، فقرر العودة الى القاهرة، ومن هناك يدبر برأسمال اكبر محاولة أخرى تجارية. وكانت صداقته لي للحد الذي جعله يعدني بأن يأخذني وكل امتعتي الى القاهرة ويدفع لي كل التكاليف. بقي شيء واحد.. وهو إن كان الباشا، ضامني الاساسي، سيسمح لي بالسفر.

فذهبنا اليه فى 3 اغسطس، باورهورست لوداعه، وأنا لاطلب منه السماح لى بالسفر الى القاهرة.

كان الباشا فى مزاج عكر، وباردا اول الامر. وقد ترجمت له كلمة الوداع من باوهورست، ثم قلت له ان الاطباء قد جزموا بأن صحتى لن تحتمل ان بقيت بضعة اسابيع أخرى هنا واصابتنى الحمى مرة أخرى، ولا بد ان اسرع الى طقس افضل، كما اننى اتشوق لرؤية احبابى فى بلدى والذين طال فراقى عنهم.

فقال الباشا: ومن غصبك على البقاء هنا يا خليل افندى ?هيا شد الرحال بالسلامة الى وطنك.

فأجبته: ان ما يربطنى هو كلمتى التى قطعتها، والرجل الشريف لا بد ان يعتبر نفسه مربوطا حتى ولو كان فى ذلك دماره المحتم. اننى مدين لك ومسرور بذلك لاننى بذلك عرفت شهامتك. ولكننى لا استطيع ان أفى بوعدى. استطيع ذلك من القاهرة فقط. فهل تأذن لى بالسفر؟

ـ يا للشيطان! ماذا تظننى يا خليل افندى؟سافر فى أمان. لست مدينا لى أنا، بل لحكومة السودان الشرقى، وستسمح لك المالية بفسحة اكبر لتسديد دينك. ادفع بعد شهرين من وصولك المبلغ المدين به الى قنصلكم فى القاهرة، وسآخذ المبلغ من هناك. ولكن كيف ستسافر الى القاهرة؟ ان امامك رحلة مئات من الاميال. فكيف تغطى تكاليفها؟

ـ ان صديقى باورهورست قد وعدنى بتغطيتها حتى القاهرة.

ـ حسن يا خليل افندى. ولكننى اود ان اعطيك درسا. انت ما زلت شابا وليست لديك المعرفة بالناس التى توفرت لى بعد سنوات خبرة طويلة فى الحياة العملية. صدقنى.. ان افضل صديق ينقلب عدوا عندما تكثر من طلب المال منه واستطيع ان اجنبك هذه التجربة، وسأفعل. ارسل

لى غدا طلبا، وساعتمده، ليصرف لك من الخزينة خمسة آلاف قرش، وبذلك تكون مدينا للحكومة بمبلغ عشرة آلاف قرش تسددها عند قنصلك بالقاهرة.

فى البداية لم تسعفنى الكلمات لأعبر عن شكرى. واخيرا قلت له ان كرمه يأسرنى، واننى لن انسى شهامته ابدا. وربما قرأ فى عيونى المغرورقة بالدمع حقيقة شعورى، فسمح لى فى لطف بالذهاب.

وفى اليوم التالى وصلنى المبلغ المطلوب.

11 أغسطس..

قمت اليوم بزيارة للباشا للوداع، وبعد ان حادثنى طويلا، قمت للخروج، وطلبت منه حسب العادة التركية الاذن لى بذلك.

- يا خليل افندى. بل إبق قليلا، فلقد علمت اننى على وشك مقابلة هامة. ان مبعوث ملك دارفور قادم لبحث مسائل رسمية هامة.

ولم يدم الامر طويلا حتى ظهر فى الديوان الوزير المتوقع بصحبة شيخ مقيم فى الخرطوم من اهل البلاد السمر. وكان سعادة الوزير الاسود يرتدى قميصا من القطن طويلا وبه خطوط حمراء فاقعة وصفراء. ودخل حتى وسط الديوان بمهابة فوراوية، واتجه نحو الباشا، ووضع يده بالتحية ثلاث مرات على فمه وجبهته دون ان ينبس بكلمة واحدة. وبحركة من يده دعا الباشا الوزير ومرافقه العربى الى الجلوس، وقدمت لهما القهوة. ولكن لم تقدم لهم الشيشة. وبدأ الشيخ بعد ذلك الكلام عن التماس سعادته، وهوالسماح لعمة الملك الاميرة سواكيم Soakimبالمرور عبر الاراضى التى تحت الاتراك للقيام بالحج الى مكة. وقد امر الباشا بأن تكون اقامة ومؤونة قافلة الحج كلها على نفقة الحكومة.. وقد خصص لهم مبنى واسع لاقامتهم فى الخرطوم. وكانت

الاميرة تصحبها حاشيتها من الحريم، ويتألف ركبها من ثمانية وستين فردا من خدم وعبيد لها، وتجار ومؤمنين ورعين انضموا الى ركبها.

ومن الطبيعي اننا نحن الاوروبيين كنا نريد ان نرى سمو الاميرة. وقررنا وعلى رأسنا القنصل ان نقوم بزيارة احتفائية اتفقنا ان تكون في يوم 14 اغسطس. وفي موكب مهيب دخلنا صباحا محل اقامة سموها. ولكن توقيتنا كان غير ملائم اذ انها كانت مغادرته لتقوم بزيارة رسمية للعائلات في بيت لطيف باشا. كانت تركب واحدا من خيول دارفور الصغيرة المعروفة، على سرج تركي. وكانت تركب لا كالنساء بل كالرجال. وكانت ثيابها التركية العربية تساعد على ذلك اكثر من ثياب نسائنا. وكان يحيط بها بعض اناس في ثياب مهلهلة، يمسك احدهم الحصان من لجامه، فهو رئيس ساسة خيول سموها. وعلى اليمين واليسار منها سارت ست الى ثمان عبدات يلبسن ازياء السودانيات، اى عليهن فردة. وكن يلبسن عقودا من السوميت في شعورهن المدهونة. وكن حافيات. وكانت السيدة سواكيم تلبس على رأسها قطعة صفراء فاقعة كالعمامة، يتدلى طرفاها على الجانبين. وكانت محجبة بعناية.

وقد واتانا الحظ لرؤيتها عصر ذلك اليوم، وكانت عندما دخلنا في الجزء الداخلي من البيت او الحريم. فاخطرت بمجيئنا. وسمعنا ضجة بالداخل، وانتظرنا في صبر حتى طلب الينا الدخول. وتقدمنا القنصل. وكانت الاميرة جالسة في وسط الحوش الواسع فوق سجاد طويل ضيق، فنهضت واقفة لدى دخولنا. وقد طلب منا الوزير الذي قابلناه في الديوان ان نجلس. وكانت جلسة تركية على بساط رقيق. ولم يكن ذلك مريحا بالنسبة للباس الاوروبي الضيق. وبعد ان جلسنا، جلست سموها. واتى كبير الساسة وجلس خلفها مباشرة. وكان يجرؤ على

الهمس فى اذنها من حين لآخر ببعض الكلام، اما الوزير، فقد جلس على مسافة معتبرة امامها، وشارك فى الحديث، والذى بدأه القنصل، بان طلب الى خدامه تقديم هداياه الى الاميرة وهى مكونة من صابون حمام وحلوى وماء الكولونيا الخ. وقد تلقتها مبتهجة واغدقت كلمات الشكر بالعربية، بينما حاول القنصل ان يفهمها بكلمات انتقاها فى عناية اهمية حضوره وضرورة ان يكون هناك اتصال مباشر بين الاوروبيين ورعايا صاحب الجلالة الجاموس الكبير. وقد ترجمنا كلماته الى العربية الفصحى للاميرة. وبينما كان رايتز يقوم بدوره الدبلوماسى وجدت فرصة لملاحظة الاميرة سواكيم.

كانت ترتدى ملاءة [ثوبا] طويلا من الحرير غير الخالص، وتغطى به وجهها ورأسها. وقد لمحت انها فى الثلاثين من العمر. وكانت قبيحة الوجه. وكانت تلبس فى معصمها سلسلة من السوميت الكهرمان كالأساور. وكانت القطع كبيرة. وكانت قد ادارت وجهها عنا واعطتنا صفحته اليسرى. وكانت حريصة على مراعاة عادات النسوة الاتراك، ومع ذلك كانت متنبهة جدا لما يدور واجابت بسرعة وبصورة مقبولة على ما وجه اليها من اسئلة كثيرة، ووجدت مع ذلك الوقت لتوجه أوامر لخدمها.

وكانت احدى العبدات صغيرة وغير قبيحة ولعلها كانت وصيفة سموها، على مبعدة منها، تركع على الارض وترقب سيدتها. هى ايضا كانت تلبس الكهرمان. وإثر كلمات قلائل من الاميرة لعلها كانت تعليمات، غادرت الى داخل البيت، ولم تعد مرة أخرى. والاتيكيت الصارم لاهل دارفور لم يسمح لها بالوقوف والمشى، بل كان عليها ان تزحف على يديها ورجليها مبتعدة.

وفى الجزء الخلفى من البيت كانت خادم اخرى تقطع لحم البقر شرائح نحيلة، ستعرض للشمس لتجف ليمكن حملها فى الرحلة عبر الصحراء. وكانت فتاتان غير بالغتين تجلسان الى غسيل بعض الملابس. ذاك كان كل ما رأيناه من بيت الاميرة. وكان لقاؤنا قصيرا، ومن ثمة كانت الملاحظات محدودة. وبعد حوالى ربع ساعة هبت الاميرة واقفة. ورافقنا الوزير حتى باب الحوش، واكد لنا ان زيارتنا قد سرت بها سمو الاميرة. وواصل القنصل معه جهوده الدبلوماسية واسعده كثيرا ان سعادة الوزير قد طمأنه ان جلالته ملك الفور سيسمح بزيارة احد اتباع القنصل الى بلاده. ومع ذلك ما كنت حتى ولو كان لدى الوقت والمال ان اجازف بدخول ارض الفور لاننى لى كل الاسباب للايمان باننى سألاقى مصير كل الاوروبيين الذين ذهبوا الى هناك. وافترقنا بتأكيد الاحترام المتبادل.

بعد ان حصلت على المال لرحلتى الى القاهرة من الباشا رأيت ان اكفى بعض من لهم دين على هنا والذين سأدفع لهم فى القاهرة. ومن بين هؤلاء حسين اغا الذى اقترضت منه ألفى قرش. هذا الرجل لم اذكر عنه الكثير حتى الآن.. فهو كبير السنجك الارناؤوط، لكنه فقد الحظوة عند عباس باشا نائب الوالى لانه فى حياة وحكومة والده محمد على اراد ان يبيع جوادا عربيا اصيلا كان عباس باشا يريده هدية.. وقال له فى جفاء: انت يا افندينا تحب ركوب الخيل الاصيلة، وانا ايضا. وكان حسين اغا معبود رجاله، شجاع ومقدام فى كل معركة، ولكنه ابعد من الخدمة بعدما تسلم عباس باشا الحكم.

وكان بيت وحريم حسين اغا فى شندى، حيث كانت له املاك واسعة او بالاحرى كان يدير املاكا واسعة، اذ ان كل الاراضى كانت تعتبر ملكا

للحكومة. لكنه كان يقضى الجزء الاكبر من السنة بالخرطوم فى بيت صغير وعدد قليل من الخدم. وهناك زرته فى وقت العصر، وكان يصلى، بينما اخذت مكانى فى الديوان. وبعد الصلاة جلس الى وتمنى لى رحلة موفقة. فقلت له اننى جئت لادفع دينى الذى مضى عليه 13 شهرا. فنظرنى مستغربا وقال: " اتريد ان تدفع لى القروش القلائل التى تدين بها لى يا خليل افندى؟ وكيف تصل القاهرة؟ احتفظ بمالك، وادفع لى من القاهرة.. فاننى سانتظر. ارسل لى خطاب دفع من القنصل بالاسكندرية.. أو من بلدك. وان لم تجد المال هناك فلا تزعج نفسك. اننى بفضل العلى القدير رجل غنى. [وقبل يده من فوق ومن تحت كما يفعل المسلمون حين يقولون الحمد لله] ولست بحاجة ماسة لهذين الالفين من القروش. وسأكون سعيدا باننى استطعت ان اقدم لك خدمة.

وهنا تحول بوده الكبير ليقنعنى بان ابقى مدينا له. ولكن ذلك اشعرنى اكثر بفداحة دينى. وقد تركت المبلغ عند القائم على بيته ليعطيه سيده فى ما بعد. وبعد ان اقتنع بعدم جدوى طلبه ودعنى بحرارة ووعدنى بان يخط لى كتاب توصية الى وكيله فى شندى، لاننى ساستلم كتاب خلاص دينى من هناك. وفارقت حسين اغا بكلمات الشكر فى لسانى، والاحترام والتقدير له فى قلبى. انه واحد من أولئك الترك العزيزين الذين عرفت. وهو قد ولد ونشأ بعيدا عن العاصمة واحتفظ بالبساطة والطيبة فى عادات اسلافه.

وعندما عاد الدكتور فون هويجلز الذى كان القنصل المعتمد فى افريقيا الوسطى من الخرطوم الى اوروبا حمله حسين اغا هدية لى حتى لا انساه.

بحثت مع باور هورست عن مركب نستأجرها، فقد عقدنا العزم على الرحلة بالنهر اذ ان تكاليف الرحلة بذلك اقل كثيرا من السفر عبر

الصحراء. وبالطبع هناك خطر عبور الشلالات، وانا اعرف ذلك عن خبرة، وهو اكبر من خطر رحلة بالبر. والاشداء من الشباب الذى لا يهاب شيئا وحدهم الذين لا يسألون كثيرا. وبعد بحث طويل وجدنا صاحب مركب جديدة واتفقنا معه.

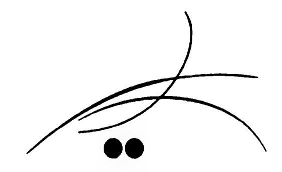
كان فصل الامطار قد بدأ، وكانت الامطار اكثر فيما يبدو من العام الفائت، ولذا كان لا بد من ابتداء الرحلة للوصول الى مصر مع الفيضان. واقام لنا القنصل حفل وداع فى 16 اغسطس، وكان الحضور ألمان فقط. ومع الخمر ارتفعت معنوياتنا، فغنينا وابتهجنا. ورفع رايتز كأسه وشربنا نخبا على اجتماع شملنا.

وفى 17 اغسطس صعدنا مع خدمنا الكوخ المصنوع من القش على ظهر المركب. وظهر د. رايتز ود. فيرهالر بزجاجات خمر تحت الابط مما تبقى من ليلة الامس لحديث خاص معنا. وبعد ان غادرا حاولت ان انام، ولكن دون جدوى. طافت بذهنى فترة 14 شهرا رأيت فيها الكثير. والتفكير فيها اعاد الوعى الفرح الفخور باننى قد عشتها وخرجت حيا. ثم فكرت فى الاشياء الكثيرة الجميلة والرائعة التى عشتها، ولم يتحقق غير القليل منها. وعشت كل ذلك الوقت الطويل بلا بهجة مع العوائق والهموم.. ولكن انتهى كل شئ بخير.. والسلام عليك يا خرطوم.

***

15

رحلة نيلية من الخرطوم إلى القاهرة



فى صباح الثامن عشر من اغسطس جاء عدد كبير من الاوروبيين المقيمين فى الخرطوم الى سفينتنا لوداعنا. وكان رايتز وفيرتالر يريدان مرافقتنا حتى الحلفاية. تحركنا من الشاطئ ومشاعر الغبطة تغمرنا. وسرعان ما دفع النهر الممتلئ سفينتنا بسرعة الى الامام. وبعد ساعة ونصف كنا على مقربة من قرية الحلفاية. ورأينا جلال جمال السودان الشرقى. وقد اجتذب فصل الخريف العديد من الطيور من الجنوب حيث قرارها. وكان الطائر الذى لا يشبع وابو منجل المقدس يتجولان على طول الضفة. والطائر النساج يجلس بالقرب من اعشاشه الرائعة الصنع وطائر البدج النارى على اذرع الذرة والصقر الباهر ألوان الجناحين يصطاد الجراد، والنسور تحوم فى الفضاء العالى. ورفع فرس النهر رأسه الضخم من الماء وحملق فى السفين الماخر بالقرب منه وفى القطعان الراتعة فى الاعشاش.. وكأنه يودعنا.

فى العشرين من اغسطس ودعنا الصديقين رايتز وفيرتالر فى حرارة وابحرنا عند الظهيرة. كانت الريح جنوبية وفى صالحنا، وكانت نشطة جدا هذا اليوم، فحملتنا اسفل النهر وسرعان ما طوقتنا جبال وادى الصخور الضيق فى قرِّى، وكانت منظرا شيقا للعين. وكان النهر

الجبار يتخبط بين الجبال شديدة الانحدار التى تحيط به وتضيق عليه وتضغطه حتى يصبح عرضه قرابة مائتين وخمسين خطوة.

واليوم ايضا واتتنا ريح جنوبية اسرعنا معها اسفل النيل. عند الظهيرة اشتدت وصارت عاصفة، واخذت سفينتنا تتقاذف فوق الصخور على الضفة اليسرى للنيل مما اضطرنا الى التوقف. وكانت الصحراء الجرداء تمتد عن يميننا ويسارنا.

وبعد ساعة ونصف واصلنا رحلتنا. وقد اتسع الوادى واتسع النهر ايضا، وكانت به جزر عديدة تنتصب فيها اشجار الميموزا [السنط] المزهرة وتغطيها النباتات المتسلقة بكل الالوان الزاهية. وكان صقر النيل يجيل رأسه الابيض فى تيار النهر وهو فى قمة الاشجار الغزيرة.

فى صباح اليوم التالى وصلنا بلدة المتمة، وهى موضع بائس قليل السكان والذين يحترفون الحرف اليدوية من تصنيع مشغولات فضية وحديدية وجلدية، ومموهة بالذهب. وكان اليوم يوم السوق.. وكان وضيعا. فتوجهنا الى اطلال القلعة التى احتلتها القوات النوبية لدى ثورة الشعب فى عام 1822 بقيادة الملك نمر، لكنها اليوم خربة الحصون والقلاع. وفى كوخ معتبر بالنسبة للسودان وجدنا مريسة ام بلبل جيدة، لكننا بحثنا دون جدوى عن ريش النعام والذى له تجارة رائجة هنا.

وتقع شندى على مبعدة نصف ميل اسفل النهر من المتمة فى الضفة اليمنى للنيل. وكان حسن اغا قد كتب لى توصية الى وكيله حسن اغا. ولدى وصولنا استقبلنا استقبالا حارا، وجعلنا نعد بان نقضى الليل بمنزله. وفى المساء تجولنا راكبين فى المدينة مع حسن اغا. وفى موضع القطية التى حرق فيها اسماعيل باشا بنى جامع. وظل قصر الملك نمر الجليل خرابة، وكذلك المدينة التى لم يعد بها غير ثلث ساكنيها، فقد

انحسر عدد السكان من عشرين الف الى اربعة آلاف. وبجانب العساكر الاتراك ليس هناك غير العرب، فالنوبيون ما عادوا يعيشون هنا. واهل شندى ذو سماحة مظهر ولكنهم طائشو عقل لا يتقيدون باخلاق، منساقون للشرب ومآثم أخرى.

غادرنا شندى فى صباح 13 اغسطس وقد واتتنا الريح هذا اليوم ايضا فوفرت على بحارتنا مشاق التجديف ويسرت سفرنا. وحوالى العاشرة صباحا مررنا بمروى القديمة الشهيرة التى تقع على الضفة اليمنى للنيل، ورأينا اطلالها واهراماتها والتى تبعد كثيرا عن الضفة. ورأينا ايضا من السفينة الاطلال التى تبعد قرابة نصف الميل من الضفة وكانت سلسلة من الجبال العالية تؤطر الصورة. عند الظهيرة وصلنا قرية ام على، وهى قرية كبيرة بها قباب شيوخ طريفة. وهنا يتسع النيل اتساعا جليلا حتى يبلغ عرضه نصف الميل. والضفتان كلتاهما تغطيهما الغابات او زراعة الذرة. والتيار المائى قوى جدا. وقد وصلنا فى وقت العصر بربر او المخيرف. وكان بالمدينة الصغيرة التى لا شأن لها قرابة ستة الاف نسمة. ان تجارة بربر غير ذات اهمية مع ان معظم البضائع القادمة من الخرطوم واليها تمر بهذه البلدة. وحوانيتها من افقر الحوانيت فى بلاد النوبة كلها. وعادة ما يسافر الناس بالجمال من بربر الى ابى حمد عبر الصحراء النوبية وذلك لعدم صلاحية النهر للملاحة الا فى اوقات الفيضان.

أن يقابل اوروبى مسافر فى اعماق افريقيا احدا من ابناء جلدته مقيما هناك فذاك شئ يسر ويبهجن. وقد سررنا حين قابلنا (لافارك) وقبلنا دعوته الطيبة لنا بالنزول عنده بعض الوقت. وفى بيت الفرنسى قضينا عصر ذلك اليوم ومساءه فى انس لطيف. وعدنا الى السفينة فى وقت

متأخر. وكانت على الافق الغربى زوبعة رعدية، فرأينا البرق يخطف البصر من بعيد والرعد يدوى بعيدا، فلم نكترث لذلك ورقدنا طلبا للراحة، فلم يطل نومنا، اذ استيقظنا على ريح شرقية تحمل سحبا سوداء من الاتربة والرمال، غطت كل ما حولنا. ودام ذلك وقتا عدنا بعده الى النوم. ولكننا وللمرة الثانية قطعناه اذ انهمر مطر غزير ولم يكن لنا مانحتمى به من تلك الزوبعة الرعدية غير خيمة من القش تجمعت فوقها المياه ثم انصبت علينا.

فى الصباح ايقظتنا الريح الغربية الباردة الرطبة. كانت ليلة جهنمية وصباحا شيطانيا. كل ما تقع عليه العين مبتل. وقد حاول الطباخ فى همة ايقاد النار دون جدوى، فاسعدنا دفء الشمس.

وكانت الزوبعة الرعدية قد انزلت ببربر اضرارا كثيرة من ضمنها اغراق ثلاث سفن محملة بالصمغ العربى.

قبيل الظهر زرت صديقنا المضياف مرة أخرى، واستبقانى لتناول الغذاء معه. وقبل رحيلنا قدم لنا زوجه، وهى حبشية من اجمل بنات جنسها ممن رأيت. وكان قد اشتراها وهى بنت ست سنوات واخذها الى القاهرة حيث نشأت هناك. وفيما بعد اخذها لنفسه وصحبها فى رحلات عديدة احتملت صعابها فى جلد كبير وقابلت مخاطرها بعزم الرجال. وقد انقذت حياته ذات مرة بحضور ذهنها واردت شخصا بالرصاص بيدها حين حاول النيل من زوجها. كانت تحب الفرنسى وكان له الحق كله الا يندم على اختياره، وقد اثمر حبهما صبيا اسموه [كامل].

ويعيش لافارك تاجرا ببربر وهو بذلك سعيد جدا، وقد جمع ثروة لنفسه من رحلاته التجارية الرابحة وفى نيته العودة الى فرنسا. وهو فيما علمت رجل امين ومخلص، مما يعتبر استثناء بين تجار السودان الشرقى.

غادرنا بربر بعد الظهر دون ان نرى السفن التى نسافر بها عبر الشلالات. وكانت واحدة منها ملكا للفرنسى لافارك، وتحمل اربعمائة طن من الصمغ العربى، والطن مقدار خمسين كيلوجراما.

وبعد رحلة طيبة وسريعة وصلنا فى اليوم التالى الى جزيرة مقرات الخصبة التى لا تبعد كثيرا عن ابى حمد والتى وصلناها بعد ساعة ونصف فى يوم 18 اغسطس. وكالعادة كان بحارتنا يريدون قضاء بضعة ايام هنا لتجهيز السفن قبل عبور الشلالات الخطيرة. وعندما اوضح لى الشيخ محمد على وكيل حسن خالص شيخ الصحراء ان بالامكان ايجاد جمال، قررت ان ارسل جزء كبيرا من مجموعتى عبر الصحراء النوبية الى كورسكو. وبمجرد رؤيته لختم افندينا الكبير على الفرمان الذى احمله رضى محمد على ان يحمل صناديقى حتى كورسكو بتسعيرة الحكومة وبواقع 15 قرشا للطن [لكل خمسين كيلوجرام]. وكان ما رواه الشيخ لى هاما جدا وخاصة تصويره للصحراء، وهو عارف معرفة دقيقة للصحراء النوبية من ابى حمد حتى البحر الاحمر او من هناك الى كورسكو. وعلمت ان بالصحراء آبارا كثيرة ضرب حولها البدو - وخاصة قبيلة العبابدة - خيامهم. والامطار التى تهطل فى الخريف كافية لنمو نباتات تعلفها الجمال والاغنام والمعيز وتملأ الآبار. ويندر ان يتوغل الموظفون الاتراك فى هذه القفار، وبذا يحيا اهلوها فى امان واطمئنان على ثرواتهم. فقط عليهم اداء ضرائب كثيرة للشيخ حسين خالص، واقول كثيرة لان الاتراك لا يعرفون مملكتهم.

والصحراء النوبية هى مستودع غيار للجمال الكثيرة التى تعبر الطريق من ابى حمد الى كورسكو، وبدونها يستحيل الاستمرار فى استخدام ذلك الطريق لان الاعداد التى تسقط فى الطريق تجعل منه اكثر طريق يستهلك حيوان الشيل فى كل الاراضى الواقعة تحت تركيا.

31 أغسطس..

بعد قراءة الفاتحة، غادرنا [ابوحمد] فى الصباح الباكر مع السفن الاخرى. وينحنى النيل بعد ربع ساعة من هذه القرية باتجاه الغرب، ويجرى فى ذلك الاتجاه قرابة 25 ميلا. عطفنا على الضفة اليمنى الى احد اذرع النهر وعبرنا الشلالات الثلاثة بسرعة. وقبيل الظهر وصلنا جزيرة بها اطلال قلعة قديمة هى (ود ابوحجن). وبعد ان صافحت اعيننا من جديد بعض اشجار النخيل بالقرب من ارض زراعية ضيقة وصلنا الى القلعة، قلعة ود ابوحجن، وكانت فى موقع رائع ورومانطيقى. انتصبت كتلة صخرية سوداء لامعة وهائلة وشديدة الانحدار، سامقة، تهدر فيها الامواج الهوج المتكسرة، وعلى قمتها حطت القلعة مثل تاج يغطى رأسها الاسود. وقد بنيت القلعة من الحجارة واللبن، فهى من ثمة لا تستطيع الصمود امام المدافع، لكنها قادرة على مقاومة هجمات العصر الذى بنيت فيه. وكان جزء منها وهو الاقدم فيما يرجح قد انهد واضحى ركاما. واسوارها من حجارة ضخمة وضع بعضها فوق الآخر. وفى الطرف الادنى من الصخرة كون النهر جزيرة خصبة اقام عليها عدد من الاسر النوبية اكواخا وحقولا.

وهناك فى منطقة الاطلال تلك عدد كبير من التحصينات. والغرض الاساسى منها هو حماية اهل تلك المنطقة الفقيرة وقطعانهم من غارات الشايقية. وكثيرا ما كانت جماعات من تلك القبيلة تقوم بغارات تمتد حتى بربر نفسها، وهم يسطون على الناس والماشية والغلال والثمار الأخرى ويعودون بها الى ديارهم.

النهر هنا تسده الصخور تماما، وعلى كلتا الضفتين تتجمع الصخور وترتفع فى اشكال جبلية فريدة. فقط حين تظهر بضع نخلات يستطيع

جهد الانسان البائس المولود هنا ان ينتزع من الطبيعة الجرداء رقعة زراعية ضنينة. وفى تلك الرقعة الضيقة تلتصق بالضفة مزارع ذرة لا يكفى انتاجها غذاء اسرة واحدة. وبعدها مملكة الصخر. من قمم الجبال لا يرى المرء سوى الصخور والرمال فى كل الجهات، وكأنما هذه القفار قد خلقها الرب فى فورة غضب! فالكتل الصخرية السوداء تمتد فى فوضى ودونما حدود امام الناظرين، ويستدير المرء فى رعب وهلع الى النهر دائما.. فهوالحى الوحيد فى مملكة الموت.

بعد صلاة العصر رسونا بالقرب من بضعة اكواخ اطلق عليها اسم سلامات. وقد بنيت على الصخر توفيرا للارض التى يمكن زراعتها. واهلها فقراء بشكل لا يمكن تصويره، ومع ذلك يتمتعون بحظ كبير، فهم اصحاء حتى ان المرض لا يعرف بينهم الا من اسمه فقط. فالمرء يولد هنا وينمو ويعد السنوات بارتفاع وانخفاض النيل، ويعرف انه قد كبر حين يرى شعره يشيب وظهره ينحنى واعضاءه لا تقوم بوظائفها. وعندما يحين اجله يموت دون ان يدرى كيف اقترب الموت منه، ودون ان يحس به.

ان الكتل الصخرية على الشاطئين اشد فقرا، والمحيط اكثر محلا وحزنا عما سواه.. نرتقى التلال التى على الضفة من جهتنا ونعاين الصخور عن كثب. وهى مكونة من صخور سماقية وصخور أسوان البركانية، ولكنها مشققة ومتراكمة فوق بعضها البعض وعلى طبقات فريدة، الامر الذى يجعل المرء لا يدرى اى القوى الطبيعية قد احدثت كل هذا. وحتى الافتراض الذى عادة ما يقدم نفسه من ان الماء هو الذى احدث هذا يبدو غير مقبول. فهناك كتل صخرية من اكثر من الف قدم مكعب وقد تفتتت الى حجارة صغيرة مكعبة او مستديرة يمكن لانسان ان يدحرجها ويرفعها.

3 سبتمبر..

بعد قليل من بدء رحلتنا احاطت بنا من جديد الجبال الصخرية الممتدة، واجتزنا شلالا صخابا قذافا للامواج. ثم سرنا الى الشمال. وفى الاستدارة الخارجية للتعريجة التى سنمر بها فإن الماء الذى سنمخره تسده صخود غير مرئية وغدارة وخطرة للغاية. وقد اقتفت سفينتنا السفينة التى يقودها الريس سليمان، ومالت معها بشدة على الضفة اليمنى ومرت بسرعة وخفة بين الصخور. اما السفينة الاصغر بين السفن الخمس فلم تستطع اتباع مجرى الملاحة واصطدمت بقوة بحجر فى الماء فهوى كل المجدفين ارضا وسقط بحار فى الماء ولكنه انقذ. كما تم انقاذ السفينة، ورست على الضفة، مما استوجب البقاء هنا ساعة ونصف، ثم عاودت السفن سفرها، وبعد بضع ساعات لجأ البحارة المتعبون الى بعض اكواخ ليرتاحوا ويستعيدوا قواهم للمخاطر التى تنتظرهم.

وكانت المنطقة المحيطة بنا مثلها مثل تلك التى رأيناها بالامس واول امس قفرا موحشا وصخورا سوداء تضيق على النهر. وكان النيل يتلوى مندفعا فى مجراه الضيق. والتيار هنا قوى سريع. وفى احدى الجزر الصغيرة المرتفعة فى وسط النيل ابصرنا احدى التحصينات وكأنها صقرعليى قمة الصخر. وكان اخطر موقع بالشلال بانتظارنا. والنهر يستدير اولا غربا ثم يمضى جنوبا ويعود الى الغرب مرة اخرى. فى التعريجة الاولى صخور فى الماء تجاوزها الريس سليمان باتباع الضفة اليمنى. وجهدنا نحن ايضا بكل قوانا اتباع ذلك المجرى. كانت قوة المياه شديدة مما دفعنا الى اليسار ودفعتنا امواج شديدة القوة وتبعنا مركب آخر وحين اقتربنا من السفينة التى تقدمتنا سمعنا ارتطاما هائلا هو

ارتطام سفينة الريس سليمان بكتلة صخور. واستنجدنا بحارتها، ولكن الحظ حالفهم اذ استطاعوا تخليص سفينتهم من الصخور وبلغوا الشاطئ، لكن المياه غمرت نصفها، وكان لا بد من تفريغ حمولتها. وعمل اكثر من خمسين شخصا على انقاذ حمولة الصمغ العربى التى تشكل الحمولة الرئيسية بها.وقد حزنت لرجل خسر اكثر من الفى قرش. وكانت جملة الخسائر خمسة الاف قرش. ان ايمان ملة محمد بالقدر قد تم التعبير عنه بشكل شاعرى، ولكنه كما رأينا اليوم لا يحمل العزاء كله كما ينبغى. فالانسان بطبعه انانى ولا يمكن ان يقبل كل ضربات الاقدار بنفس القدر من عدم الاكتراث. فالتاجر الذى ربما قد فقد سدس ماله ظل يبكى ويشكو خسارته ولم تجد محاولات الآخرين فى مواساته فتيلا. وكالعادة فإن المعارف العربية اوجدت سببا واصلا لنكبة اليوم. اذ ان بحارة السفينة الصغيرة التى اصطدمت بالصخور احسوا بالذنب لانهم اختطفوا هرة صغيرة من احد الفقرا [الفقها]، ولا بد ان جريرتهم تلك قد جلبت عليهم النكبة. وعندما توقفنا للمقيل اخذوا الهرة المسكينة ووضعوها فى وسط الصحراء حتى لا تجلب لهم مصيبة جديدة، وتركوها لقدرها القاسى. كنت اريد قتلها طعاما للنسر الذى احمله معى ولكن الريس ناشدنى وتوسل الى الا افعل حتى لا ينتقل الذنب الينا بعد ان انفك منه اؤلئك. وقبلت اخيرا مؤملا ان يمر صقر ينهى عذاب الهرة.

اما بالنسبة للسفينة الأخرى التى كادت ان تتحطم، فقد عزوا ذلك الى ان العبدات السود والسمر قد استحققن عذاب الله لانهن متعن القوم بمفاتنهن، وحسب مفهوم العرب فان المراة لا تجلب البخت للرجل فى السفر ابدا. الا فيما ندر، ولذلك كان لا بد للسفينة ان تواجه ما واجهته. رحمة الله وحدها هى التى جنبتهم مصيرا أسوأ.

وبعد ان اجتزنا شلالا صغيرا بلغنا بعد حين ما يعرف بالشلال الثالث، شلال الطين. وينقسم النيل بعد ضيق مجراه الى ثلاثة اذرع، احدها خال تماما من الصخور. وقد وصلت كل السفن التى سبقتنا الى هذا الذراع. لكن رجالنا لسوء تقديرهم اوقعونا فى الذراع الاوسط، وفى لابرنث من الصخور لم يخرجنا منه غير المهارة الفائقة لريسنا العجوز. بعد ذلك صارت المنطقة افضل مع مرور كل ربع ساعة. كنا نقترب من ارض اجمل رجال النوبة، الشايقية. وهم يؤلفون عنصرا من البشر قويا، ويتفوقون على كل القبائل الدنقلاوية الأخرى. وكانوا فيما مضى سادة البلاد، وكانوا يسيطرون تماما على النوبيين الآخرين. وحتى اليوم مازال الناس يتندرون عليهم بان الشايقية كانوا يقيدون اجدادهم باوراق البصل دون ان يجرؤوا على فك ذلك القيد الواهن. وقد احتفظ الشايقية بلغتهم العربية وما زالوا يعتزون بانهم لم يختلطوا بالبرابرة المحيطين بهم والذين يحتقرونهم. ونساؤهم جميلات، ولكنهن اقل جمالا بالمقارنة الى نساء دار المحس، اجمل نساء النوبة.

وتزداد غابات النخيل غضارة وحقول الذرة كلما اقتربنا من جبل البركل. وتعتبر قرية البركل النقطة المركز لدار الشايقية، اخصب منطقة فى بلاد النوبة. وقبيل المساء نزلنا بالقرب من جبل البركل الشهير، ورأينا المعبد اسفله والذى اصبح حطاما وركاما واطلالا، وقد زحفت رمال الصحراء وسدت المداخل الى عدد من الغرف المنحوتة فى الصخر. وقد وجدنا غرفتين صغيرتين مفتوحتين وبهما اعمدة قليلة. وكانت على الجهة الشمالية الغربية من الجبل اهرامات لم نزرها.

7 سبتمبر..

وصلنا كورتى فى وقت طيب، وكنا قد فارقنا البركل منذ ايام وقضينا الليل فى قرية صغيرة. وفى اماكن عدة رأينا بعض آثار ابنية فى

مواقع رومانتيكية. وفى كورتى وجد البحارة بعد عبورهم الموفق للشلالات البلبل والمريسة.

وكورتى بلدة لا اهمية لها، لكنها عامرة بحانات البلبل، وبها بنات هوى. وهن فى العادة عبدات يحملهن اسيادهن على تلك التجارة الشائنة.

8 سبتمبر..

بدأنا رحيلنا قبل طلوع الشمس، وكانت الصحراء تحف ضفتى النهر وتضيق الرقعة الزراعية. ومع ذلك كانت هناك زراعة مزدهرة. وقد وصلنا قرية طابه Tabbe قرابة الساعة العاشرة صباحا، وهى المحطة التى تنطلق منها القوافل الى كردفان. وانتثرت اكواخ عشرون او اقل فى الصحراء، وكذلك اكواخ المريسة. وهنا ايضا بنات هوى ينعشن قلب القادم من الصحراء وفمه بالحب والمريسة.

وكان اليوم يوم سوق. واختلط القوم من سحنات وملابس مختلفات وتدافعوا عارضين بضاعتهم. وكانت بينهم قارئة البخت التى بشرتنى بحظ ومستقبل سعيد، ولو تم عشر ما تنبأت لى به لأسعدنى. والدناقلة الذين يصدقون ما ينبئهم به من بخت تعلقوا بكل ما لفظه فمها.

9 سبتمبر..

كان اثنان من البحارة من جزيرة حمور فوق دنقلا العجوز. فنزلنا هناك، وخرجنا للصيد، بينما مضى البحاران الى اسرتيهما. ولدى عودتنا وجدنا جمعا من الناس فى بيت البحار الاكبر سنا. وكانوا قد ذبحوا خروفا وكانما هو ابن عائد بعد غيبة طويلة، واقاموا وليمة صغيرة واحتفالا. وجاء اقرباؤه من الضفة الأخرى قاطعين النهرعلى خراطيم

ملئت بالهواء. فالعرب والنوبة قادرون على بث الخبر عبر النهر باصوات عالية حتى ولو كان عرضه يستغرق ربع ساعة. وبعد رحيلنا فى الظهيرة كان لا بد ان ننزل مرة أخرى ونحط الرحال فى دنقلا العجوز لنتيح لبحار آخر فرصة زيارة اهله.

ويقال ان هناك نفقا ارضيا من دنقلا العجوز الى جبل البركل. ومع انى اشك فى حقيقة هذه الرواية فانى ارى امكانية وجود حفرة واسعة عميقة لانى سمعت من كثيرين من الاهالى نفس المقال كلما ذكرت دنقلا العجوز. ويروون ان عجلا قد اهتدى بالصدفة الى الحفرة الموجودة بالقرب من جامع دنقلا العجوز وانه ظهر مرة أخرى هزيلا وبقرون مثلومة وجلد دام فى جبل البركل. ولاسفى لم تتح لى الفرصة او الوقت للتاكد من حقيقة هذه الحادثة.

10 سبتمبر..

هبت ريح معاكسة قوية ولم نتمكن من مغادرة المكان. ومساء نزلنا فى مرسى دنقلا. واول مكان زرته كان الاهم والاكثر ايلاما بالنسبة لى، وهو قبر اخى الذى دفناه قبل ستة عشر شهرا هناك. وانى لعاجز عن تصوير المشاعر التى كانت تتملكنى وانا ادخل المكان الذى اودعنا فيه هذا الانسان الطيب قبل 16 شهرا. ولا يمكن لاحد تقدير مشاعرى غير من اودع الارض اغلى صديق له دون امل فى لقاء على الارض. وكان فراقى اكثر ايلاما لانه لم يكن وداعا لحى، بل من قبره. والفقد الذى لا يعوض الذى عانيته عاد بكل مرارته الى قلبى واحسست به من جديد، وفارقت المقابر وانا اشد حزنا منى حين دخلتها.

رحلنا عند الظهيرة، ووصلنا ليلا الى جزيرة [بدين] الغنية بالبلح، ولكن اهلها مع كل ما لديهم من غابات النخيل الممتدة فقراء جدا، وقد

وضعت الحكومة ضريبة عالية على كل نخلة، تبلغ حوالى 25 فلسا سكسونى.وبما ان كل النخل عليه ضريبة بغض النظر عن كونه منتجا او غير منتج فليس هناك سبيل لدفع الضريبة فى يسر، وكثيرا ما يخيب حصاد او يعجز النوبة عن حصاد ثمارهم، وبذلك تتراكم عليهم الضرائب، ويعانون كل الضغوط الحكومية. فلا غرو ان استغرب المرء كيف امكنهم العيش.

17 سبتمبر..

وبعد رحيلنا ظهرا عبرنا شلال [هنك] وهو اول جنادل الشلال الثانى. ورأينا على الجزر الكبيرة قلاعا مثل تلك التى بوادى قمر، وترتفع القصور فى كل اطراف جزيرة [سيمت] Simmit الكبيرة، وكان احدها الموجود فى الطرف الادنى مهجورا، مما يدل على ان غارات الشايقية تمتد حتى هذا المكان.

19 سبتمبر..

ينحنى النهر من مكان مبيتنا نحوالشمال الغربى، تطوقه الجبال الصخرية، ويتدحرج بطيئا فى مجراه الضيق. وبلغنا فى الثامنة صباحا قرية كوة Koeوبعد ساعتين وصلنا معبد [صوبى] Sobbe حيث دار المحس. وحوالى الظهر نزلنا فى قرية [سوارتى] Soahrte لشراء بلح ولحم. واشترى منصور عنزة صغيرة للاسود، ولكنه دخل فى خناق مع البائع الذى ندم على بيعه. وسرعان ما احتشد عدد كبير من الرجال حول سفيننا، وحاولوا امساك الحبال التى تربطه بالشاطئ، وباءت كل محاولاتنا لتعويم السفينة بالفشل، والجمهور بالشاطئ يزداد عددا، وبدأوا يقذفون السفينة بحجارة ضخمة. فاخرجت سلاحى وهددت باطلاقه ان لم يتركونا فى سلام، وعبأته واطلقت فوق الرؤوس. ولم

يـجد فـتيلا، بل ان قذفـهم الـحجـارة اشتـد، وهيـاج الشـعب قد ازداد، ولـم تنفع الانذارات المـتكررة. فقررت ان اطلق على الـجمع نفسـه. ولكيلا اودى بحـياة احد، سـددت الخرطوش نـحو الرجل. وكـان اثر ذلك كبـيرا، فخلى الرصيـف، ولكن للحظات فقط. فقد ارتـفع الصـوت المولول فى القرية كلـها، وامتلأ المـكـان باكـثـر من خمسين رجـلا مسلـحـين بـالحراب، والـفؤوس والمـعـاول والـهـراوات وما الى ذلـك من الاسلـحـة، وتـحـدونـا الى الـنزال. ولـخشـيتـنا ان تزهق ارواح كـثيـرة تجاوزنـا عن تـحديـهم ورحلـنا. ولكـى اطفئ فيهم كل رغبة فى القتال ارسلت الطلقات فوقهم.

بـعد نـصف سـاعـة ظهر عـلى الضـفة الـيمـنيى جـبل [دبى] الذى كان بـارتفـاع 800 قدم، وعلـى يساره جبل [صـاى] الـذى اشتـهرت الجزيرة المسماة به على يد المماليك.

قـضـيـنا الـليل فى قـرية [كويـكه] وكانت اعلـى قبـة رأيـنـاها حتى الآن ترتـفع فوق اعراف الـنـخـيل وهى على ضـريح ولى مشـهـور ما زال اخوه ادريس يعـيش ويتمـتع بالـتجلـة والتقـدير. وكان قـد اشتـهـر باعمـال البر ومـساعدة المساكين وقد حج الى بـيت الله الحرام سبع مرات. وقد اقام له اخوه ادريس هذا الضريح، وتلقى الهـدايا الثمينة من نائب الوالى والعون من الاتـراك القـادرين، وقـد اعفـاه محـمـد على من الـضـرائب. اما الـشيخ ادريس فـقد حج الى مـكه مرة واحـدة، وقد رأيته خـارجا من بـيته لصلاة المغرب. وانـدفـع كل رجالـنا اليه فـى توقيـر واجلال ومهـابة، وقبـلوا يده، وطلبوا بركته، ثم اصطفوا للصلاة خلفه.

وقد اكد لى الريس عيسيى انه ما من مركب تمر من هنا دون ان يطلب بحارتها وريسـها البركة والاذن بمواصلة الرحلة من الشيخ ادريس.

ويحيا الـشيخ ادريس من المنح التى تـصله من الترك والـنوبة، لكنه لا يكنز ولا يـجـمع ثروة، بل ينفق كل ما يـصله على الفقـراء وابناء السبيل ـ

المسافرين - وقد ارسل الينا عددا من الصحاف بالعشاء مع امنياته لنا بالبركة - دعواته الصالحات. ولم نسخر من النوبيين الذين يجلون رجلا بارزا كهذا لم نملك الا ان نحترمه، وقد وجه ببناء بيت فى الصحراء على مبعدة بضع ساعات من كوايكه لخدمة المسافرين. وقد رأيناه فى اليوم التالى. وليس بالقرب منه سكنى انسان، وتحيط به الصحراء، وبذلك هيأ للمسافر مكانا للراحة والاستجمام حلت به بركة رجل اقل ما يقال عنه انه انسان محترم. مثل هذا الرجل النبيل لا بد ان يثير الاحترام فى النفس.

وقد زار باورهورست القبة فوجد قبرا بسيطا من اللبن وعليه كتابة بالعربية كزخرف، وفوقه خشب مشغول تغطيه قبة اطرافها مفضضة. وعلى الارض والخشب المشغول ملاءات من الصوف والحرير.

ذاك هو قبر او ضريح ولى كويكه.

20 سبتمبر..

كان الصباح يغطيه الضباب وينذر بيوم عاصف. وبعد رحيلنا بوقت قليل بلغنا جزيرة صاى ثم قلعتها التى حصنها المماليك ثم احتلها الاتراك وكانت آخر نقطة رئيسية للمماليك بعد هزيمتهم. ويقال ان المجزرة التى تلت هزيمتهم لدى احتلال القلعة كانت رهيبة، وان الخطوط السوداء الغليظة التى ما زالت ترى فى جدران القلعة كانت من أثر الدماء.

22 سبتمبر..

عندما يجتاز المرء فى قدومه من الخرطوم فى سفينة تعيسة بجذافين سيئين وبحارة لا يوثق بهم اكثر من عشرين شلالا ويبقى امامه شلالان فقط، وقد انزل من السفينة كل اشيائه الغالية قبل وصولهما فإنه يحمد

الله كثيرا.. وذاك كان شعورنا بعد ان تركنا [سمنه] وراءنا. وكنا واثقين بأن امامنا منطقة افضل سنبلغها. بعد ان كنا فيما مضى نواجه منطقة كلها شلالات ومخاطر وارضا بلا زراعة او لا تمكن زراعتها لانها صخور جرداء وصحارى.. وقد بدأنا نحس بشعور بالراحة والاطمئنان على متن واحد من اكبر الانهار فى العالم، والذى يجرى عبر أعجب الاراضى فى الدنيا. ولم يبق امامنا قبل دخول المجرى الخالى من الصخور والامن غير شلال واحد هو شلال وادى حلفا.. ثم ندخل وادى [العرب] ووادى الكنوز ومصر.

استأنفنا السفر مبكرا جدا هذا اليوم، وبعد حين ظهرت لنا اسوار قلعة ابكه [ابكى]. وكنا على مبعدة ربع ميل من هذا المرسى الذى نعرفه عندما كاد عدم مهارة طاقم السفينة ان يلحق بنا فاجعة تضع نهاية مؤسفة للرحلة كلها. ففى الموضع الذى كنا فيه يتسع النيل الى اكثر من نصف ميل ويجرى فى ثلاثة اذرع بين الصخور. وكان الريس عيسى يريد ان يأخذ الذراع الايمن، لكن الخبير النوبى الذى كان معنا، محمد على، حذره من ذلك لوجود دوامة فى الطريق الذى اختاره. فاتجهنا الى الذراع الاوسط وبلغناه. وهنا ظن عيسى ان المجرى المائى على الضفة اليسرى افضل، ووجه اليه السفينة، ولكنها اصطدمت على الجزيرة الصغيرة الفاصلة بين الذراعين، وجرفها التيار فوق كتلة من الصخور حيث غرزت بها، واحدث ذلك ثقبا كبيرا بها، واندفعت فيها المياه بقوة، وفقد الجميع عقولهم ورشدهم صاروا دون هدى او خطة يتجولون على ظهر السفينة. وخلع البحارة ملابسهم توطئة لهجرها سباحة اذا ماغرقت تماما. وهنا شعرت وباورهورست بخطورة الموقف، ومنعت البحارة مهددا اياهم بالموت من هجر السفينة. لم نكن نخشى على ارواحنا بل على تشندورف الذى لا يعرف السباحة، ولذلك طلبت من

خادمى ان ينفخ خرطوما كالذى يستخدمه النوبيون ويلفه حول الرجل. ثم اودعت مال الرحلة عند منصور واعطيت محمد اهم اوراقنا فى صندوق محكم، على ان ينقذا كل ذلك اذا لزم الامر ودعت الضرورة. وكان ذلك اهم شئ. وكان كل شئ على السفينة يسير فى فوضى، فهى ما زالت على الصخر، وذاك ما منعها من الغرق اكثر. ولم يفق البحارة الى رشدهم بعد. حاول البعض تحريكها وتعويمها. وكان آخرون يشفطون الماء عنها. فتوجهت الى الدفة ووجدت باوَرهيرست قد سبقنى اليها، وكان يحركها يمنة ويسرة دون قصد واضح.فهى منقذنا الوحيد. وقد نجحنا فى تحريك السفينة بفضل قوة دفع الماء على الدفة العريضة..وحدث ذلك بسرعة شديدة حتى ان من كانوا يحاولون تحريك السفينة من على الصخر لم يجدوا الوقت للركوب، فتقاذفتهم امواج الدوامة. لكننا انقذناهم بان مددنا لهم بعض الاعمدة، وكان الكل ما زال يتخبط، مما جعل السفينة تدور مرتين او ثلاث حول نفسها قبل ان يسرع الجميع للامساك بالمجاذيف، وقمنا نحن بتوجيهها مستخدمين السوط فى فرض الاوامر على الفور. واخذ البحارة يبذلون كل طاقة، واخذنا نحن والخدم نشفط الماء، لكننا لاحظنا ان السفينة كانت مع كل ضربة مجذاف تصبح اثقل حركة، واخذت تغوص اكثر، والماء بها بمقدار قدمين فى جوفها، وغطى اكثر من نصفها. واخيرا وصلنا الى الضفة اليسرى للنهر، فاسرعنا الى وضع اوتاد قوية لربط السفينة اليها بحبال قوية كى لا تغوص اكثر، ثم شرع فى افراغ جوالات البضائع والصناديق. وواصلنا غرف الماء بمشاركة عدد كبير منا، وتمكنا من سد عدد من الثقوب.

وكانت الصناديق وجوالات الصمغ فى حالة يرثى لها، ومع ذلك كان الضرر اقل مما كان ممكنا. وقد كانت خسارتى مما فقدته قرابة ستمائة تالر.

وكان الريس عيسى قد فقد اكثر منى كثيرا، فهو قد ترك موطنه اكثر من 24 شهرا، وهو قرية الشلال بالقرب من اسوان، واجهد نفسه واجتهد طيلة تلك الفترة حتى حصل على عشرين طنا من الصمغ العربى. وهو قد فقد اكثر من نصفه فى الماء، فأخذ ينتف شعر لحيته الاشيب، ويبكى. ولم تجد كل محاولاتنا للتسرية عنه، فالمسكين لم يستطع تقبل ما أصابه من القدر.

وبينما كنا فى قمة انهماكنا فى العمل ظهرت السفن الثمانى التى رأيناها فى سمنة أمس، ومرت واحدة تلو الأخرى بالذراع الاوسط الذى لم يختره الريس عيسى لسوء الحظ. فناديناهم ليهرعوا لنجدتنا. وكانوا معنا بعد دقائق. ونزل عشرون من رجالهم ليغيروا رجالنا المتعبين. وفى ظرف ساعة سدت كل الثقوب وغرف الماء من السفينة، واعيدت الحمولة، وابحرنا بعد ثلاث ساعات من التوقف الى الموقع المألوف للتوقف على الضفة الأخرى. وهناك انزلت الصناديق ارضا وافرغت محتوياتها، وجففت رياش الطيور المبتلة بقدر المستطاع، واستغرق ذلك يومين. وربما بسبب الماء الذى غمر السفينة مات ثلاثة من النسور الكبيرة. وكانت تلك اقسى خسارة بالنسبة لى.

25 سبتمبر..

فارقنا باورهيرست الذى ازمع اجتياز الشلال الكبير بالسفينة، وبقيت مع العفش، وارتحلت فى اليوم التالى الى وادى حلفا. ومع طلوع الشمس كنا قد ركبنا لنبدأ السفر، ووصلنا وادى حلفا بعد ثلاث ساعات. اما جمال الشيل فقد وصلت بحمولتها فى ما بعد. وقد علمت بوصول باورهيرست بالسلامة يوم امس. وقد قص على تفاصيل الرحلة. وكانت تقريبا مثل ما خبرته من قبل، وان كانت بعض التفاصيل مختلفة، فان الخطر الذى كان محدقا بالسفينة كان هو هو.

28 سبتمبر..

قرابة الظهيرة وصلت الى وادى حلفا سفينة كنا قد بدأنا بها رحلتنا لاجتياز الشلالات. واتتنا بالنبأ بأن السفينة التى اصيبت باضرار كبيرة فى 3 سبتمبر قد تحطمت تماما فى شلال كوسكول اوغاسكول بالقرب من حلفا، وغرقت بحمولة 15 جمل من الصمغ. ونجا ركابها وبحارتها بصعوبة.

بعد ذلك بقليل وصلت احدى سفن لطيف باشا، سندى ونصيرى. وكانت حمولتها تشتمل على اسدين هما هدية من لطيف باشا الى القيصر النمساوى و15 الى 20 جارية حبشية. وقد عسكر القوم بالقرب منا تحت اشجار النخيل. ورأينا فتيات جميلات للغاية بين الجوارى اللائى خصصن للخدمة فى بيت الباشا.. وكان المكلف بمرافقة الجوارى والاسدين حريصا جدا وهو يقوم بمهمته عبر الصحراء.

بعد ايام عطلت ريح شديدة رحيلنا. فقضينا جل اليوم فى معبد ابى سمبل، ثم سافرنا فى هدوء الليل.

30 سبتمبر..

مع شروق الشمس كنا فى ابريم، الحصن المملوكى.

2 أكتوبر..

وصلنا كلابشة قبل الظهر وزرنا المعبد العظيم الذى كان معظمه حطاما، وهو من اجمل ما رأيت من المعابد، فهو كبير وواسع ومزين بتصاوير وتماثيل كثيرة وهيروغلوفيات. والمنطقة المحيطة به كلها مغطاة بالانقاض والحطام ولا يبدو على ألوان التماثيل اثر آلاف السنين التى مرت على البناء.

3 أكتوبر..

فيلـــة.. Phila

زرنا اطلال جـزيرة فيلة لـلمرة الثانـية. وعليى الرغم من طـول اقامتنا لم نسـتطع ان نطبع فى ذاكرتـنا صـورة صغـيرة من الجلال الـعظيم. ان عظمة المعبـد وبهاءه والمنحوتـات والزخارف بالقاعـات مما لا يمكن للعقل ان يستوعبه كله فى جملته.

4 أكتوبر..

سافـرت الى اسوان بالجـمال ومعى كـل عفشـى. وبـقى باورهورست بالـسفينـة واجتاز بـها الشلال الاول، وهو لا خـطر له. وبقـينا فى اسوان حتى السـابع من اكتوبـر. وليس لى الكثـير لأقوله عن رحلـتنا عبـر صعيد مصر.

15 أكتوبر..

نـزلنـا قنـا، ثم بعد ايـام اسيـوط، وقابـلنـا بهـا حدادا ألمـانيـا من لايباخ ابـلغنى بـوصـول رفـيق رحلتى الـسابقـة دون ايفـناتيـو أو الأب كنوبـلخر Knoblecher، وكان فى طريقه مع فتية للتبشير فى السودان.

26 أكتوبر..

اضاءت أول خيوط ضوء الشمس اليافعة قمم المنارات الرفيعة لجامع محـمد على، وكان اليوم يوم الاحد. وانطـلقت دقات اجراس الدير للقداس الـصبـاحى. وكـانت كل دقـة تـرن فـى اعـمـاقـنـا.. وتـفـجـر فـيـنـا صـور الوطن.انها نفس الاجراس التى صبغتنا فى صـغرنا، والتى دقت لنا سـاعة الرحيل عن الوطن، وها هـى تستقبلنا مرحبة بنا.

ومرة أخرى انعشتني حركة وحياة المدينة التي لا مثيل لها.. كان بمقدوري ان اتجول كما اشاء في حديقة النصر، وقد قوي جسدي الذي كانت الحمى قد انهكته، وذهني الذي كثيرا ما تدني، سمق وارتفع. لقد عدت حيا من جديد في القاهرة. وكنت قد اسميت هذه المدينة مدينتي المثالية. واقول ذلك مرة أخرى لأصور مبلغ سعادتي. ما اقربني الى الوطن! في ظرف شهر ونصف وصلتني ردود على الجوابات التي كتبتها الى الاحباب.

سكنت وصديقي العزيز باورهورست في بيت في "درب الثعالب" وهو زقاق ضيق في حي شعبي بالقرب من الموسكي. بضع خطوات منه ونكون في حديقة الازبكية، ندخن الشيشة ونجرع القهوة.

ما اجمل الحياة في دروب الازبكية الظليلة. من البعيد ترن مساءً خفيفة ناعمة الموسيقى الاوروبية او العربية وقد لطفتها رياح المساء، ويتجول بعض اهل اوروبا من النساء والرجال وكذلك اهل الشرق مع نسائهم المحجبات. ولكم تبرق عيونهن تحت النقاب متسائلة.. وهناك سماء مصر الزرقاء الرائعة حتى تحجبها الشمس في لون ارجواني، فيختفي الرجال والنساء الذين كانوا يتجولون. لكن ارواح الورود تظل وتصحو ليلا..وتتألق النجوم في قبة السماء ويرق الهواء ويبرد، ويظل ناعما. ويجلس المرء حالما على كنبة من خشب النخيل. ولكن كل الاحاسيس متيقظة لتحمل روعة الليل الى عرش الذهن.

تعرفنا في القاهرة على ثلاثة من الالمان المحترمين قضينا برفقتهم ساعات سعيدة..وهم الدكتور الباحث الطبيعي د. ثيودور فون هويغلين من فورتمبورج، ورجل الاعمال ساور من هانوفر، والدكتور الطبيب ثيودور بلهارتز. وكان بلهارتز روح جلساتنا ولقاءاتنا. ولا ادري إن كانت روحه وشخصيته اللطيفة ام علمه الغزير هو الذي يضفي عليه الاعتبار والاحترام أكثر.

***



هنا تنتهى حكايتى. حبسنى الشتاء فى مصر، وما كان لى ان اغامر وانا فى تلك الحال من صحة منهكة محطمة بالتعرض فجأة لكل آثار طقس وطنى القاسى. وقد اختصرت لى الوقت رحلة لطيفة بصحبة عدد من اهل بلدى الودودين.

19 ديسمبر..

استدعانى القنصل العام النمساوى فون هوبر ليبلغنى بالعرض الذى قدمه البارون موللر للتسوية، فهو يريد ان يأخذ هكذا فى لحظة كل ما جمعته باحتمال كل ما يمكن تصوره من مشاق وحرمان، بعد ان اضطرنى الى الديون اضطرارا. فرفضت شروطه، فانا الذى يملى الشروط، لا هو.

من هذا الوقت بدأت اعمل لاستعجال الرحلة، واتجنب الرقابة التى يفرضها على من هم فى خدمة البارون. وقد انضم الينا للرحلة السيد ليوبارد بوفرى من برلين. وبنهاية ديسمبر استأجرت لنا ذهبية جيدة وابتعت ما يلزمنا من تموين وانهيت اشغالى الخاصة. وقضينا ليلة عيد الميلاد بصحبة ساور الذى اصبح من معارفى القيمين. جلسنا معا وتحادثنا ودخنا وشربنا خمرا قبرصية، وعند منتصف الليل ذهبنا الى كنيسة الدير حيث حضرنا القداس.

وبعد يومين غادرنا بولاق متجهين شمالا ونحن بالقرب من القناطر الخيرية لصيد الخنازير الوحشية. ورسونا فى بطن البحر عند هبوط الظلام حتى لا نعبر القناطر ليلا، وسرنا فى صباح اليوم التالى حتى سيدى ابراهيم، ثم عدنا بعد صيد ناجح الى القاهرة مرة اخرى. وقد كان ما صدناه اساس وجبة ليلة رأس السنة.

فى مساء اول يناير 1852 بدأنا رحلة صيد فى صعيد مصر، وكانت ناجحة وفى جو مرح.. بعد ذلك اخذت افكر جديا فى رحلة العودة الى الوطن. وبدأت العمل بجد فى حزم كنوزى. وقد ساعدنى بوفرى الذى توطدت صداقتى به اثناء الرحلة فى تلك المهمة الشاقة. وفى تلك الاثناء اقترح على البارون فون بنتز القنصل العام البروسى ان ارافق حتى تريست مجموعة الحيوانات الخاصة بحديقة الحيوان ببرلين والتى جمعها هو فى مصر. وقد قبلت هذا العرض، وحولت خدمى القائمين على رعاية الحيوانات الى الحراس، واقلعنا فى 26 ابريل من القاهرة بصحبة بوفرى، مع الحيوانات وبينهم محبوبتى [بخيته]. وفى يوم 28 ابريل وصلنا الى [ادفا] ووزعت الحمولة على اربع سفن صغيرة، وواصلنا الرحلة الى الاسكندرية. ولم نستطع المغادرة الا فى 22 مايو وذلك لعدم وجود مكان فى الباخرة. وهناك ودعنى منصور الذى خدمنى عاما ونصف، ومحمد الذى خدمنى ثلاث سنوات، وكانا قد رافقانى حتى السفينة، وتمنيا لى ان يبارك الله فى خطاى.

كان البحر هادئا، وظل كذلك خلال الرحلة القصيرة التى دامت خمسة ايام. وفى اليوم الثانى من الرحلة كانت كانديا امامنا، وفى اليوم الثالث كورفو الرائعة. وفى اليوم الاخير ابحرنا قريبا من الساحل الدلماسى فى الجزء الغربى من يوغسلافيا، وقد سحرتنى مناظره، فقضيت اليوم كله

على السطح انظره. وفى عصر يوم 28 مايو طلعت تريست من وراء الامواج الزرقاء. ولا يمكنني وصف مشاعرى عندما رأيت اول مدينة فى وطنى الذى يشوقنى.

ومع غروب الشمس ألقينا المرساة فى قاع ميناء مليكة بحر الأدرياتيك.

سلمت الحيوانات الى مندوب وفد من برلين. وبعد ايام واصلت السفر. وودعت [بخيته] فى فيينا، واسرعت الى موطنى الحبيب عبر براغ ودرسدن. وفى 16 يوليو1852 احتضنت والدى العزيزين واخوتى بعد فراق دام خمس سنوات.

وانتهت الرحلة الطويلة.

***


محتويات